

381

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية

تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك

ترجمة وتقديم: د. مرتضى سيدعمروف

مراجعة: أ. د. نعمة الله إبراهيموف

ديسمبر 2009



الفنانة: فاطمة الحاج – لبنان

الصدمة – ١٩٩٣ م

زيت على قماش – ١٣٠×١٩٥ سم

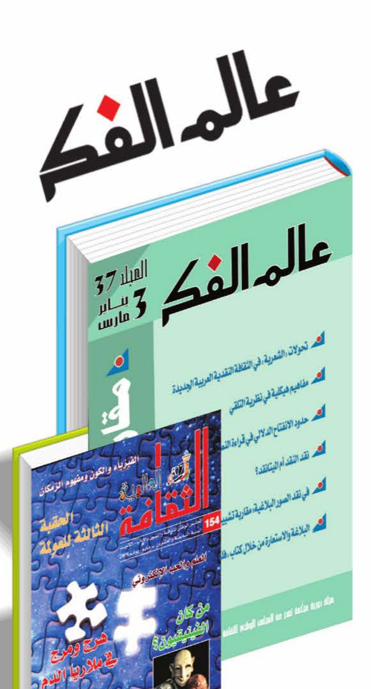
لوحة من معرض مختارات تشكيلية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الكويت

عالم الفكر



عالم المعرفة



الثقافة العالمية



الإصدارت الدورية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب













الإصدارت
الدورية



مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية

تـــــألـــــيــــف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
ترجمــة وتقــديم: د. مرتضى سيدعمروف
مـــراجـــعـــة: أ. د. نعمة الله إبراهيموف

العدد 381 ديسمبر 2009

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E.Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٣٨
ردمك: ٤-٢٩٤-٠-٩٩٩٠٦

• مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية

العنوان الأصلي:



(ТАНЛАНГАН ҲИКОЯЛАР ТЎПЛАМИ)

"ШАРҚ" НАШРИЁТ-МАТБАА КОНЦЕРНИНИНГ
БОШ ТАҲРИРИЯТИ
ТОШКЕНТ-1997

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009م

إبداعات عالمية - العدد 381

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

المقدمة

رأيت أعدادا من سلسـلة «إبداعـات عالمية» خصص كل منها لأدب شـعب مـا، مثـل الأدب الروسـي، والإيرانـي، والأفريقـي، وغيرهـا، فأحببـت أن يكـون لـلأدب الأوزبكـي نصيـب في هذه السلسـلة المفيـدة، فـكان أن كتبت بحثا يعـرّف ببعض مظاهر التطور لفن القصة القصيرة في الأدب الأوزبكي.

كما وقع الاختيار على عدد من الكّتاب، وانتقيت من أعمالهم مـا سـيراه القارئ العربـي مترجما في هذا العدد. وأشـير إلى أنني عرّفت بالأدباء الذين ترجمتُ إبداعاتهم لتتم الفائدة.

وحرصت على أن يكون هؤلاء الأدباء ممثلين للأدب الأوزبكي على مساحة القرن العشرين، لعل هذا يلقي بعض الضوء على الأدب الأوزبكي واتجاهاته وموضوعاته.

وقـد حاولـت أن أشـرح بعـض الألفـاظ التي رأيتهـا مهمة وتحتاج إلى الشـرح، فإن كنت قد أصبت فبتوفيق من الله، وإن كانت الأخرى، فهو جهد قدمته محاولا تعريف القارئ العربي بالأدب الأوزبكي المعاصر.

وأرحب بكل نقد يصحح ويساعد في تقديم المفيد.

والله من وراء القصد.

مرتضى سيد عمروف

من مظاهر تطور الفن القصصي في الأدب الأوزبكي

مرتضى سيد عمروف

فنّ القصــة فــي الأدب الأوزبكي له تقاليــد عريقة وغنية، وقد ســار بخطى وئيــدة - ولكنها واثقة - فــي طريق التطوّر الخــاص به، وتعود جذور النمــاذج الأولى التي أفاد منها الأدب الأوزبكــي عموما إلى قرون بعيدة، فقد حملت المصادر اليونانية التي وصلتنا بعض القصص التي تملك شيئا من عناصر القصة المعروفــة في الآداب الحديثة مثل: «زارئــادر وآدتيدة»، و«زرينة وســترئانقيا»، و«شــيراق»، و«توماريــس»، و«إيرخوبّــي»، وهي تحكي عن نمط حياة أســلافنا، وعاداتهم، ومغامرات العشــق فــي مجتمعهم، ولوحــات من بطولاتهم في الدفــاع عن الوطن وغيرها، فأسطورة «توماريس» التي تسمى قصص البطولة في كتاب «التاريخ» للمــؤرخ اليوناني هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م)، وقصة «شــيراق» في كتــاب «الحيــل العســكرية» للمـؤرخ اليوناني بوليين (القــرن الثاني قبل الميلاد)، قصتان صغيرتان ولكن مضمونهما عميــق؛ إذ إنهما تحكيان عن بطولات الناس المحبين للأوطان وعن إنسانيتهم، كما اشتهرت قصتا: «زارئادر وآدتيــدة» و«زرينة وســترئانقيا» بوصفهما قصتين من قصص الحب والبطولة.

وكذلــك توجد عناصر القصة في المؤلفــات التركية المعروفة في البحوث والدراسات باسم «مكتوبات الأورخون وينيسي»، وقد

أُلّفت في القرون السادس والسابع والثامن الميلادية، وكُتبت بروح قصص البطولة.



إن قصص ربغوزي (قصّي ربغوزي) لناصر الدين برهان الدين ربغوزي (في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) الذي له أثر كبير في تطور الأدب الأوزبكي، تعد نموذجا رائعا للنثر التركي القديم، وقد أسهمت إسهاما فعالا وواضحا في إبداع الأدباء الأوزبك الذين جاءوا بعده، ويمكننا ملاحظة آثارها الإيجابية في قصتي «مفتاح العدل» و«بستان» لخواجة (القرن السادس عشر الميلادي)، وكذلك نلاحظ هذا التأثير في قصة عبدالله أوّلاني بعنوان «البستان التركي أو الخلق».

ونورد قصة قصيرة جدا لربغوزي بعنوان «قصة العنب» كي نعرض مهارته:

«يُحكى أن الشيطان الملعون سرق بذور العنب، وقد بحثوا عنها ولم يتمكنوا من معرفة مكانها، فسألوا جميع الحيوانات، ولم يعرف أحدها، وأخيرا أمسكوا بالشيطان، فقال: أجد لكم البذور إن سمحتم لي أن أسقي العنب ثلاث مرات، وقبِل نوح عليه السلام، وجاء الشيطان ببذور العنب، ولما خرجوا من السفينة، زرعوا جميع البذور، وسقى الشيطان اللعين العنب ثلاث مرات، في المرة الأولى سقاه بدم الثعلب، وفي الثانية سقاه بدم الأسد، وفي الثالثة بدم الخنزير، وأصبح عصيره شرابا، فمن شرب منه يصبح كالثعلب، ويكون صديقا لمن لم يره من قبل، ثم يسكر ويصبح كالأسد، ويصير كريما سخيّا يوزع عطاياه على الجميع،

ثــم يصبح مثل الخنزير، ولا يخاف من أي شـــيء، ويعمل أعمالا سيئة، وهذه نتيجة سقي الشيطان».

وفي إبداع العلامة علي شــير نوائي (١٤٤١ – ١٥٠١م) نجد قصصــا قصيرة فــي دواوينه «تاريخ ملوك العجــم»، و«محبوب القلوب»، و«نســائم المحبة»[1]، كتبت بأســلوب أدبــي أنيق، ولها أهمية في تطور تقاليد الآداب الشرقية.



في بداية العشرينيات من القرن الماضي بدأ عهد التحديث أو التجديد في الحياة الثقافية للشعب الأوزبكي، وتطورت النهضة الوطنية، وظهر الشــعور باستدراك الذات في البلاد، وكان على رأس هذه الحركة المثقفون «المجددون»، المحبون للمعرفة والعلم، وظهر المجددون باســم على مســمى، فقد جــددوا وأيدوا ذلك التجديــد ودعــوا إليه. وفي ذلك الوقت بــدأ النقاش الحاد بين «الجديد» و«القديم»، وشــمل قضايا الحياة والموت في مســائل الثقافة والمعرفة والأدب والفن، وبشكل عام في مصير الشعب.

وقد أسّســت مجموعة «الأدباء المجددين» أو «أدباء التجديد» من محبي المعرفة لفن القصة الواقعية في بداية القرن العشرين الميلادي؛ فنشر عبدالله قادري – مؤسس النثر الأوزبكي الحديث في العقد الأول من القرن العشــرين الميــلادي – قصتي «الزار» و«ســباق الخيل»، و«الزار» قصة وهمية مضحكة، وأما «ســباق الخيل» فهي قصة تحكي عن عادات شعبية لها تقاليد وانتشار بين الناس كرمز البطولة والشــجاعة. ونشر محمود خواجة بهبودي

(١) طبع هذا الكتاب كاملا العام ٢٠٠١م.

قصة «من قتل أباه»، وهي قصة فاجعة تتحدث عن مأساة الجهل حيث كان الابن سببا في وفاة والده.

ونشر جولبان في الوقت نفسه قصة بعنوان «الطبيب محمد ديار»، وفيها نرى البطل يتعلم ويصبح طبيبا مثقفا يخدم نفسه ووطنه ومجتمعه، ويشير المؤلف إلى أن «محاربة الجهل لا تكون بالسلاح وإنما بالعلم وبالعلم وبالعلم فقط»[٢]، ولا بد من القول: إن عناصر المقالة تظهر فيها أكثر من عناصر القصة، ولكنها كانت في مستوى القصة آنذاك، مع بعض الاختلاف في مفهوم القصة وتقنيتها كما نعرفها اليوم، وفيها دعوة إلى المعرفة والعلم؛ حيث يخاطب الكاتب مواطنيه ويقول:

«أيها المواطنون! إلى متى هذه الغفلة؟ لماذا أنتم كُسالى؟ ألستم من بني آدم؟ تحركوا كالآخرين! ولماذا أنتم واقفون مكتوفي الأيدي ولا تستفيدون من ثمرات العلم والمعرفة؟ ولماذا لا تبدأون في هذه الأعمال؟ استيقظوا! استيقظوا! ابحثوا عن العلم والمعرفة والحرفة! حان الوقت، بل فات!»

وفي قصص عبدالله قادري توجد عناصر واقعية، وهو يعبر عن فكرة القصة من خلال تصرفات البطل وأقواله ومعنوياته، أما جولبان فيعلن عن نواياه بوضوح، وتغلب على قصصه العناصر الرومانسية، ويُعدّ الكاتبان من أوائل الأدباء الذين دعوا الشعب إلى سلوك طريق المعرفة.

ونلاحظ تطوّرا ملموسا في إبداع هذين الأديبين في العشرينيات من القرن الماضي؛ ففي ذلك الوقت تفاقمت

---

(٢) جولبان، المجلدات الكاملة، ج٢، طشقند، دار غفور غلام للنشر، ١٩٩٣م، ص ٢٧٢.

المصاعب والشـدائد في الحياة والمجتمـع، فالاختلاف الواضح بين مبادئ البلاشفة الذين استولوا على السلطة بالقوة والبطش منـذ فترة قريبة وبين تصرفاتهم الفعليـة أثّر في وعي المثقفين الأوزبك، وكان ثمّة شعور أكيد لدى شعوب بلاد تركستان بأن ثورة أكتوبر سـتعود عليهم بالحرية، وانعكس هذا في قصص قصيرة كثيرة للأدباء الأوزبك؛ فقد وصف هذه الحال الكاتب إيلبيك في قصته «الفلاح تورغون»، حيـث إن بطل القصة كان يعيش حياة صعبة، وباع قطعة الأرض التي كان يملكها بسـبب مرض زوجته، وقـد صرف ماله عليها وعلى مراسـم جنازتها بعد وفاتها، وفي هذه الأيام حدثت في روسـيا ثورة فبراير، وكانت بلاد تركستان تابعة لروسـيا، ثم حدثت ثورة أكتوبر، وبدأت الحملات الدعائية تبشّـر بإعادة حقوق المظلومين إليهم، وجـرت اجتماعات كثيرة لوصف الوضع الجديد وبيان حسناته، ويصف الأديب أحد هذه الاجتماعات، مبينا شـعور الشـعب وأفكاره ومعنوياته وتطلعاته بصورة واقعية:

«تحدّث الشـاب الفصيح الكلام نحو سـاعة، ونزل عن المنبر بعد ما قال ما أراد أن يقوله... وبدأ الجمهور يتساءل ويسأله في موضوعات مختلفة، فقال أحدهم: «يا سيد، لا توجد لدينا أرض، نريد قطعة أرض»، وسـأل آخر: «ألـن يضايقنا إيفان -الحارس الروسـي للجبال؟ أو سـتطرد هذا الكافر بيدك؟» وسأله بعض الجبناء بخوف: «هل سيغادر الروس نهائيا؟»».

يقول المثل الشعبي: «لا تسرق فتخاف العقاب!» ها هم الحراس الروس الذين كانوا يشـتمون أهل القرية، ويسـبونهم، ويعاملونهم

معاملة الكلاب، نراهم يتركون أماكن حراساتهم، أما الروس الآخرون الذين استولوا على أحسن الأراضي، قائلين إن هذه الأرض أصبحت ملك «القيصرية الروسية»، فكانوا مترددين بين البقاء أو المغادرة وترك الأراضي المسروقة... وعلى كل حال فقد استعدوا للهروب، وأعدوا أسلحتهم تحسّبا من أن يحدث حادث ما!

كان أبناء الشعب المسكين يخافون من الروس، حتى أنهم ليرتجفون من قبعة الروسي إذا رأوها، كانت تخيفهم وتوقفهم بعض الوقت»[٣].

تعد هذه القصة من القصص الواقعية في العشرينيات، وكان الاتجاه في الأدب الأوزبكي يميل إلى وصف القضايا الحيوية المهمة، وفي هذا الاتجاه كتب جولبان قصصه: «الفتاة الخبازة»، و«في الليالي المنيرة»، و«زنبقة في غضون الثلج»، وكتب فترَت قصة «القيامة»، وكذلك كتب عبدالله قادري قصصا قصيرة كثيرة، ووصفوا القضايا الاجتماعية المختلفة في حياة الشعب الأوزبكي، وقد أصبح هذا الوصف الواقعي لحياة الشعب، الذي أبدعته أقلام هؤلاء الأدباء، أساسا لتطور النثر الأوزبكي فيما بعد.

وفي قصة جولبان «بين الخرابات» نشاهد وصفا واقعيا لحياة الشعب الأوزبكي، بما فيها من مشاهد مرعبة لقمع الجيش الأحمر للشعب الأوزبكي عقب أحداث قوقان (خوقاند)، وقد كتبت هذه القصة كمذكرات في السفر، لكنها كشفت وجها حقيقيا لنظام البلاشفة (النظام الشيوعي).



(٣) إيلبيك، المختارات، دار «الشرق» للنشر، طشقند، ١٩٩٩، ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

عندمـــا نتحدث عن فــن القصـــة فـــي الأدب الأوزبكي في العشـــرينيات لا بد أن نذكر إبداع القاص محمود ســـوباي، ذلك الأديـــب الذي يتحـــدث عنه النقـــاد الأوزبك قليـــلا، ولكنه كان صاحب إبداع مثمر؛ فله قصة بعنوان «تورســـونباي» تكشف وجه الخدامين للإمبراطورية الحمراء وتبرز بعض الجوانب الســـلبية لكثير من الناس.

بطل القصة شـــاب متواضع بسيط (يشبه إلى حد بعيد بطل عبدالله قهار باســـم بَبِّر)، يعيش في إحـــدى القرى في بخارى، ليـــس لديه أي خبر عما يجري من عصيـــان وغليان وثورات في العالم، وينزل جنود الجيش الأحمر الذي كان يلاحق أمير بخارى في دار تورسونباي ليرتاحوا وليريحوا خيولهم، ويأخذ الجنود كل ما جمع من برسيم ليطعموا خيولهم، ويكتب قائد الجيش الأحمر علـــى ورقة يختمها ويعطيه إياها قبل أن يغادر قائلا: «اذهب إلى المكان الفلاني في بخارى، وأعطها لفلان، وهناك سيدفعون لك ثمن البرسيم»!

ويركب تورســـونباي حماره الأزرق ويذهب باحثا عن العنوان، ولمـــا اهتدى إلى المكان المقصود ترجل وربط حماره إلى شـــجرة قريبـــة، وتوجه إلى البوابة، وكان عندهـــا جنود يرافقون جماعة من الســـجناء، وأخذه الجنود من دون أن يســـألوه عن أي شيء، وسجنوه في القلعة، ومكث الشاب المسكين تسعة أشهر محبوسا في السجن، وكان يلاقي صنوفا من العذاب والمعاناة، وخلال هذه الفترة الطويلة لم يســـأله أحد «من أنـــت؟ وما ذنبك؟ ولماذا أنت في الســـجن؟»، ولم يجرؤ هو أيضا على أن يدافع عن شرفه وأن

يقــول: «لماذا أنا هنا؟ ما ذنبي أنــا؟» وأخيرا تزور لجنة التفتيش الســجن، وهنا يعرض تورسونباي الرســالة المخبأة في معطفه، ويستعطفهم ويقول: «أيها الســادة، أنا أتنازل عن ثمن البرسيم، وأتنازل عن كل حقوقي، أخرجوني من هذا المبنى وأعيدوني إلى بيتي!» ودُهش أعضاء اللجنة لما رأوا تلك الرسالة.

وصُحِّح الخطأ ونجا تورســونباي من رحى موت محقق، وعاد إلى قريته، وهناك وجد مشــهدا مفجعــا؛ إذ اعتقد أهل القرية أنه قد مات، ووزّعوا ما كان يملكه بين وارثيه، وتشــرّدت عائلته وأولاده.

هــذه القصة تكتســب أهميتها من كشــفها الوجه الحقيقي للنظام الذي وعد الشعب بالحرية والسعادة والرفاهية، وطبعا لم تكن القصة خالية من عناصر الضعف في أســلوب التعبير، كما كان الســرد فيها عاديا وبسيطا، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت لها أهميــة حقيقية؛ لأنها أتت إلى النثر الأوزبكي بروح الواقعية والمضمون الحيوي المهم.

يتميــز فــن القصــة - والأدب الأوزبكي بشــكل عــام - في العشــرينيات بواقعيته وبقربه من الحيــاة، وخصوصا أن معظم القصص التي كتبت حتى العامين ١٩٢٦ و١٩٢٧م كانت خالية من علــل وتأثيرات أيديولوجية تأثــرت بها - لاحقا - مؤلفات كتبت بعد هذه الفترة، وابتعــدت عن الحياة الحقيقية وزينت الواقعية بزينــات مزيفة، وكان لها تأثير ســلبي وضرر واســع في الأدب الأوزبكي؛ ولذلك فإن الأدب الأوزبكي في فترة العشــرينيات كان له دور مهم في تاريخ المجتمع الأوزبكي.

وفي سنوات الثلاثينيات ساهم الأدباء الأوزبك مثل: عبدالله قهار، وغفور غلام، وآيدين، وشاكر سليمان، بإبداعاتهم في تطور الفن القصصي في الأدب الأوزبكي، واشتهر عبدالله قهار في هذه الفترة بالذات، واعترف بأنه «لأول مرة يصف طبيعة الإنسان»، وذلك في قصته «إنسان بلا رأس»، وقد تعلم من مهارات الأدباء البارزين في الأدب العالمي بشكل عام، والأدب الروسي بشكل خاص، أمثال: أنطون تشيخوف، وغوغول، وتولستوي، وآ. هينري، وج. لندن، وطاغور، وغيرهم، ونشر في منتصف الثلاثينيات قصصا كثيرة، بينها قصص في مستوى عهده، ومنها قصص لها أهمية وقيمة أدبية كبيرة، وقدّر النقاد كثيرا من قصصه، مثل: «إنسان بلا رأس»، و«مستان»، و«فتح عين الأعمى»، و«المرأة التي لم تأكل زبيبا»، و«المتنزه»، و«ميرزا»، و«الرمان»، و«اللص»، و«الفنان»، و«معلم الآداب» وغيرها، وكتبت الناقدة الروسية المشهورة سميرنوفا تقول: «إن عبدالله قهار كاتب يستحق أن يكون في صف واحد مع كتّاب القصة العالميين»[٤].

وقد شهدت الثلاثينيات أزمات وتناقضات، إذ بدأت الحياة الجديدة مع افتتاح المزارع التعاونية والمصانع والمعامل من جهة، ومن جهة أخرى كشف النظام الدكتاتوري عن وجهه الوحشي الحقيقي، واتّهم آلافا من الناس بـ «القومية»، وأعلن أنهم «أعداء الشعب»، وأخذهم بأفانين من التعذيب والقمع والقتل، ولم ينج المثقفون الأوزبك، وبينهم أدباء وفنانون، من هذا القمع؛ حيث قُتل من دون ذنب كثير من الأدباء العظماء الذين كانوا فخر الثقافة

---

(٤) عبدالله قهار. المؤلفات في ٥ مجلدات، دار غفور غلام للنشر، ج١، ١٩٨٧م، ص ١١.

الأوزبكية والشـــعب الأوزبكي، مثل: عبدالله قـــادري، وجولبان، وفتـــرت، وإيلبيك، وباطو، وعثمان ناصر وغيرهم من الشـــعراء والكتـــاب والعلمـــاء، وعاد هذا الحدث بضـــرر معنوي كبير على تطوّر الأدب والثقافة الأوزبكية، وأجبر النظام الجديد الأدب على التعبير عن شعارات الحزب الشيوعي، وفي هذه الظروف أصبح مـــن الصعب أن يبدع الأدباء، وأن يكتـــب الكتاب في موضوعات تهمّهم وتفيد الناس، ولم يستطيعوا أن يعبّروا عن مشاهد الحياة الإنسانية والتناقضات في الواقع، وخصوصا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث ساد الاتجاه إلى تقديم الحياة بألوان إيجابية فقط، وانحـــرف أدباء كبار مثل عبداللـــه قهار وآيبيك وغفور غلام عن متابعة الحياة الحقيقية.

في أواخر الثلاثينيـــات كتب عبدالله قهار عن الواقع الماضي قبـــل العهد الشـــيوعي، أي في موضوعات تاريخيـــة، وفي هذه الفترة كتـــب قصصـــه القصيرة «المـــرأة المريضـــة»، و«اللص»، و«الرمـــان»، و«الحديقة»، وتعدّ هذه القصـــص القصيرة حجما العميقة مضمونا، وكذلك مجموعته القصصية بعنوان «حكايات الماضي» من أحســـن وأروع القصص فـــي الأدب الأوزبكي؛ حيث عبّر الكاتب فيها عن معاناة الفقراء الذين عانوا الفقر والعذاب، وصبروا على حياة الامتهان والظلم في العهد القيصري. فبطل قصة «المرأة المريضة» واسمه «ساتب آلدي» لا يستطيع أن يعالج زوجته بطرق مختلفة، مثل شـــرب الماء «المقـــروء عليه آيات من القرآن الكريم» أو تعليق الحجاب وغير ذلك، ولا بد من مراجعة الطبيب والمستشـــفى، أما عند ذكر المستشـــفى فيتذكر «ســـاتب

آلدي» العربة، والعملة الورقية ذات الخمسة والعشرين سوما، وعليها صورة القيصر الأبيض، وهو لا يملك نقودا، ولا يملك القدرة على اقتراضها من أحد ما، وأكثر ما يستطيعه هو أن يأخذ عشرين قرشا دينا من البقال فقط، وتموت المرأة المريضة بسبب الفقر والحاجة.

ويعبّر الكاتب عن علل الماضي وأوجاعه ومآسيه بمهارة فائقة، حيث كتب في قصته «اللص» عن فلاح فقير سُرق ثوره، ولم يساعده الموظفون في الحكومة القيصرية مثل «إيلّيك باشي»، و«أمين» وغيرهما، بل إنهم يأخذون ماله! واضطر بطل قصة «الرمّان» واسمه «ترابجان» إلى أن يسرق لأنه لا يستطيع أن يجد رمانا لزوجته الحامل! أما في قصة «الحديقة» فالمسنّ حمراقول (الخزّاف الفقير) والمسن الروسي ستايغولوف (الفخّار الأسطى) دخلا حديقة المدينة بلا إذن، ولذلك أمسك بهما رجال الشرطة، وضربوهما، وحبسوهما، وفي نهاية القصة، عندما يأخذ الحراس الرجلين المسنين للسجن، تظهر زوجة الفخار وترمي بنفسها على رجلي الضابط وترجوه، أما الفخار الأسطى فيقول: «لا تبكي! أنا أنتقل من سجن إلى سجن آخر، فلماذا تبكين؟».

وهكذا كانت الحياة بالنسبة إلى الناس العاديين والعمال الفقراء أسوأ من السجن!

ويمكن أن يُعدّ هذا التعبير مفتاحا لفهم فكرة ومضمون قصص عبدالله قهار المكرّسة لموضوع الماضي، وهناك بعض الآراء التي تقول إن عبدالله قهار وصف ماضي الشعب الأوزبكي بلون أسود فقط، وإنه بأحداث قصصه ينقلنا «من سجن إلى

ســجن آخر» فقــط! ولكن عندما نقرأ قصــص عبدالله قهار - ومنها قصص «المرأة المريضة»، و«الرمان»، و«اللص»، وغيرها من القصص المكرســة لهــذا الموضوع - نلاحظ أنــه كتب عن عهد اســتعمار القيصرية الروســية، وعن عهــد «القيصر الأبيض»، فاضحا الممارســات القمعية في ذلك العهد، صحيح أننا لا نجد في هذه القصص تعبيرا يرفض حكم القيصرية الروســية، ولكن الكاتب يترك استنتاج هذا الأمر للقارئ.

لقد كان الكاتب يكتب تحت عناوين قصصه عبارة «قصة من الماضي»، ولولا هذه العبارة لقبلنا هذه القصص على أنها تتحدث عن حياة الشــعب الأوزبكي في عهد السلطة السوفييتية، ويمكن القول إنه وصف ظلم الســلطة الســوفييتية الشيوعية من خلال تبيين وجه حكم القيصرية الروسية!

واستفاد أدباء كثيرون من مهارة عبدالله قهار في فن القصة؛ حيث سار على خطاه سيد أحمد، ومير محسن، وعادل يعقوبوف، وبريمقول قــادروف، وأولماس عمر بيكــوف، وأوجقون نظروف، وأوكتــام عثمانوف، وشــكور خالمرزاييف، وأوتكير هاشــموف، وســعد الله ســيايوف، ونعمة أمينوف، وخير الدين سلطانوف، وطاغي مــراد، وإركين أعظمــوف، ودداخان نوري، وخورشــيد دوســت محمد، وزاهــد أعلم، وغيرهم من الكتــاب، وقد تابعوا تقاليد عبدالله قهار بمهارة عالية.

إن لغفور غلام وعبدالله قهار دورا مهما في تطور فن القصة الأوزبكية القصيرة، ففي إبداع عبدالله قهار نجد مبادئ التعبير عن الواقعية ومميزات خاصة بقصص الكاتب الروسي تشيخوف،

مثـــل: اختصار التعبير، وبســـاطته، وطبيعيته! أما قصص غفور غلام فنجد فيها خصائــص وتقاليد الفولكلور والأدب الأوزبكي الكلاســيكي، وكذلك يســـتخدم عناصر التعبير التي استخدمها عبداللــه قادري في قصصه الســـاخرة، ونجد عـــادات وتقاليد شـــعبية تذكر نـــوادر «نصر الدين أفندي» (جحـــا الأوزبكي) في إبداع الأديب المرح والفرح بطبيعته، ونذكر على سبيل المثال بعض قصصه التي كتبها في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن الماضي مثل: «الشاب»، و«صيد في ألاتيه»، و«جورا بوزه»، و«الحيلة الشرعية»، وغيرها.

تجري أحداث قصة غفور غلام «أيها الولد اللص» (١٩٤١م) في الماضي، وتبنى على حوار اللص الفاشل والمرأة المسنّة الفقيرة، ونلاحظ فيها روح الســـخرية، والعادات الأوزبكية الشـــعبية، إذ تغفر العجوز الفقيرة والرحيمـــة ذنب اللص وتقول: «إن الزمان صعب، أيها الولد اللـــص، إن الزمان صعب»، والفكرة في قصة غفور غلام هذه يلخصها هـــذا القول، كما في مؤلفاته الأخرى بشكل عام، وبهذه العبارة ينقد الأديب النظام القيصري الروسي والنظام السوفييتي أيضا، فهو كما يقول المثل الشعبي الأوزبكي: «إنـــه الحقيقة إذا فهم، وهو مزاح إن لـــم يفهم»! وهو يمتاز عن أســـلوب عبدالله قهار بهذا الأسلوب الســـاخر، ونجد أن كتّاب القصة الأوزبك مثل: سيد أحمد، ومير محسن، ونعمت أمينوف، وسعد الله سيايوف، وسيد أنور، وأنور مقيموف، وأدهم حمدم، وغيرهم، قد اقتفوا أثر غفور غلام وتابعوا أسلوبه بنجاح كبير.

❖ ❖ ❖

بدأت مرحلة التحديث في فن القصة في الأدب الأوزبكي في الستينيات من القرن العشرين، وتحت تأثير الدفء الذي بدأ يظهر في حياة المجتمع أخذ الكتّاب يكتبون قصصا عاطفية تعبر عن العلاقات الإنسانية الصافية، والأحاسيس المعقدة في قلوب الناس، والأخلاق الفاضلة، وكتب سيد أحمد عشرات من القصص العاطفية، منها: «مصابيح الإقبال»، و«دوتار» (آلة موسيقية أوزبكية)، و«الأمواج»، و«مياه الربيع» التي نشرت في مجموعتيه القصصيتين: «الليالي المنيرة»، و«الكنز»، وكذلك فإن قصته «عصيان الكنائن» التي كتبها أخيرا عادت عليه بشهرة كبيرة.

كما أسهم أدباء كثيرون مثل: بريمقول قادروف، وأولماس عمر بيكوف، وأوجقون نظروف، وأوتكير هاشموف، وشكور خالمرزاييف في تطوير الاتجاه الواقعي، والتعبير عن تناقضات الحياة بصورة أقرب إلى الحقيقة، ووصف عادل يعقوبوف في قصصه القصيرة «وداعا»، و«الخاتم الذهبي»، و«عصفور السعادة» لحظات صعبة، وهموما وأياما عصيبة تمرّ في حياة الإنسان إلى جانب الأيام السعيدة، بخلاف قصص الفترة السابقة التي كانوا يكتبون فيها عن الحياة الهادئة، وأيام الفرح، والحب الهنيء ونهايته السعيدة.

وتعمّق بريمقول قادروف في هذا المجال، ودخل تفاصيل الحياة، وكتب في موضوع كان ممنوعا في ذلك الوقت، فهو في قصته «الحياة لذيذة» يكشف خيانة الطبيب الذي كتب تشخيصا غير صحيح للمرضى المسمّمين بـ «البوطيفوص»، (من المبيدات

الكيماوية القوية المستخدمة في زراعة القطن، وإنتاج القطن يعتبر أهم الموارد الزراعية في اقتصاد البلاد، ويعمل أكثر من نصف سكان البلاد في مجال الزراعة)، وفي هذه القصة يجرؤ قادروف على كشف علّة اجتماعية تحاول أن تخفي الحقيقة، وبذلك فتح بابا اجتماعيا جديدا في فن القصة الأوزبكية.

ونلاحظ الروح العاطفية في العلاقات الإنسانية والاجتماعية في إبداع أولماس عمر بيكوف، وأوتكير هاشموف، وأوجقون نظروف، ويمكن القول إن «النثر العاطفي» في الأدب الأوزبكي بدأ من إبداع هؤلاء الكتاب.

وفي السبعينيات نشر عدد من الكتاب مجموعاتهم القصصية الاجتماعية، مثل: حميد غلام «نجوم الأرض»، وأوكتام عثمانوف «الليلة غير الهادئة»، و«الساحل السرّي»، وشكور خالمرزاييف «عندما ينتقل الحجر الثقيل»، وزاهد أعلم «العيون الصغيرة».

وبشكل عام فإن القصة في الستينيات إلى الثمانينيات كانت تناقش قضايا سلوكية ومعنوية، وذلك من خلال وصف مسائل الواجب الإنساني، والحب والعلاقات بين الناس والمجتمع، وبين الإنسان والطبيعة، كما يلاحظ فيها وصف الأوضاع المتنوعة والشخصيات المختلفة في الحياة، وقد كتب شكور خالمرزاييف قصصه: «مساء يوم أمس»، و«مر الربيع»، و«الحياة الأبدية»، و«لسان الطير»، و«الضاحك والمضحك»، و«التمثال»، و«الاشتياق»، و«السيارة الخضراء» بأسلوب عبدالله قهار، أي بأسلوب الواقعية، إذ وصف فيها تناقضات الحياة المتنوعة، ووجهات النظر المختلفة، والمتناقضات المعقدة بين الناس.

في قصة «العيون الصغيرة» لزاهد أعلم يجري الحديث حول القضايا السلوكية والمعنوية الخاصة بعلاقات الإنسان مع الطبيعة، ويتحدث عن آرائه والقضايا التي تقلقه على لسان شخصيات أبطاله، ويستنكر الكاتب سلوك بعض الناس الذين يتعاملون مع الطبيعة والحيوانات بشكل وحشي، فيقدم أحد أبطال هذه القصة - عبد الوهاب - الذي يصطاد بعض الغزلان الممنوع صيدها، وعندما يعلم بالعقاب الذي قد يتعرض له يرجو أصدقاءه ألا يكشفوا ما قام به، وهذا الوصف يستنتج من منطق شخصية هذا البطل، فقد كان الوصف طبيعيا ومقنعا.

أخذ أوكتام عثمانوف مكانته الخاصة في النثر الأوزبكي بتقديمه وصفا سيكولوجيا واعيا وعميقا في قصتيه: «الليلة غير الهادئة»، و«يومك الذي تعتمد فيه على غيرك»، وكذلك نلاحظ وصفا جيدا لهموم الناس في قصة «الخاتم الذي لم يلبس» لعاقلجان حُسنوف، وفي «السماء قريبة والأرض ناعمة» لعبدالقهار إبراهيموف، وفي «شخص بلا حظ»، و«السحر» لآمان مختار، حيث كانوا يكتبون عن هموم الناس ومشكلات حياتهم اليومية.

في هذه الفترة اهتم القراء كثيرا بإبداعات الكتّاب مثل: مراد محمد دوست في قصته «في الحقول والصحراء»، وإيركين أعظموف في قصته «الحياة»، وخير الدين سلطانوف في قصصه «سعادة الشاب»، و«يا جمشيد»، و«حكاية الليلة»؛ حيث ناقشوا فيها القضايا التربوية والمعنوية الخاصة

بأبطالهم، ووصفوا تفاصيل حياتهم وطبيعتهم بصورة حيوية، ويخلد أبطال هذه القصص في ذاكرة القراء بوصفهم أناسا نشيطين وحيويين.



ويتميز الأدب الأوزبكي بالقصص التاريخية، ومن المعروف أن عبدالله قادري، وآيبيك، وعادل يعقوبوف، وبريمقول قادروف، ومير محسن كتبوا روايات تاريخية رائعة في الأدب الأوزبكي، واشتهر الأدباء أويغون، وعزّت سلطان، ومقصود شيخ زاده، وحميد عالمجان بمسرحياتهم التاريخية، وكُتبت عشرات الدواوين التاريخية في الأدب الأوزبكي، ووجد هذا الموضوع مواصلة مثمرة ومتابعة ناجحة من الكتّاب الذين جاءوا بعد هؤلاء الأدباء العظام، وتمرسوا في فن القصة مقتفين آثارهم.

ويمكن القول إن الكاتب مير كريم عاصم هو واضع حجر الأساس في «فن القصة التاريخية»، فقد قدّم خلال سنوات طويلة إبداعا مثمرا، وكتب عشرات القصص التاريخية القصيرة والطويلة مثل: «شيراق»، و«توماريس»، و«تيمور مليك»، و«إسكندر وسبيتامين»، و«نور في الظلام» وغيرها، وأدرج كثير منها إلى كتب تعليمية مدرسية.

ويتابع أسعد مختار، وأنور إيشانوف، وخير الدين سلطانوف، وإسفنديار، وعلي شير عبادينوف، وزاهد أعلم، وميرزا بولات طاشبولاتوف، وطاهر مليك، وغيرهم، هذا الأسلوب والتقليد في قصصهم، وتبرز من بينها قصة «الصلاة الأولى في بخارى» لزاهد أعلم، وفيها يصف الكاتب الشخصيات التاريخية أمثال

الفاتح الإسـلامي قتيبة بن مسـلم، والحاكم الصغـدي تركان، وتغشـاده وردانخداه، وحياني نبتي، وغيرهم من الشـخصيات التاريخية، وكذلك يصف العادات والتقاليد الخاصة بالشـعوب المحلية، ويصوّر لوحات حياتهم اليومية ولوحات المعارك بوصف حيوي، كما قدّم الكاتب أبطال قصته بوصفهم أشـخاصا بواسل وفدائيين ومحبّين لوطنهم، وتجدر الإشـارة إلـى أن المؤلف قد تمكن من الالتزام بمتطلبات فن القصة التاريخية، ورسم المشاهد بشكل طبيعي.



ومن بين القصص التي كُتبت خلال سنوات الاستقلال نذكر قصة قصيرة لخورشـيد دوست محمد بعنوان: «الصلاة التي قُضيت»، حيث يصف الكاتب شخصية المليونير رجل الأعمال «ميـر كامل باي» من أنديجان، ولحظاتـه الأخيرة من حياته، عندما اعتقلته الشـرطة السـوفييتية الشيوعية، حيث يأخذه جنديان لتنفيذ حكم الإعدام: أحدهما روسي، والآخر أوزبكي، ويسـتأذنهما مير كامل باي في آخر لحظـات حياته ليصلي، ويسـمح له ذلك الشـاب الروسـي الذي لم ينس الإنسـانية والشـفقة، أما الشـاب الأوزبكي - الذي استكبر عندما حمل السلاح - فلم ينتظر حتى يكمل مير كامل باي صلاته، فيقتله بطلقة رصاص في ظهره! ويستفيد الكاتب من أساليب الواقعية الحقيقية، ولكنه لم يشـرح فكرة القصة بـل ترك للقارئ أن يهتدي إليها بنفسه.



وفـــي فــن القصة الأوزبكيـــة القصيرة تجربـــة موفقة في موضـــوع عالمي، أي وصف حياة شـــعوب البلـــدان الخارجية، وتعد مجموعة «قصص عربية» لمير محسن خطوة ناجحة في هذا المجال، حيث يصـــف الكاتب في قصصه «المجني عليه»، و«مونى»، و«مدرب الأفعـــى»، و«المهدي»، و«الجواهر المفقودة» مـــن هذه المجموعـــة حياة النـــاس في بعض الـــدول العربية، ويصـــف النهاية المؤلمة لحيـــاة الفنانين فـــي قصتيه: «مدرب الأفعى» و«الجواهر المفقودة».

ونالت القصة القصيرة لسيد أحمد بعنوان «المجنون ذو العيون الســـوداء»، والقصة القصيرة لعادل يعقوبـــوف بعنوان «أين أنت أيها المغرب» إعجـــاب القراء، وهذان الأديبان الكبيران لا يزالان يبدعان بمهارة.

وفي قصة «المجنون ذو العيون الســـوداء» (نشرت في كتاب بنفس العنوان)[٥] تعيش بطلتها الأم سعادة طوال حياتها على أمـــل أن تقوم بأداء فريضـــة الحج، وتجمع مـــالا من معاش التقاعـــد، وتبـــدأ القصة بآية كريمة وحديث شـــريف، وتعبّر عـــن علاقات حادة بين الأم وابنها، وبـــين الابن وأبيه، ويكمن جوهرها في كارثة العصر وسياســـة النظـــام الظالم، والابن الـــذي كان ســـببا في مفارقة أمه الحياة بالألم والحســـرة لم يكن ســـوى نتاج للسياسة المدهشـــة التي وجّهت إلى البطش بالقيم الدينيـــة والأخلاقية وبالتقاليـــد الاجتماعية، وكذلك كان هو نفســـه ضحية لهذه السياسة! أمّا بطلة القصة - الأم

(٥) سيد أحمد، «المجنون ذو العيون السوداء»، مجموعة قصصية، دار «أوزبكستان» للنشر، العام ٢٠٠١م.

ســعادة - فقد وافتها منيتها بعد أن عــاد الحجاج من رحلة الحج، وأخبرها إمام مســجد الحـي بأن شخصا سيحج نيابة عنها ... وكان موضوع هــذه القصة - وهو موضوع العلاقات الدينيــة والعلاقات بــين القوميات - ممنوعا أيام الســلطة السوفييتية.

وفي قصة قصيرة أخرى لســيد أحمد بعنوان «آفتاب آيم» (المرأة الشمس) يتجلى الحب والوفاء والقيام بالواجب وحس الفداء، بأحاســيس حزينة كلحظات الرثــاء، مغرورة ككلمات المديح، وهي تقدم حكاية الصداقة بين أسيرين، وهما القاصّ والأسير الياباني «ديون» في المعتقلات السوفييتية بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك بعد مرور خمســين عاما على الحدث، وتؤثر في أحاسيس القارئ القصة التي يقصها الأسير الياباني، وهي عن مصير الســاموراي «ســودزي» الــذي لم يتمكن من أداء واجب «الشــهيد» (كاميكادزي)، حيث يحكى في القصة أن امرأة جميلة (أم ســودزي) لا مثيــل لها، دخلت إلى صفّ الراقصات اليابانيات، وذلك بمقتضى خدمة الوطن، وعندما سمعت عن خيانة ابنها ترفض الحياة السعيدة، وتلبس لباس الراهبات وتذهب إلى الكنيســة، أما «سودزي» في يوم الفرح عندمــا ظهر له إمكان العودة إلى الوطن، فيهلك نفســه وهو لا يتحمل العار، وأما الســاموراي المسن المريض «ديون» فقد وافته منيته يوم عاد إلى وطنه وهو مطمئن بأنه ســيدفن في وطنه.



لقـــد مر فن القصـــة الأوزبكية – والقصيـــرة منها على وجه الخصوص – في طريق صعب ومثمر في الوقت نفســـه، وتصوّر القصة عالم أبطالها الصعب والمعقد، وحياة المجتمع وتناقضاته، وأفـــراح الناس وآلامهم وأحاسيســـهم المختلفـــة، بوصف حيوي طبيعي، يلاحظ فيه الإبداع الجيد والتطوير المستمر.

الزار

عبدالله قادري

قصة وهمية

عندما كان والدي يبدأ قصته هذه كان الخوف يتملكني، وكنت أقول في نفسي وأنا ألتجئ إلى الله تعالى: «اللهم لا تجعلني ألاقي جنّا مثلها!».

جاءت خالتي أمس تزورنا، وجلس أبي وأمي وخالتي بعد العشاء يشربون الشاي ويتحدثون عن أشياء مختلفة، ودار الحديث وتوقف عند موضوع الجن والملائكة والغول في هذه المرة أيضا، أما أبي فلم يمتنع عن حديثه حول «الزار»، أي حفلة الجن التي شاهدها بنفسه، وكانت قصة أبي هذه مخيفة جدا بالنسبة إلي، ولذلك رقدت في فراشي، وتغطيت باللحاف، ونظر أبي إليّ وابتسم، وبدأ حديثه عن «حفلة الجن»:

«كان هذا بعد عدة أيام من زواجي، كنت مشغولا بأمور المعيشة، ولم أستطع أن أرتب كرم العنب في مزرعة لي خارج المدينة، وذات يوم وجدت فرصة وذهبت إلى المزرعة فوجدت أن غصون العنب قد طالت، ونما السُعد[٦] بمقدار كفين، ولذلك وجب تعديل إسنادات الكرم، وعندما ذهبت إلى المزرعة في اليوم الرابع كان المطر قد نزل ليلا وطالت غصون العنب، كأنها كانت تنتظر المطر، وانحنت على السُعد وكأنها غضبت مني لأني لم

---

(٦) نوع من الحشائش.

أقم بتقليمها في الوقت المناسب، وقررت أن أكمل عمل العنب مهما كان الأمر. إذ فكرت أنني سأظلم نفسي وأظلم العنب إن لم أكمل قطع غصونه الزائدة.

تبين أنني أخذت كمية من حبال القنّب أقل من المطلوب، وأنني قد أنتهي في الظهر، والذهاب إلى السوق لإحضار حبل القنّب يستغرق وقتا وقد يحل المساء حتى أعود، وعدا ذلك بقي جزء قليل من كرم العنب. ما العمل؟ لم أفكر طويلا وبدأت أقشر أغصان أشجار التوت، والصفصاف، والحور الأبيض.

وما أن مضى وقت بمقدار ما يصنع فيه إبريق من الشاي حتى جمعت كل ما قطعت من قشر الأشجار، وأخذته، ثم دخلت المزرعة.

وأخيرا، تخلصت من قطع غصون العنب عندما حل الظلام تماما، ثم غسلت يديّ ووجهي، وكان الظلام قد غطّى كل مكان. ولم يبقَ أحد من الجيران الذين جاءوا للعمل في مزارعهم، إذ ذهبوا كلهم إلى المدينة، ولم يكن هناك صوت في الشارع إلاّ أصوات الجراد والضفادع.

وخرجت من المزرعة قبيل صلاة العشاء، وبدأت أمشي وأنا أتعثر في أشياء مختلفة في طريقي.

وخاطب أبي خالتي، قائلا:

« إنك تعرفين أن مزرعتنا محاطة بساحات كثيفة من الأشجار...

مشيت عبر هذه الساحات لكي أخرج إلى الشارع الكبير بسرعة، فقد كانت مظلمة ومخيفة جدا، وكانت بيني وبين الشارع الكبير قطعة أرض «الفخاري حَمْدَمْ».»

وعندما وصلت قصة أبي إلى هذا المكان تغطيت بلحافي بشدة.

وواصل أبي حديثه:

«مشيت خطوة وأخرى في اتجاه حقل «الفخاري حَمْدَمْ» ... ورأيت من بعيد، ضوءا وتلفتّ حولي واستغربت... كان الضوء في الساحة ساطعا جدا... وليس هذا فقط، بل كانت تُسمع من هناك أصوات أناس يتحدثون، ورقص، وأحيانا، تُسمع ألحان «دوتار»(٧) و«طنبور» وآلات موسيقية أخرى، وكانت هذه الأصوات ضعيفة لكنها تؤثر في القلب.

تجمدت، ووقفت في مكاني بعض الوقت، وفي الحقيقة، كان غريبا أن يحدث مثل هذا الشيء في مكان خرب يمكن أن يكون عشّا للبوم، ومع ذلك فقد مررت بهذه الساحة صباحا، آنذاك لم يكن هناك ما يشير إلى وجود حفلة. وفكّرت: من الممكن أن يكون الشباب قد بذلوا جهودا في النهار.

وأردت أن أعبر الساحة التي تقام فيها الحفلة وقفزت فوق السور... يا إلهي كانت الساحة منيرة كما لو أنها في النهار، والمصابيح معلّقة على غصون الأشجار، والبسط مفروشة على الأرض. وأقيمت «سماورات»(٨) في جهة، وفي الجهة الأخرى قدور كبيرة يطبخ فيها طعام، واجتمع في وسط الساحة نحو مائة شخص يقيمون الحفلة بينهم شباب وكبار، يعزفون على آلات موسيقية ويضربون الدفوف.

---

(٧) الدوتار والطنبور: من الآلات الموسيقية الشرقية.

(٨) «سماورات»: أباريق كبيرة للشاي، كلمة مقتبسة من اللغة الروسية.

وحينئذ استقبلني شخص مسرعا، وخاطب الحضور وقال:
- ها قد جاء إلينا «أخونا أُوسر».
والتفت الحضور إليّ وقالوا:
- تفضل، تفضل، هل أكملت عملك في المزرعة، أيها الأخ أوسر؟

ولم أذكر الآن ما أجبتهم به آنذاك، لأنني كنت حائرا.

وأصروا على جلوسي في صدر المجلس بغير إرادة مني، وكما تعودنا، كان عليّ أن أقرأ الفاتحة عند الجلوس في المجلس[9]، ولكن شغلتني الإجابات عن أسئلتهم والمحادثات معهم، ونسيت قراءة الفاتحة... وبعد قليل جمعت أفكاري، ونظرت إلى الحضور في المجلس، وكأنني رأيت أكثرهم في مكان ما... ثم نظرت إليهم بدقة، يبدو أنهم أناس لا أعرفهم ولم أرهم من قبل. ولكن أدهشني شيء آخر، فهم يتعاملون معي وينادونني باسمي، ويسألونني عن الأشياء التي عملتها اليوم، وهم يعرفون أنني قشرت أغصان الأشجار لأعدّ منها حبلا.

وتكلم واحد من بينهم لا أعرفه، ربما كان رئيس المجلس، وقال:
- أحضروا السفرة لـ «الأخ أوسر»!
عارضه آخر من بين الذين يجلسون في صدر المجلس:
- سنقيم حفلة، ثم نفرش السفرة للجميع، ثم توجّه إليّ وقال: ربما أنك أيضا اشتقت إلى الحفلة، سنقيم الحفلة قبل كل شيء، ما رأيك؟

---

(٩) الفاتحة: سورة الفاتحة وتشتمل على دعاء قصير.

ولم يبق لي شـــيء إلا أن أوافــق على فكرته لكوني ضيفا هنا ولو كنت جائعا.

وبدأ العازفون يعدون آلاتهم الموسيقية، والتي أعرف بعضا منها مثــل: «الدوتار»، و«الطنبور»، و«الجنــك»، و«الناي»، و«الدف»[١٠] ولا أعــرف بعضها الآخر ولم أرها من قبــل. وتم ضبط الآلات الموسيقية، وبدأ العازفون يعزفون لحنا هادئا مؤثرا.

وكان اللحن ساحرا... وبدأت أنحني، وأكاد أغوص في الأرض، كنت مضغوطا وأســيرا لهذا اللحن ولا أعرف أين أضع نفســي. ويطــور العازفون اللحن قليــلا قليلا... ولم أســتطع أن أصبر وبــدأت أبكي، ولا أعرف لماذا أبكي... بكيت طويلا، وانتهى اللحن أخيرا. انتهى ولكنــه أنهاني أنا أيضا، كنت مجروحا وكأني كنت تحت حجر الرحى، وليســت لي قوة على الحركة. وفتحت عينيّ، وكان الحاضرون ينظرون إليّ ويبتسمون من حالتي، ونظرت إلى الأرض وأنا خجِل.

يســتعد العازفون لعزف لحــن آخر، ولكني كنــت خائفا من الاستماع إلى لحن يشبه الأول، وبدأ قلبي يخفق، ربما أموت إذا سمعت لحنا يشبه الأول...

وبدأ اللحن الثاني... وجرى ماء الحياة في جســمي مع بداية اللحن، وشــعرت بلذة ما في نفسي، وكان اللحن ذا ذوق عجيب، ولا أعرف كيف أسميه أو أصفه.

وحينئــذ حضرت فتاة شــابة - ذات خمس عشــرة أو ســت عشرة سنة - إلى وسط المجلس، شعرها مجعد مفلفل، وجفناها

---

(١٠) آلات موسيقية أوزبكية شعبية.

ممتلئان وعيناهـــا جميلتان، وكانت تلبس صدرية مزركشـــة من المخمل، وعندما مشت عدة خطوات في الوسط، دقت الأجراس في رجليها، وبدأت الفتاة ترقص على اللحن.

ويستمر اللحن، وكأن صوت الآلة الموسيقية النفيسة يجعل الفتـــاة ترقص بحركات غير إرادية، وينـــزل الفرح على الدنيا حينـــا، وتتزل الروح عليها حينا آخر، وكأنها تحيي الموتى وتهز الأراضي وتهدم الجبال، وتحرك غصون الأشجار.

وأخيرا، مـــلأت الفرحة قلبي، ثم خرجـــت منه، وأقامتني قـــوة ما من مكانـــي، ولم أقم بإرادتي، وبـــدأت أرقص بجانب الفتاة».

ولم تســـتطع أمّي وخالتـــي أن تصبرا، وضحكتـــا، أما أنا فتصورت كيف يرقص أبي.

وواصل أبي حديثه وقال:

«إذن، بدأت أرقـــص، وأنا أحاول أن أرقص مع الفتاة مهما كان، أمـــا الفتاة فرقصت قليلا معي ثم خرجت من الوســـط، وذهبت إلى الطرف، ولكني لم أتوقف عن رقصي، ولم أفكر في التوقف، والناس يصفقون لي، ويصيحون بي كأنهم يســـخرون مني، وأنا لا ألتفت إليهم وأستمر في رقصي...

فجأة تعثّرت بشـــيء ما ووقعت علـــى الأرض، ووقفت على رجليّ، وحاولت أن أستمر في الرقص، ووقعت من جديد.

وبعـــد وقت قليل قمت ونظرت حولي... لا يوجد أحد هنا، ولا آلة موسيقية واحدة، ولا شيء آخر... لا أحد، ولا شيء!..

وأنا واقف في حفرة في وسط الساحة المظلمة...»

وتحدثت عن هذا الحدث الذي شاهده أبي إلى المعلم، فابتسم وقال:

- إنه وهم، إنه تخيل!

- هل في الحقيقة هذا وهم؟ إذن، كيف يحدث مع الإنســـان؟ سألته، وأجابني:

- في الجمعة المقبلة ســأخبر الأولاد عن الوهم، إن حضرت هذا المجلس، ستعرف كيف يحدث الوهم!

سأذهب إلى المدرســة في الجمعة المقبلة لأستمع إلى حديث معلمنا كيف يحدث الوهم. إن وجدتم فرصة، فتعالوا أنتم أيضا يوم الجمعة المقبل.

زنبقة في غضون الثلج

جولبان عبدالحميد سليمان أوغلي

-١-

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... خمسة، خمسة... ستّة! سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة...

وانطلقت كرة صغيرة مزركشة بخيوط حمراء، واصطدمت بشجرة المشمش التي تنمو منحنية على جدار الحظيرة، وسقطت في حوض الماء...

فجأة صاحت البنات جميعهن وقلن:

- يا إلهي، سقطت في الحوض.

ووقفت شرافت خان في مكانها وكانت تلاحق الكرة...

غطست الكرة في الماء ثم طفت في وسط الحوض، وبدأت تسبح مغرورة أمام عيون البنات الحاسدة الفرحة.

وحدّقت البنات قليلا في الكرة التي تتهادى سابحة في الماء، ونظر بعضهن إلى بعض، وضحكن قليلا.

أسرعت تورغونبوش ابنة الجزار تاجي الصغيرة إلى الحظيرة، وتسلّقت الجدار إلى سقفها، وأخذت غصنا من أغصان التوت الجافّة من بين الأخشاب الملقاة في الزاوية، ورجعت إلى حافّة الحوض، وأخذت تسحب به الكرة، وتجمّعت البنات حولها، وبدأن ينتظرن اقتراب الكرة التي كانت تسبح في الماء، وكانت تغيب تارة ثم تطفو تارة أخرى وفق حركة

الغصن، واقتربت الكرة منهن فأمسكن بها وهن يتصايحن ضاحكات.

وأخذت شرافت خان الكرة المبتلّة وضربتها بالأرض قائلة: تبًّا لك، أمسكنا بك يا لعينة! وغضبت توتي خان ابنة الجلاّب عبدالله من تصرّفها، ورفعت الكرة عن الأرض وقالت:

– ما ذنبها وهي ليست حيّة... أسقطتها بنفسك وتلعنينها أيضا؟

ثم غسلت الكرة بالماء وبدأت تجففها بكل قوتها وهي تعضّ على شفتيها.

وخاطبت شرافت خان البنات قائلة:

– لا تصلح هذه الكرة للعب وإن حاولنا تجفيفها، فمن عندها كرة أخرى؟

– ...

– يا إلهي، أليست عند إحداكنّ كرة؟ يا سلطانة، كانت عندك كرة؟

– نعم كانت، ولكن جولنار أضاعتها أوّل أمس...

– إذن، انتهت اللعبة؟

– لا، سنلعب لعبة أخرى.

– وهل هناك لعبة أخرى أحسن من لعبة الكرة؟

– يا شرافت خان، اذهبي إلى بيتك، وأحضري كرتك الروسية!

– كرتي الروسية انشقّت...

– يا للأسف، متى؟

- منذ زمن بعيد...

وفي هذا الوقت دخلت طفلة من باب الحديقة الصغير، وأخذت تتلفّت حولها وهي تقترب منهن.

قالت تورغونبوش فجأة:

- ها هي أختي قادمة، سأرسلها إلى البيت كي تحضر الكرة.

فقالت البنات:

- نعم، سنرسل فضيلة لتحضر الكرة!

واقتربت الطفلة الصغيرة فضيلة من أختها وحضنتها من رقبتها.

- هيا يا أختي نبتعد قليلا، وسأخبرك خبرا ممتعا.

وقالت كل البنات:

- يا لهذا الخبر الممتع، قوليه لنا جميعا!

- لا، سأقوله لأختي فقط.

- قوليه لأختك، وسوف تخبرنا...

ابتعدت الأختان عن بقية البنات وذهبتا إلى جانب الحوض.

ووقفت تيلا ابنة الحارس إيشمات، وهي بنت كثيرة الكلام، وتعرف الإشاعات الممتعة، وقالت:

- وما هو الخبر الممتع، أعرفه وإن لم تقوليه.

- أخبرينا إذا كنت تعرفين!

- الخبر الممتع هو أن الخاطبات جئن ليخطبن تورغونبوش!

وضحكت البنات جميعا، وعادت تورغونبوش إليهن وقالت:

- يا تيلاّ، لقد جاءت الخاطبات حقّا، ولكن ليس لي، بل لشرافت خان!

ونظرت البنات بعضهن إلى بعض، واحمرّت وجنتا شـــرافت خان، وتسمّرت في مكانها لا تعرف ماذا تقول.

-٢-

كان الأخ ســـمندر - أبو شـــرافت خان - تاجرا مشـــهورا منذ زمن، وكانت أعمــاله التجــارية تسـير بنجــاح حــتى في أحلك الظروف، في الشـدائد، والغلاء، والكساد، ولكنه أفلس في ربيــع الســـنة قـبل الـماضـيــة، ويومها باع كل ما يملك ليســـدّد ديــونه، ثم أصبـــح متـديّـنا جدّا، وصار يخدم في دار «إيشان».

كان يذهب في الصباح الباكر إلى منزل إيشان ويخدم فيه حتـــى المغرب، بغض النظر عما إذا كانت هناك حلقات للذكر أم لا، وعندما يرجع إلى بيته يتناول عشاءه مما هو موجود من طعام أو شـــراب، ثم يجلس على سجادة الصلاة، ويظلّ يسبّح ويبكي بكاء شديدا حتى منتصف الليل أو الصباح.

ذات يوم كانت إحدى حلقات الذكر في دار إيشـــان، وجاء إليها حُفّاظ مـــن المدن المجاورة، وغصّت الدار بالناس، وعند صلاة العشـــاء اختتم «الذكـــر» الذي بدأ بعـــد صلاة الفجر مباشرة.

وفـــي اليـــوم التالي جلس حضرة «الإيشـــان» في محراب غرفة الذكر، وجلس بجانبه ستة من الحفّاظ: ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله، وأمامه نحو عشرة أشخاص من المريدين... وكان إيشان يجلس ساكتا مطأطئ الرأس.

أما الفناء فكانت تسمع فيه ضجة وأصوات... هذا واحد يسحب خروفا، وآخر يحمل أرغفة الخبز الطازج، وثالث يحمل ملابس للهدية...

وخرج الأخ سمندر من غرفة الذكر، ورأى كل من قدّم نذرا «للإيشان»، ومكث فترة ينظر إليهم.

- قال المؤذن الذي ينقل دعاء حضرة «الإيشان» من غرفة الذكر إلى الموجودين في الفناء: أحسنت، بارك الله فيك، انظروا إلى جمل سلطان عارف! ثم نظر إلى الأخ سمندر، وابتسم، وقال:

- يا أخي سمندر، هل عندك شيء من النذر؟

- إن شاء الله، سيكون أيها المؤذن! أجاب الأخ سمندر وهو يخرج من البوابة.

اضطربت أحاسيس الأخ سمندر، وظلّت تتصارع في فكره وهو في طريقه إلى منزله، أراد أن يهدي لأستاذه «الإيشان» شيئا جيدا وكبيرا، لا يستطيع أن يقدمه شخص آخر من بين مريدي «الإيشان»، ولكن لا يوجد في البيت شيء له قيمة، فقد باع كل أشيائه الثمينة ليسدد ديونه... فكر طويلا، ولكنه لم يصل إلى أيّ قرار... «آه... لو عادت أيامي الماضية، لأهديته حصانا...» وشعر بقلبه ينقبض من الحسرة، وتذكر ثراءه وأمواله: حصانه، وأفراسه، وعربته من مصنع موسكو... وأملاكه، وأراضيه، وغيرها...

ولم ير في إهداء شيء متواضع أمرا مناسبا لشخصه، وفكر في إهداء نذر أكبر وأفضل من نذور الآخرين.

وتذكّر الرجل الغني «يولداش»:

– لقد قدم «يولداش» خمسين صاعا من الأرز، وجوادا جيدا، وكسوة كاملة...

بهذه الخواطـــر المتضاربة وصل إلى منزلـــه وأراد أن يدخل، فأوقفته زوجته قائلة:

– هناك نساء في الداخل، ادخل الغرفة الخارجية، وسأحضر لك طعاما مما جهّزته للضيوف.

وبدأ الأخ ســـمندر يـــأكل من صحن صغير، ولمـــا أكل نصف الطعام جاءت زوجته وجلست أمامه، وقالت:

– جيـــد أنك حضرت الآن، فقد جاءت الخاطبات لابنتك، ولا أدري ماذا أقول لهن!

– من هن؟ ولمن يخطبنها؟

– فيهـــن «عزيزة آتـــون» وزوجة الأخ رســـتم... جئن ليخطبن ابنتك «لإيشـــانكم»!... إن هذا الشيخ «الإيشان» رجل مسن، وله زوجتان، ثم...

حملق الأخ سمندر بعينيه حالما سمع هذا الكلام، وقال:

– هـــل هذا صحيح؟ هل هن من طرف «الإيشـــان»؟ ولماذا لم يخبرني «الإيشان» بنفسه؟

– أقول إن «الإيشـــان» رجل مسن، أما ابنتنا فهي في السابعة عشرة من عمرها، هل أرد عليهن هذا الرد؟

وهنا جاء صوت إحدى النساء:

– يا «قومري بوش»، الضيوف يردن الانصراف!

قامـــت «قومري بوش» من مكانها، ووقفت ونظرت إلى زوجها كأنها تريد أن تقول شيئا...

أما الأخ سمندر فلم يطل تفكيره، وتصور ابنته الصغيرة تارة، و«الإيشــان» تارة أخرى، وتذكر موضوع النذر... وأخيرا سيكون «الإيشان» له نسيبا! ثم قال:

- قولــي لهن: إن كانت لدينا ابنــة وحيدة، فلنقدمها لحضرة «الإيشان»! قولي هكذا!

اقشــعرّ جلد «قومري بوش» من هذا القول المفاجئ، وابيضّ لونها واستندت إلى الجدار...

- ٣ -

كانت شــرافت خان البنت الوحيدة للأخ ســمندر، وكانت وحيــدة أيضا فــي الجمال والمهارة، وإن اجتمع شــابان أو ثلاثة في مكان واحد، كانــوا يتحدثون عن هذه الفتاة، وكان يهمّهم أن يعرفوا صاحب الحظ السعيد - يحفظه الله - الذي ستكون هذه الفتاة من نصيبه؟ ومن الذي سوف تنوّر بيته هذه الفتاة؟

وشــاع الحديث عن أن شــرافت خان ستتزوج من «الإيشان»، وتحدث كل الناس في الحي بضعة أيام في هذا الموضوع...

وتســابقت عدة عربات في الشــارع، وعلت أصوات النســاء اللواتي يغنين أغاني العرس بشكل عشوائي.

وكذلــك جاءت العربــات التي تحمل أغــراض العروس مثل الصندوق، والبساط، والفراش، والأغراض الأخرى، وكان في كل عربة امرأة أو امرأتان.

واقتربــت القافلة التي تنتشــر ضجّتها فــي كل أنحاء الحي من بيت «الإيشــان»، وتجمّع عدد من الرجــال يلعبون حول النار

المشتعلة في وسط الشارع، وقريبا منهم كانت النسوة والعرائس والفتيات يغنّين لشرافت خان:

الخشب للجسر، والعرش لك، يار - يار!
فلتكن لك السعادة مثل بنت الرسول، يار- يار!
الحبل الطويل للأرجوحة، يار - يار!
يناسب الفستان للعروسة، يار - يار!

وصاحت النسوة اللواتي اجتمعن قريبا من شعلة النار فجأة: «وصلت العروس، وصلت العروس!» وخرج بعض الشباب بحزمة من خشب القطن ووضعوها في وسط الشعلة، فشبّت النار وتعالت ألسنة اللهب وأضاءت المكان.

وبدأ الأولاد يجرون إلى قافلة العروس.

وأخيرا وصلت العربات بين الأصوات والضجة، ويأتي صوت مرتفع من بين الجمهور:

- ها هي العروس! ها هي عربة العروس!

وقف سائق العربة التي تركب فيها العروس عند باب المنزل بعد أن مر بها من خلال الشعلة، وكأنه يعرض مهارته!

وتعالت الأصوات من هنا وهناك.

- يا عريس! أيها العريس! أين شيخنا؟ أفسحوا الطريق!

وحينئذ ظهر شيخ مسنّ عجوز ذو لحية بيضاء، يلبس جُبّة العريس الذهبية، وفي وسطه حزام عريض، يحيط به عدة شيوخ مسنين وهم من مريديه، واقترب من العربة، فتعالت أصوات من بين الجمهور:

- ارفعها، أيها العريس! ارفعها!

- كن قويّا يا شيخ!

- يا شيخ، احملها!

مد الشيخ يديه المرتعشتين ورفع الفتاة من العربة، ومشى بها خطوتين أو ثلاثا، ثم أنزلها إلى الأرض، وجاءت الأصوات من بين الجمهور من جديد:

- أحسنت يا شيخ!

- بارك الله فيك، يا شيخ!

- شيخنا مازال قويا!

انتهت الحفلة بعد منتصف الليل، وانتهت معها الضجة، وساد الهدوء في الشارع الذي كان مسرحا لعروض وألعاب متنوعة قبل قليل، وانطفأت النار، وغرق الشارع في ظلام دامس...

-٤-

خرج شابان من بيت «الإيشان» وأحدهما يقول:

- يا له من شارع! إن الظلام فيه شديد!

- كلامك صحيح، لا توجد ولا نجمة واحدة في السماء.

- لنذهب، إن هذه الليلة تشبه قلب الجد «إيشان»!

- يؤسفني مصير الفتاة، ومن كان نصيبها!

- نعم،تبّا لوالدها! إنه ليس إنسانا.

- أحزنني منظر الشيخ المسن بلحيته البيضاء وهو يحمل فتاة في عمر حفيداته، أردت تشبيه تلك الصورة، ولكنّني لم أجد لها تشبيها!

وفي هذا الوقت صفّر الحارس محمد صفيرا يشــبه صوت البكاء، وقال:

- نعم، كلامكما صحيح، أيها الشابان! إن هذه الدنيا مقلوبة... لقد سقط الثلج على الزنبقة!...

ولم يرد الشابان جوابا، وغابا في الظلام وضاع أثرهما.

أيها الولد اللص

غفور غلام

قصة واقعية

مرت عدة سـنوات على وفاة والدنا، وفي ربيع هذه السـنة - السـنة السابعة عشرة[١١] - فقدنا والدتنا أيضا، فأصبحنا أيتام الأبويـن، وجاءت إلينـا جدتنا - أم والدتنـا المرحومة - لتعيش معنا وترعانا نحن الأيتام الأربعة، وكنا ندعوها «الجدة السمراء» محبة ومداعبة لها.

كنـا ننام كلنا مع جدتنا في سـقيفة مكشـوفة مـن الأمام، ونحـن نتدثر بأغطية بالية على بسـاط وحيـد قديم من صنع «أوراتيبة».

وفي إحدى ليالي نهاية شـهر سبتمبر وبداية الخريف، والجو بارد نوعا ما، كنا ننام نحن الأيتام كلنا ملتصقين جنبا إلى جنب، يستدفئ بعضنا ببعض، وفي آخر السقيفة إلى جانبنا كانت ترقد «جدتي السمراء» مثل أم الطيور، وقد تجاوز عمرها ثمانين عاما، وكانت تمضغ «الناص»[١٢].

فـي هذه الليلة، بعد منتصف الليل، اسـتيقظت على أصوات ضجـة، وكانت جدتي تتحدث بصوت عال جدا مع شـخص ما، وكانت دارنا كبيرة وشكلها مربع، وقد ورثناها عن الوالد والجد، وهي محاطة من جهاتها الأربع ببيوت كبيرة عالية، وفي الجانب

---

(١١) عام ١٩١٧م.

(١٢) «الناص»: نوع من التبغ الشـعبي، يضعه الرجل تحت لسـانه فترة ثم يرميه، مثل «القات» اليمني.

الشـــمالي يسكن أبناء عمنا، لكنهم في الصيف كانوا ينتقلون إلى الاستراحة، لهذا السبب كان ذلك الجانب فارغا.

تصـــوروا، جاء لص إلى بيتنا! يا للعجـــب! يبدو أن هناك في الدنيا أشـــخاصا يعتقدون أننا مثل الناس؟! ســـأتحدث عن هذا لأصدقائـــي بكل غرور وافتخار: «جـــاء إلى بيتنا لص»، ويمكنني الحديث رافعا رأسي، لكن هل سيصدقونني؟

صعـــد ذلك اللص إلى ســـطح بيت أبناء عمنا، وجاء ماشـــيا بهـــدوء إلى جهتنـــا، لكنه عطس فيما صار أمـــام جدتنا، وكانت جدتي ترقد وهي تحضن مخدة، وتفكر، وتحت لسانها «الناص». بصقت جدتي «الناص» ونظرت إلى السطح وقالت:

- أيهـــا الولـــد اللص، يا أيها الولد اللـــص، ربما صعدت إلى السطح لتكسب شيئا ما من لقمة العيش، وشغلك حساس، أليس من الأفضل أن تصعد بعد التخلص من الزكام؟

- يـــا جدتي، أليس من الأفضل أن تهدئي وتنامي ليلة واحدة، إنك تعرقلين عملنا لنكسب شيئا ما - قال اللص.

وربما استيقظت عندما وصل الحديث إلى هذا الحد تقريبا، وسأكتب ما تبقى من الحديث كما سمعته:

- أيها الولد اللص، وهل أستطيع أن أنام وقد جاءت علي هذه المصيبة؟! أنا لم أنم منذ ســـتة أشهر ولا ساعة في الليل، أما في النهار فأمشي ورأسي مثل الدوامة، وأجلس في مكان ما يأخذني نعاس، وأنعس مثل نوم الطيور، وفي الليالي أغرق في الخيال.

- بمـــاذا تفكرين، يا جدتي؟ - ســـأل اللص، ثم خلع معطفه ولفه، ووضعه على حافة السطح، وحضنه كمخدة واستلقى.

- بماذا أفكر؟ أفكر في مستقبل أيتامي الأربعة هؤلاء، أيها الولد اللص. وأنت ترى الزمن، والحياة صعبة، وهي أقسى من الحجر، ومن الأصعب أن تكسب قطعة خبز بمقدار عين الجمل، ولا يستطيع خالهم الوحيد - وهو سائق العربة - أن يعطيهم شيئا وعليه أن يعيل عائلته، ولم يبق شيء في البيت نراه أو نمسكه، نبيع شيئا بعد شيء، ونأكله، ولا يكفي جبل من المال إن صرفت وأنت لا تكسب شيئا. ياإلهي... متى سيكبر هؤلاء الصغار، ومتى سيأكلون من كسب أيديهم؟ ويفكر الإنسان في هذا أراد أم لم يرد. علاوة على ذلك، فإن واحدا من هؤلاء الأيتام ولد ذكر، وهو الأكبر، أما البقية فهن بنات. وقد تجاوز الولد الرابعة عشرة من عمره، ولم يبلغ الخامسة عشرة. ومتى ستجد أولئك البنات مكانهن في الحياة؟ إن لم يوجد أحد يصرف عليهن ويعيلهن، فمن يريدهن؟ إن الزمن صعب، أيها الولد اللص، الزمن صعب!

- أنت تقولين الحقيقة، يا جدتي - قال اللص - وفي رقبتي ولدان وزوجة وأمي العجوز، وكما يقولون إن الدجاجة الواحدة تحتاج الحبوب والماء، وعلي أن أعيلهم. أدخل في النار، وأمشي على حد سكين لأكسب أربعة أرغفة. أما أنا ففي ذراعي قوة، لو أردت أن أعمل، وسليم عقليا. وما رأيك، هل تعجبني مهنتي هذه؟ وأنا ابن صانع أحذية ولأبي كثير من الأولاد. وأما الزمن فانقلب. قالوا إن الحرب ستنتهي عندما يصبح كيرينسكي[١٣]

---

(١٣) كيرينسكي: رئيس الحكومة الروسية المؤقتة التي جاءت إلى السلطة بعد الثورة على النظام القيصري في فبراير ١٩١٧م.

قيصرا، ويبدو أن الحرب لن تنتهي قريبا، والزمن للأقوياء حتى الآن.

– ألا تستطيع أن تقوم بشغل آخر، أيها الولد؟ – سألت الجدة.

– أي شغل أعمله؟ فإن كل حرفة في أزمة. وهل أقوم بصنع نعل، وهو شغل أبي. أولا، لصنع الأحذية لا يوجد جلد، ولا غراء، ولا مسمار، ولا صبغة. وتكلفة الخامات أغلى من سعر الحذاء الجاهز بثلاثة أضعاف. ولو أشتغل حمالا لا يوجد هناك الأغنياء الذين يشترون الحبوب والخضار بأكياس كبيرة. منذ عدة أيام استبدل «الأب بوامات» – وهو من أكبر صانعي الأحذية في حينا – بودين[١٤] من الذرة بجميع أدوات صنع الأحذية، وكان تصرفه صحيحا، لأنه لم يبق هناك فلاح أوزبكي، أو كازاخي، أو قيرغيزي ليلبس أحذيته التي يصنعها، بقي أيتامهم فقط، وهم متشردون في مدينتنا، فهناك بضعة عشر يتيما يمدون أيديهم ويسألون الصدقة قائلين: «يا عمي، أعطني خبزا»، وهم في كل ركن حيث نظرت، وفي كل بيت حيث دخلت، وهم يسألون خبزا، نعم، خبزا، وأنا لا أستطيع أن أكسبه لأولادي. ولست أنا وحدي فقط، بل إن جميع صانعي الأحذية، وجميع الحرفيين، ومنهم السنانون، والنساجون، وحتى مدرسو المدارس والعلماء، كلهم في الحالة نفسها، وهم محتاجون لملعقة من حساء الخضار، وهم متشردون.

– نعم، لعن الله هذه الحرب! ربما هذا آخر الدنيا، أيها الولد

---

(١٤) «بود»: وحدة وزن زنتها ١٦,٣٨ كيلوغرام.

اللص. نعم، وربمــا كان هناك رزق لهؤلاء الأيتام. صحيح، والآن أســألك أنت، إنك دخلت هذا الطريق الحرام من اليأس، فلماذا لا تذهــب إلى بيوت الناس الأغنياء؟ فهناك في هذا الحي كريم قارئ، بائع الأقمشة، وعادل خوجه باي، المقاول، ومحمد يعقوب باي، صاحب المال. وأموالهم كثيرة، وبيوتهم مليئة، وحتى ولدهم فــي المهد يأكل الطعــام في طبق مكتوب علــى أطرافه بيت من الشعر. ولماذا لا تذهب إليهم، ولا تثقب سطوحهم؟

– أنــت طيبة، يــا جدتي، أنت طيبة – قــال اللص – هل من الممكن أن تذهب إلى بيوت الأغنياء، وأســوارهم عالية، وأبوابهم مــن الحديد، وفي بيت كل واحــد منهم كلبان أو ثلاثة كلاب، كل واحــد منها مثل حمــار، وتنبح تلك الكلاب أســبوعا إذا طارت فراشة فوق صحن دارهم، ويحرس باب عادل خوجه باي حارس روســي معه بندقيــة. وأنا أريد أن أعيش، وإذا لم أقتل، أرســل منفيا إلى سيبيريا.

– كلامــك هذا صحيــح أيهــا الولــد اللــص، لكن كن حذرا، ولا تضر بسمعتك أمام الناس، قالت جدتنا.

– كلامك حق، يا جدتي، ذات يوم سرقت أربع دجاجات وديكا من حظيرة عارف فاسد.

– هل تقول إنك ســرقت الدجاج والديك؟ إن هذه المخلوقات قد تصيح، ألم تفضحك؟

– لكل مشــكلة حل، آخذ معي قارورة مــن الماء عندما أذهب لأســرق الدجاج، ثــم أقترب منها وأملأ فمــي بالماء وأرش على الدجاجات، ولا يوجد أي مخلــوق في العالم أحمق من الدجاج،

وهي تفكر أن السماء تمطر، فتخفي رأسها تحت جناحها، وتسكت، وأنا آخذها من عنقها واحدة واحدة وأضعها في الكيس.

- هكذا تقول، يا إلهي، إذن، هناك لكل مهنة سر حساس.

- لكنـــي، يا جدتي، كنت على وشـــك الفشـــل والانكشـــاف، وأعطيت ديكا لرحمان خوجه، وهو إيليك باشـــي - عمدة حينا، وقد أغلق ملف القضية، ورحمان خوجه يتعامل معي تعاملا جيدا، إنه رجل طيب، في الســـنة الماضية أعطيته رشوة ثلاثة وثمانين روبلا، جمعتها بعد بيع بعض الأشـــياء، وقلت له: «يا عمدة، إنها كل ما جمعت»، وأعفاني من الذهاب إلى «رابوتشيي»[15].

- نعم، ولا يلحقه شـــر، حســـناً، الآن يا أيهـــا الولد اللص، ســـيحل الفجر بعد قليل، وهذه النجمـــة المنيرة قد وصلت إلى القمة، انزل إلى الأســـفل من الشـــجرة بجانب المطبخ، ولم يبق لدينا خشـــب مقطوع، وهناك في المطبخ بعض قرمة خشب من شـــجرة اللوز التي كانت فـــي دارنا في زمان ما، وخذ فأســـا، واقطـــع لنا قليلا من هـــذه القرمة، وأنا سأشـــعل النار وأغلي الشـــاي، واحتفظـــت برغيفين صغيرين أعطانـــا إياهما خالك أمس، وسنشرب الشاي معا.

- لا، يا جدتي، من الممكن أن أقطع لك قرمة خشب، لكن لن أشرب معك الشاي، لأنك سوف تعرفينني إذا نورت الدنيا، .

- يا إلهي، هل ســـتعود من البيت المبارك من دون أي شـــيء، أيها الولد اللص، فخذ شيئا ما. واصبر، ماذا تستطيع أن تأخذ،

(١٥) «رابوتشـــيي»: كلمة روســـية تعني عامل، وكانت الحكومة الاستعمارية الروسية تأخذ رجالا من الجمهوريات الإسلامية المســـتعمرة كعمال للأعمال الشاقة في سيبيريا، وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى.

نعم، في المطبخ يوجد قدر يســع نصف بــود، وقبل فترة طويلة كان النــاس كثيرين في دارنا، وكنا نــأكل من القدر الكبير، وأما الآن بقــي في هذه الدار الكبيرة المزدهــرة هؤلاء الأيتام الأربعة فقط، ومتى سيطبخون في هذا القدر الكبير؟، فخذه، وبعه، وقد يفيدك في يوم ما، أيها الولد اللص.

- لا، يــا جدتي، لا تكوني متشــائمة، وســتمضي هذه الأيام بسرعة، وسوف ننساها، وســتجتمع الأسر الكبيرة، وهذا القدر الكبير سيكون صغيرا، هذا هو رزق الأيتام، فليستفيدوا بأنفسهم، وســوف نخدم في أيام زفافهم، إن شــاء الله، والآن سأودعك يا جدتي، وأنا سأذهب، وقد نورت الدنيا في الجهة الجبلية.

- مع السلامة، أيها الولد اللص، زرنا أحيانا.

- حسناً، يا أمي، حسناً.

أما أنا فقد كنــت أعرف ذلك الرجل اللص، لكنني حتى الآن لم أقل لأحد من هو!

معلم الآداب

عبدالله قهار

دخــل الرفيق باقي جــان بقابيف، «معلــم الآداب» أي «معلم الفنون الجميلة» - هكذا يسمي نفسه - الحظيرة، وغضب، لأنه وجــد قرادة في أذن البقرة! وأغضبتــه البقرة أكثر من القرادة، فقــد أراد بقابيف أن يخلــص البقرة من القــرادة، لكنها هزت رأسها ونخرت.

- يا لها من حيوان! هذه ليست بقرة، إنها حيوان! - قال وهو يغلق باب الحظيرة بقوة - يا لها من حيوان!

وكانت زوجته مُكرَّم تملأ إبريق (السماور) الشاي في الفناء.

- يا لها من حيوان! - قال بقابيف - لا بد من بيع هذه البقرة وشراء خنزير بثمنها!

- تربية الخنازير في المدينة ممنوعة - قالت مكرم وهي تضع الفحم في السماور.

- لمــاذا؟ هل هي ممنوعة؟ من قال ذلك؟ أأنا الذي قال ذلك؟ نعم، هذا صحيح... طبعا، إنها ممنوعة.

- ادخل البيت، جاءت حميدة.

كانت حميدة فتاة ذات ســت عشرة ســنة، ذكية ومرحة، قد فرحت لما رأت زوج أختها.

- لو عرفت أنك في البيت لأحضرت كراستي... يا للأسف.

وظهرت علامات الفرحة على وجه الرفيق باقي جان بقابيف،

وغابت عن خياله قرادة زرقاء في أذن البقرة وخنزير يهدم أطراف القنوات في الفناء.

– سـمعت أنك حولت دراسـتك من المعهد العالـي إلى كلية العمال والعاملات، هل هـذا صحيح؟ – قال – إحم... تصرفت جيدا. أنا قلت لك «حولي دراسـتك إلى كلية العمال والعاملات، أليـس كذلـك؟ إحـم... أف، أصابتنـي حرقة... كليـة العمال والعاملات جيدة، وأنا كنـت فيها ذات مرة، وقد كتبت على باب مكتب الإدارة كلمة «براكتيكوم»، وهذا ليس صحيحا، والكلمات: «براكتيكـوم»، و«مينيموم»، و«ماكسـيموم» كلها كلمات لاتينية أو قريبة إلى اللاتينية، وأنا شخصيا أعتقد هكذا.

صمتنا فترة قصيرة.

– يا أخي باقي جان – تحدثت الفتاة على اسـتحياء – أردت أن أسـألك عن شـيء. قرأنا في الفصل قصة «رغبة في النوم» لتشـيخوف، ونريد أن نحاكم الفتاة التي قتلت طفلا، وسـتقوم رحيمة بدور أم الطفل، وسيقوم شريف جان بدور المدعي، وكذلك سيكون هناك قضاة، أما أنا فأريد أن أبرئ الفتاة، وأتهم مديرها الذي اسـتغل الفتاة الشابة من دون رحمة، هذا كل شيء... وأنا كتبـت رأيي، وأريد أن أعرف رأيك أنـت في هذا الموضوع، لقد أراد تشيخوف أن يقول هكذا، أليس كذلك؟

فكر الرفيق بقاييف قليلا، ثم سألها:

– ومـن يدرس الفنون الجميلة؟ هل هـو حكيموف؟ إنه رجل غبـي، لا يعمل ولا يطور نفسـه، وهو يضحـك عندما أقول إن علامة الاسـتفهام توضع دائما بعد الأداة «هل»، لكن الأمر ليس

في هذا فقط.

دخلت مكرم وهي تحمل السماور، وأسرعت حميدة وقامت وأخذته من يدي أختها، ووضعته على المائدة، وقد أرادت أن تلوم زوج أختها على أنه جالس مكتوف اليدين، وزوجته الحامل تحمل السماور، لكنها استحت وسكتت. أما الرفيق باقي جان بقابييف فيبدو أنه كان عطشان، فقد شرب أربعة أكواب من الشاي، وعرق.

- إن شرب الشاي جيد، وخاصة بعد تناول أكلة «الشيشبرك» - قال وهو يمسح عرقه على وجهه - إحم... لقد طالت لحيتي، لو لم يكن الحلاقون لأصبح الناس قرودا .

- يا أخي باقي جان، لم تكمل كلامك في الموضوع - قالت الفتاة - أليس رأي تشيخوف هكذا مثل ما قلت أنا؟

طلب الرفيق بقابييف كوبا آخر من الشاي.

- تشيخوف؟ ... لا بد من النظر قبل كل شيء في الموضوع عندما نتحدث عن الواقعية البورجوازية، ولا بد من فهم الواقعية الموضوعية مثلما فهمها الواقعيون البورجوازيون، ومثلما صوروها، ولا شك أن إبداعات تشيخوف في حقيقتها من البداية إلى النهاية هي الواقعية البورجوازية الأولى، يعني... يا مكرم، هل وضعت بيضة للدجاجة؟ لا بد من وضع بيضة للدجاجة وإلا فستكون متشردة. يا إلهي، إنه لا يوجد مخلوق أغبى من الدجاجة، تبيض إن وضعت بيضة! ولماذا تبيض إن وضعت بيضة؟ ولماذا يصيح الديك في الفجر؟ إنه سيكولوجيا عجيبة! أتدرسون علم الأحياء؟

وتحدثت حميدة عما درست في علم الأحياء وماذا ستدرس أيضا في هذه السنة الدراسية، وأضافت أنها تريد أن تشير إلى أسباب فسيولوجية في كلمتها التبريرية، وأعادت الحديث إلى تشيخوف.

- قال بقاييف: لدي رأي خاص عن تشيخوف، فليقل الآخرون ما يريدون، في اعتقادي أن وجهة نظره تختلف تماما عن وجهات نظر بوشكين وليرمونتوف، وذلك على الرغم من أنهم كتاب من عهد واحد، ومن طبقة واحدة، وفي بلاد واحدة!

- لم يعش تشيخوف مع بوشكين في عهد واحد، وفي مكتبتنا توجد صورة له مع مكسيم غوركي، وربما توفي تشيخوف في عام ١٩٠٤م.

وقع الرفيق بقاييف في حالة محرجة قليلا.

- أنتم تتحدثون عن أي تشيخوف؟ أعطيني الشاي!.. عن هذا الـ «تشيخوف»؟ صحيح، أنه قد توفي إما في النصف الأول أو في النصف الثاني من عام ١٩٠٤م، أعطيني منديلا آخر، أشم رائحة بصل، أما أنا فأتحدث عن ذلك الـ «تشيخوف»، عن تشيخوف الذي كان ممثلا للواقعية البورجوازية الأولى.

- وقصة «رغبة في النوم» لأي تشيخوف منهما؟ سألت حميدة.

- بلا أدنى شك هي لهذا الـ «تشيخوف»، ونشرت هذه القصة في مجلة «سوفريمينيك» لأول مرة.

بعد ذلك تحدث الرفيق باقي جان بقاييف حديثا طويلا، ولم تفهم حميدة شيئا منه، ولم تعرف عم يتحدث، وأن هناك

كاتبا اسـمه ديتيردينغ كتب إلى ناقد مشهور اسمه شيلينغ وقال: «سـيكبر ابنك ويصبح غلاما، حتى تحتاج لخدمة غلام»، أما ماركس فقد صنف دوبروليوبوف في قائمة واحدة مع ميرينغ، وهناك كاتب مسرحي اسمه ستيندينغ كتب قبيل وفاته إلى ناقد اسـمه ديمبينغ: «إن الله خلق جميع الحيوانات، لكن لا يعجبني الضب»، أما حميدة فدار رأسها، وتثاءبت مرة ثانية بهدوء.

كان الظلام قد حل عندما ودعت أصحاب البيت وخرجت إلى الشارع، ولم تحصل على أي فكرة من زوج أختها عن قصة «رغبة في النوم»، وتساءلت عما أخذت من كلام زوج أختها، لكن لم يكن في رأسها إلا هذه الكلمات: «براكتيكوم»، «مينيموم»، «ماكسيموم»، «ديتيردينغ»، «ستيندينغ»، «شيلينغ»، «ميرينغ»، «ديمبينغ».

المهد

عبدالله قهار

أنجبـــت زوجة غني جان مولودا جميلا بعـــد فترة طويلة من زواجهما.

عندما أصبحت زوجة غني جان حاملا، وعندما كانت تنتظر مولودها، وعندما اقترب ميعاد ولادتها، رأى الزوج أن هذا حدث يحـــدث في القرية كل يـــوم وفي كل مكان. ولكـــن ولادة مولوده بدت له - في ظنه - حدثا لم يحدث أبدا في أي زمان، وفي أي مكان، وبدا له كأن جميع الناس كانوا ينتظرون هذا اليوم، وكأنهم يتحدثون عنه فقط، وكأن كل من يأتي إليه يحمل هدية، أو يقول له: «مولود مبارك» كان يصدق ظنه. وشـــعر غني جان بإحساس غريب عندما ســـمع أول مرة كلمة «أبوة»، ودغدغت هذه الكلمة مكانا ما من قلبه، ولمسته بلمسة دافئة، وارتاح جسمه.

وذهب غني جان إلى الســـوق في مركز المنطقة ليحضر مهدا لابنه، واشـــترى مهدا صغيرا وبدا له أنه أجمل مهد في السوق، وحمله على جواده، ورجع به.

لقـــد تجمـــدت القنوات علـــى جانبي الطريق بســـبب البرد، وتحولت الأشـــجار إلى ما يشـــبه مكنســـة مقطوعة، وكان الجو متجهمـــا، ولذلك أظلمـــت الدنيا قبل المغـــرب، أي باختصار، لا يوجد شـــيء يســـر أحدا، وعلى الرغم من ذلـــك كان غني جان مستمرا في طريقه، وهو يغني على وقع أقدام جواده:

يا حبيبتي، يا عزيزتي،
أنت قلبي، وأنت روحي،
وفي الليالي المظلمة
أنت مصباحي...

وعند مخرج قرية بختة آباد رفع شخص يده، وهو جالس على جانب الطريق، وقال شيئا ما لغني جان، وفي الوقت نفسه كانت تمر بجانبهم سيارة، وبسبب ضجيجها لم يسمع غني جان كلامه. وجفل الجواد من صوت السيارة، وجمح، ثم أسرع راكضا في الطريق، ولم يرغب غني جان في الرجوع، وواصل طريقه. ولما قطع ميلا من المسافة، طرق أذنه صوت طلقة بندقية من مكان قريب، ونعبت عشيرة الغربان، وهي تطير من شجرة على تلّة عالية في اتجاهات مختلفة، وذكره نعيب الغربان بالبرد فاقشعر بدنه، وتذكر ذلك الرجل الذي يجلس على جانب الطريق، وهو يرفع يده. ترى من يكون ذلك الرجل؟ ولماذا يجلس في هذا الجو البارد في الشارع؟ ولماذا رفع يده؟ وماذا قال؟ ربما كان مسافرا خرج في وقت غير مناسب، ربما قال «احملني على جوادك»، إذن لماذا لم يقم من مكانه؟

نظر غني جان فجأة إلى الوراء لكنه استمر قي طريقه، وأراد أن يغني أغنية ما، لكنه لم يستطع أن ينسى ذلك الرجل الذي كان يجلس على جانب الطريق، ولم يتذكر أي أغنية.

لماذا يجلس في الطريق؟ لماذا لم يقم من مكانه إذا كان يريد الركوب معي؟ هل هو مريض؟ إذا كان مريضا فليس من الواجب

أن يتركــه في هذه الحال، ولا بد من الرجوع! ولكن كيف إذا كان الرجل مشوّها معفى من الخدمة العسكرية؟!

وردّ غني جان جواده إلى الوراء، وحثّه على الركض، ووجد مكانا ظن أن ذلك الرجل كان يجلس فيه، ولم يكن أحد هنا، صاح ونادى، فلم يــرد أحد، بحث عنــه طويلا، ولم يجده. وظــن أنه ذهب إلى القرية وهو يعرج. ورجع غني جان في طريق القرية بجواده، وأوقف عدة أشــخاص، وسألهم عنه، ولم يقل أحد «إن ذلك الرجل أنا»، أو «رأيــت ذلك الرجل». وعاد غني جان بتفكيــره إلى الوراء... «ربما ذهب ماشيا ولم أره»، وبحث في نحو ميلين من المسافة، ثم رجع.

وصل غني جان إلى بيته في منتصف الليل، وكان متعبا مرهقا، سألته زوجته، وهي لا تنظر إلى المهد الجميل الذي يحمله:

- يا إلهي، ماذا بك؟

- لا شيء... تعبت! قالها غني جان، ولكنه استحيا من التحدث عما جرى معه.

وغرقــت زوجته في النوم من جديــد، ولم ينم غني جان، ولم يُغلــق عينيه، ها هــو يرى أمامه رجلا أعرج يســتند على عصا وكأنه يقول: «هل هذا تصرف حســن؟» قــام غني جان ليدخّن، فأوقع صينية من الرف، فاستيقظت زوجته.

- نعم، ماذا تفعل ولماذا تشعل المصباح؟

- أين التبغ؟

- ماذا تفعل بالتبغ؟

- سأركب عليه وأذهب إلى السوق!.. ماذا يفعل الرجل بالتبغ؟ إنه يدخّنه! قال غني جان غاضبا.

- لماذا تغضب؟ ليس مــن عادتك أن تدخن في الليل، ولذلك أنا أسأل.

استغربت الزوجة، لأنها لم تر زوجها في مثل هذه الحال، ولم تسمع منه كلمة خشنة أبدا، وقعدت في فراشها.

- هل يؤلمك شيء؟
- لا، أبدا.

دخّن غني جان التبغ، ثم رقد في فراشه.

ومسحت الزوجة على رأس زوجها بلطف، وسألته:

- هل أغضبك شخص ما؟
- لا.

سألته بعد قليل:

- لماذا تأخرت؟
- طرأ لي مشوار في الطريق.
- أي مشوار وماذا حدث؟ قل من فضلك... ولمن تقول إذا لم تقل لي؟

فهم غني جان أن زوجته قد قلقت فبدأ يتحدث:

- كان هناك شــخص جالس على جانــب الطريق، وأنا قادم على الجواد، ورفع يده، ربما قال: «يا أخي، احملني معك».
- ومن كان هذا الشخص؟
- لا أدري، فهــو لم يقم من مكانــه، ولذا ظننت أنه قد يكون مشــوّه حرب، وقد أعفي من الخدمة العسكرية... أنا متأكد أنه مشوّه حرب!
- ولماذا لم تحمله معك؟!

- إن الجواد الملعون سحبني، ولكنني رجعت، ولم أجده، ناديته، وبحثت عنه هنا وهناك، ولكنني لم أنزل عن الجواد لأنظر المكان الذي كان يجلس فيه، ولذلك فإنني قلق قليلا، فقد يكون جريحا، وأغشي عليه، وقد استلقى.

- ومن الممكن أن الأمر غير ذلك... فأولا لا يجلس الشخص الذي يعود من الخدمة العسكرية على الطريق وينتظر من سيمر بهذا الطريق، لأن العربات والسيارات جاهزة عندهم دائما، وهي في خدمتهم متى شاءوا.

بدأت زوجة غني جان تطمئنه، ولكنها كانت قلقة، وبدأت تظن أن ذلك الشخص في الحقيقة مشوّه حرب، وأغشي عليه نتيجة انفتاح جرحه، ولعله الآن يتأوه على الطريق.

- ألم تبحث في المكان الذي كان يجلس فيه؟

- نظرت فيه، ولكنني لم أنزل عن الجواد، وقد حلّ الظلام.

- هل من المعقول أن يكون الرجل هادئا بهذا الشكل، ولماذا لم تنزل عن جوادك، وتبحث جيدا؟ وماذا حدث الآن؟

نهض غني جان من فراشه منتفضا، وقال:

- هل أذهب إليه؟

- أتظن أنه راقد هناك حتى الآن؟

- ربما لا يكون راقدا حتى الآن، وقد يكون أحد ما أخذه، ولكننا لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي.

لبس غني جان ملابسه بسرعة، وذهب إلى سائس الخيل في القرية نصيب علي، وأيقظه، وكان في نوم عميق، وتحدث معه، وبدا على وجهه أنه يشعر بملل:

- إلى أين تذهب في هذا الوقت المتأخر جدا؟
وكذب غني جان لكيلا يطول الحديث:
- عاد ابن عمي من الخدمة العسكرية، سأذهب إليه وسأزوره.
دخل نصيب علي إلى حظيرة الخيل، ورجع يقود جوادا منها.
- يجب على الإنسان أن يكون حذرا عندما يركب الجواد - قال نصيب علي وهو يثبت السرج على ظهر الجواد- فقد كدت أن تصدم سيارة.
- متى؟
- هذا المساء، عند مخرج قرية بختة آباد!
- أأنت الذي رفع يده؟ وماذا كنت تفعل هناك؟
- ذهبت لأحضر شعيرا.
- سلمك الله! كفى. لا أحتاج جوادا!
وقف نصيب علي مستغربا. وعاد غني جان راكضا، ودخل البيت، وهو يصيح:
- إنه نصيب علي... نصيب علي.
وكانت زوجته ترضع الطفل، وقفت وقالت:
- الحمد لله!
نسي الزوج والزوجة بعد قليل كل ما حدث، وأمسك غني جان المهد من طرفه وقال لزوجته:
- هل رأيت هذا المهد؟ هكذا تكون المهود، وعليك أن تنجبي أولادا، وعليّ شراء المهود!
هدأ الزوج والزوجة وناما.
١٩٤٥م.

عصيان الكنائن

سيد أحمد

أصبحت البنت الصغرى لأُستى مَحْكَم واسمها «إنابَت» فتاة ثرثارة. تخاف منها أخواتها وزوجات إخوتها، وهي تقول كلاما يؤثّر في أي أحد، ومنذ أن بدأت الكلام لا تترك أي شيء بلا رد، وكانت تقول لها عمتها الشديدة التي تشبهها، وهي تؤكد:

- إن كانت حماتك امرأة حليمة هادئة الطباع، عندما تتزوجين، ستقتلينها قبل أجلها، وإن كانت الأم الحاجة لا تستطيع أن تتعامل معك، فإن أي امرأة أضعف منها ستموت منك حتما.

ولم تكن إنابت تزعج زوجات إخوتها فقط، بل إنها كانت تزعج كنائن الجيران أيضا.

رفضت أم إنابت خاطبتين أو ثلاثا، ليس بسبب أنها لم تعجب بهن، بل من باب العدالة والرحمة، كانت الخاطبة الأولى امرأة حليمة، ستحولها إنابت إلى «خوخة جافة» خلال يومين، أما الثانية فكانت مثل الملك، وتقول بعد كل جملة: «أفديك بعمري، يا عزيزتي». وإن رفعت إنابت صوتها أمامها فسيغشى عليها.

وهكذا، فإن الأم التي رفضت عدة مرات، قبلت اقتراح الخاطبات اللواتي جئن ليخطبن ابنتها للابن الأصغر لأم «الإخوة السبعة الأبطال» الذين يسكنون بعد خمسة أحياء منها، وقطعت رغيفا أحضرنه[16]. فاشتهرت أم «الإخوة السبعة الأبطال» في

(١٦) قطعت رغيفا أحضرنه: وفق العادات الأوزبكية تأتي الخاطبات بثمانية أو عشرة أرغفة، وتضع صاحبة البيت بعضا منها على المائدة، فإن قبلت الخطبة تقطع رغيفا منها وإلا فتتركها.

المدينة كلها، وكانت متشـــددة مع كل كنائنها، وحصلت على لقب «العجوز الجنرال».

بعد يوم الخطبة قالت عمة إنابت لها، وهي تؤكد:

- انتهى أمرك! وحماتك «ستأكلك حية».

- تأكلني أنا؟! إنها ســتحاول بلا فائدة. ســأجعلها تمرّ عبر خرم الإبرة.

وخلاصة الكلام، قالت هذه كلمة، وردّت الأخرى، وانتهى الأمر بإقامـــة حفلة الزفاف. وأصبحت إنابت بعد شـــيء من التجميل عروســـا مثل الهلال، وقد ازدهرت مثل الـــوردة في اليوم التالي بعد حفلة الزواج.

وانتهت حفلة الزواج التي انتشـــرت عنها شـــائعات كثيرة في المدينة. وخلال ثلاثة أيام قامت السلائف الست بتنظيف الأواني، وغسلن السفرات والمناشف، وعلقنها على الحبل.

جلســـت الأم في السقيفة، كانت تسبّح، ولا تتدخل في أعمال الكنائن، بل تنظر إليهن، وتأتي الكنة الوسطى إليها كثيرا، لتعدل المخدة وتجدد الشاي.

أما إنابت فاســـتحيت أن تقف بلا عمل أمامهن، وســـاعدتهن قليلا، وجهّزت الكنة الوسطى الشاي، وذهبت إلى العجوز، وكانت ســـلفتها الصغيرة جالســـة بجانب إنابت، ودفعتها بهدوء وقالت لها:

- هـــل ترين الجاسوســـة؟ احذري منها، إنهـــا عميلة العجوز الشريرة.

استغربت إنابت وضحكت ضحكة مكتومة.

- لا تضحكي، يا سلفتي العزيزة، سوف تعرفينها عندما سيحدث معك شيء ما.

ولم يمرّ أسبوع حتى انكشفت أسرار هذا البيت لإنابت.

وأصبحت إنابت زوجة للابن السابع، وكان للعجوز سبعة أبناء، ربتهم كلهم، وعلّمتهم، ولا يفعل الأبناء أي شيء إلا بإذن الأم، ويأتون برواتبهم ومكاسبهم ويقدمونها لها، ويأكل الأبناء السبعة والكنائن السبع من قدر واحد، ولا تستطيع إحداهن أن تطبخ بنفسها، وقد أخذت العجوز مفتاح المستودع، وربطته إلى زر بدلتها، وكانت تدخل إلى المطبخ كل يوم بلوازم الطبخ، ولا تخرج منه إلا بعد أن تغلي القدر.

وتوكل العجوز كنتها الوسطى بهذه الأمور عندما تذهب إلى مكان ما، وحينئذ أيضا يبقى المفتاح عندها، وتعطي كنتها لوازم الطبخ في كيس فقط.

طبعا، لا تضيّق العجوز على كنائنها في المعيشة، ولكنها تتصرف وفق خطة مرسومة، ومن دون أن تبذر في لوازم الطبخ، وفي المساء عندما يقدم الطعام، ويبقى شيء زائد منه، تبدأ تثرثر، وتجبر الجميع على أن يأكلوه حتى آخره، وإلا تأكله مضطرة بنفسها.

وكانت الكنائن كلهن يعملن، وفي الصباح بعد الإفطار تدخل العجوز إلى غرفتها، وتخرج منها بمحفظتها، وتعطي لكل ابن «سوما»(١٧) واحدا، ولكل من الكنائن نصف سوم، أما أحفادها الذين يذهبون إلى المدارس فتعطيهم عشرة «تيينات»، ثم تدخل غرفتها بمحفظتها.

---

(١٧) السوم: عملة أوزبكية

وفي اليوم الخامس عشـــر من كل شهر يأتي أبناؤها وكنائنها بـرواتبهـــم واحدا واحدا، ويضعونهـــا أمامها، وتعدها العجوز بلا استعجال، وتعبس إذا كان المبلغ أقل من ألف سوم.

وكانت هناك عادة أخرى للعجوز، ففي المساء عندما يدخل الأبناء والكنائن إلى غرفهم كانت تنظر إلى المداخل أمام أبواب غرفهم، وتفحص أحذيتهم، وإن وجدت حذاء أحد ما قد مزق أو يحتاج لصيانة فإنها تجمعهـــا وفي اليوم التالي تذهب بها إلى محل الإسكافي وتصلحها حتى ينتهى الدوام.

باختصـــار، كانـــت العجـوز في هذا البيت مثل المارشـــال. وكانت كل صـغيرة وكبـيرة فـــي البيت تحت نظرها وإدارتها، وفي المســـاء كـانت الأســر السـبع تجـتـمع في السقيفة، لأنه لم يكـــن هناك غير تلفاز واحد لهذه الأســـر الســـبع، وكانوا يشـــاهدونه جميعـــا، وإن بـــدأت العجوز تتثـــاءب تغلق الكنة الوســـطى التلفاز فورا، وإن لم يكتمل عرض الفيلم أو الحفلة الموسيقية.

وكانت الكنائن تخاف من العجوز ومن هذه الكنة الوسطى بالـــذات، وإن كان هنـــاك أي نـــزاع في البيت فســـببه الكنة الوســـطى، فهي تتمشـــى في الليالي بجانب نوافذ سلائفها، وتستمع إلى كلامهن، وتخبر به العجوز في صباح اليوم التالي، وإن كان هناك شـــيء في الليل لدى أسرة من هذه الأسر فإن العجوز كانت تذيعه في الصباح قبل شروق الشمس.

وخلاصة الكلام، كان هذا البيت يشبه مملكة، لها مليكتها ووزيرتها، وكانت لهذه المملكة قوانينها وأنظمتها.

ولم تنتبه إنابت في البداية إلى هذه الأشـياء وهي تسـتمتع بحياتهـا كعروس، ولم تزعجها الكنة الوسـطى لكونها عروسـا جديدة. وبعد مرور شهر تقريبا انكشف «عيب» إنابت أيضا.

وفي صبـاح أحد الأيام خلال الإفطار سـكبت العجوز كأس الشاي التي قدمتها لها إنابت على أرض الفناء قائلة:

- أنا لا أشرب الشاي من يد امرأة قلبها أسود.

اسـتغربت إنابت، وصبت الكنة الوسـطى شايا آخر، وقدمته للعجـوز، وهي تتقدم قليلا منحنية، وتمسـك بأصبعها الخنصر كم يدها التي تقدم بها الشاي، فأخذته العجوز.

وسـكبت إنابت شايها على أرض الفناء أيضا، وقامت ودخلت إلى غرفتها وصفقت الباب بشدة، وأراد زوجها أن يقوم من مكانه ليدخل وراءها، ولكن العجوز نظرت إليه عابسـة، فبقي جالسـا في مكانه.

كانت سـلفتها الصغرى في منتهى الصبر، ودقت نافذة إنابت حين ذهبت العجوز إلى بيت أحد أبناء أختها، وتحدثتا عن شيء ما بصوت مهموس لكيلا تسـمع السـلفة الوسـطى، التي كانت تكنس السقيفة.

- لا بـد من تأديـب العجوز، إنها تجـاوزت كل الحدود، أما أبناؤها فيغضبون عندما نتحدث عن أمهم.

واجتمعت السلائف الست أمام السقيفة بعد أن أكملت السلفة الوسطى كنسها، وحملت سـلة، وخرجت إلى الشارع، وتهامسن طويلا، وعندما رجعت السلفة الوسطى تفرقن، وذهبت كل واحدة إلى غرفتها، وبقيت إنابت وحدها في الفناء.

- اسمعي، أنت عروس جديدة، لا تسمعي كلام هؤلاء المفتريات، وإن سمعت كلامي سيكون كل شيء على ما يرام. هل تعرفين لماذا سكبت أمي[18] الشاي الذي قدمته لها؟

- لا، أجابت إنابت واهتمت بمعرفة سبب ذاك التصرف.

- إنك قدمت الشاي بيدك اليسرى، والإنسان ذو القلب الأسود هو الذي يقدم الشاي بيده اليسرى.

دهشت إنابت، ثم قالت:

- لا، هل هذا كلام معقول؟ وأنا تزوجت من ابنها أو من أمه؟! قولي لها لتجلس داعية لأبنائها، وإلا سأضعها في فرامة اللحم.

رفعت سلفتها حاجبيها وقالت:

- يا إلهي! لديك لسان طويل. ستصبحين عاقلة عندما تسمعين كلمتين مُرّتين من حماتي، فاعرفي، والعجوز هنا في هذا البيت هي صاحبة القرار.

وبعد هذا الحديث بدأت العجوز تتعامل مع إنابت بغير مودة، وأما السلائف الست فكن يتهامسن كل يوم، ويتشاورن حول شيء ما.

واتضحت مشاوراتهن في يوم الأحد صباحا. عندما استيقظت العجوز في الصباح، وذهبت لتتوضأ، كانت الطاولة الكبيرة في السقيفة مفروشة بسفرة حمراء، واجتمعت الكنائن والأبناء، وكانوا يجلسون صامتين، وانتظروا حتى تتوضأ العجوز وتصلي، وبعدما صلت العجوز نادتها إنابت:

- يا أمي، تعالي إلى هنا!

---

(١٨) تسمي الكنة حماتها بـ «الأم» وفق العادات الأوزبكية.

- نعم، ماذا حدث؟ هل هذا بيت أو إدارة؟ ولماذا اجتمعتم، هل هناك اجتماع؟

قالت الكنة الأكبر من إنابت:

- ليس اجتماعا، بل إنها محكمة، يا أمي، تعالي هنا!

ثرثرت العجوز شيئا ما، وبدأت تبتعد، وقالت الكنة الكبرى:

- إذا لم تأت، سنحكم عليك غيابيا.

فكرت العجوز أن هذا شيء مضحك، واقتربت من السقيفة وجلست على حافتها.

وقامت إنابت من مكانها وقالت:

- اجتماع المحكمة مفتوح، هناك مسألة واحدة، وهي شكوى الكنائن السبع من حماتهن، وإصدار الحكم عليها على أساس قانون الإجراءات الجنائية، هل لديكن أي إضافات؟ لا، لا يوجد، إذن، نستمع إلى كلمة الكنة الكبرى، يا أيتها المدعية، قومي، وقولي!

قامت الكنة الكبرى من مكانها خائفة، وهي لا تجرؤ على النظر في وجه عمتها، وبدأت تتكلم:

- لقد مرت أربع عشرة سنة منذ أتيت عروسا إلى هذا البيت، وأنا بين يدي هذه العجوز، وخلال هذه السنوات الأربع عشرة كنت كأنني لا أعيش في بيتي، بل في بيت للإيجار، أما زوجي فهو لين مثل خرقة، ولم أحس بالراحة يوما في حياتي الزوجية، والله إنني أقول الحق، وربما لا تصدقن، خلال هذه السنوات لم أقطع عنقود عنب في هذا الفناء، وبإمكانكم فهم الباقي.

وجلست الكنة الكبرى، ثم قامت الكنة الثانية وقالت:

- إنهـــا تقول لي دائما «أنـــت بنت الممثلـــة، ومثلت أمك دور الســـاحرة على خشبة المسرح، لا تجلسي على فراشي، لا تشربي من كأســـي، وأنت ستصنعين لي ســـحرا»، ولقد مرضت بالزكام قبل سبع سنين، ومنذ ذلك الوقت أصبح اسمي «مخاط».

وحاولـــت العجـــوز أن تقوم مـــن مكانها، ولكـــن إنابت قالت بجرأة:

- اجلسي!

وجلست العجوز، ولم يكن واضحا، هل كانت خائفة، أو حيرى، أو غضبى!

وقامت الكنة الوسطى من مكانها وكذّبت كلام الأخريات:

- ليـــت كل الأمهـــات يكنّ مثلها، وهي مثاليـــة، وبفضلها فإن معيشـــتنا كاملـــة، ونحن مبســـوطون مـــن قلوبنا، وأنـــا لم أوقع الشكوى.

هاجمتها الأخريات.

- أنـــت عميلة حماتنا، وتخبرينها دائما عنا، وأصبحت قريبة لها بعد أن ساعدتها في تركيب الأسنان الاصطناعية، ومن سمح لك بالحديث؟

وقامت العجوز من مكانها وصاحت في أبنائها:

- أي رجال أنتم؟ تهاجمني زوجاتكم، وأنتم تشاهدونني؟

وأحنى أبناؤها رؤوسهم، وهم ينظرون إلى الأرض، ويضحكون ضحكا مكتوما.

ورفعت إنابت ورقة بيدها:

- اســـتمعوا! أعلن الحكم، نحن نوافق على أن نعيش في هذا

البيــت، إذا أعطتنا حماتنا مفتاح المســتودع، وإذا ســمحت لكل أسـرة بمعيشة مستقلة، ولم تأخذ رواتبنا، وإذا لم ترض بشروطنا فســنغادر البيت، وإدارتنا في العمل تقدم شقة لكل منا . هل أنت راضية بشروطنا؟

- كلاّ! - قالــت العجــوز، وقامت من مكانهــا ولوحت بيدها ودخلت غرفتها .

ووقف الجميع مدهوشين مفتوحي الأفواه، ونظر بعضهم إلى بعض، كأنهم يســألون « وماذا نفعل الآن؟» ورفعت إنابت صوتها، وبدأت تتحدث لكي تسمع العجوز من داخل البيت:

- وأما إذا قبلت حماتنا بشــروطنا فسيعطيها كل منا خمسة ســومات كل شــهر، أي الأبناء الســبعة والكنائن السبع، نعطيها خمسة سومات فيكون المجموع سبعين سوما، ولا تدخل في هذا مصروفات الأكل والملابس، وكذلك مصروفات زياراتها للضيافات على رقبتنا أيضا .

وأغلقت العجوز الباب بقوة، كأنها تقول «اسكتي!»

وفقدت الكنائن ثقتهن بأنفســهن بعد هذه المحاولات التي لم تؤثر في العجوز، وبدأن ينظرن بعضهن إلى بعض، وغمزت إنابت لهن، ثم قالت بصوت عال أيضا :

- إن الحكــم نهائــي، وتعطى مهلة لســاعة واحــدة للرد أو الاعتــراض، وبعــد ســاعة واحدة يذهــب كل منا إلى الســوق ليحضر شــاحنة، ويبدأ الانتقال إلى حي تشــيلانزار، ويمكنكم الانصراف.

يُفتح الباب بهدوء، ويظهر رأس العجوز.

- وللهزل حد، تبا لحركاتكن!
- هذا ليس هزلا، بل إنه صدق، وننتظر ردك خلال ساعة.
ورجعت العجوز ببطء، وجلست في مكانها، وقالت:
- حسناً، وماذا تردن أن أفعل؟
- أعطينا حريتنا، ولأكبر كنائنك ثلاثة أطفال، ولتقم بمعيشتها بنفسها، وكذلك الأخريات، وأنت تختارين ما شئت من بين الطبخات السبع التي تجهزها الكنائن السبع، وتتمتعين بها بكل احترام.
- هل تردن الطبخ في سبع قدور في يوم واحد؟
- طبعا، وكل منا يأكل ما يشاء.
تمتمت العجوز.
- أنت أثرت في الكنائن اللواتي لم يقلن شيئا طول هذه السنين، وأثّرتِ في ابني، قالت العجوز ونظرت إلى إنابت غاضبة.
- هل أنت راضية أم لا؟ سألت إنابت، وقد فهمت أن العجوز تنازلت قليلا ولذلك استمرت لكيلا يفتر الحديث.
أما العجوز فغضبت أكثر:
- إن أردتم الانتقال، فانتقلوا، سأعرض البيت للإيجار، وأقيم الدعوى عليكم في المحكمة وأطلب النفقة.
ضربت إنابت على الطاولة بكفها.
- حسناً، بقيت خمس دقائق من المهلة، وليذهب أحدكم للسوق ليحضر شاحنة، وسننتقل بسبع شاحنات.
وارتبكت العجوز، وجالت عيناها، وقد وصلت الكنة الكبرى إلى الباب قبل أن تقول العجوز شيئا.

- قفي! لا تستعجلي!

قالتها العجوز، ثم دخلت غرفتها، وخرجت بعد قليل، ورمت المفتاح في صحن الفناء.

- خذن! وإن أردتن، اطبخن في عشرة قدور! وماذا يحتاج بطني الوحيد؟ افعلن ما تشأن.

وزادت إنابت:

- نحن، الكنائن وأبناءك، حسبنا وعرفنا، أن هناك مبلغ ستة عشر ألف سوم توفرت من النقود التي أعطيناك إياها، فعليك توزيعها علينا جميعا.

- لن أعطيكم شيئا! ليس لكم أي تيين، ولماذا أعطيكم ما جمعته لأجل مراسم دفني؟

وقالت الكنائن كلهن معا:

- حسناً، حسناً، لتحفظها، ولكنها لا تأخذ شيئا بعد ذلك.

سكتت العجوز، وكأنها كانت شاكرة لأن النقود بقيت معها.

وفي نهار ذلك اليوم أقام الأبناء السبعة مواقد في سبعة أماكن من الفناء، وفي المساء غلت سبعة قدور في وقت واحد.

وزاد نفوذ واحترام العجوز، وكانت الكنائن السبع ينادينها من الجهات السبع بأصواتهن اللينة، ويقلن:

- يا أمي، الأرز جاهز، تعالي، يا أمي طبخت «لغمان»، تعالي إلينا!

ولـم تذهب العجـوز بغضب لأي واحدة منهـن، وامتلأت المائدة في السقيفة بأكلات مختلفة بينما كانت العجوز تصلي العصر، وكان هناك «لغمان»، والأرز، و«الشـولة»، والشـوربة أيضا، و«شيشبرك»، و«قاورما»[١٩] في صف واحد.

وتذوقت العجوز قليلا من كل أكلة، وقالت في نفسـها: إن صغيرتي تطبخ أفضل.

وغرقت العجوز في الاحترام، وكانت إحدى الكنائن تفرش، وأخرى تصنع الشـاي، وتنظف الثالثة حذاءها، وتأتي الرابعة بصابـون معطر جديد... أما كنتهـا الصغرى فجاءت بكأس كبيرة ملأى بعصير البطيخ، ثم وضعت منديلا على كتفيها:

- اربطيه في الليل، ولا تتعرضي للزكام، يا أمي العزيزة.

ومازالـت العجوز غاضبة حتى الآن، ولكنها اعترفت فجأة بعدالة الأمر، عندما اسـتلقت ووضعت رأسها على الوسادة، وأغلقت عينيها.

- كنت أتعب نفسي طوال هذه الفترة، هل هذا كله ضروري لـي؟! فليتصرفـوا كما يشـاءون! ومن كلفنـي أن أكون «الأم الحاجة»؟

نامـت العجوز غارقة في هذه الأفكار، وهي تنام لأول مرة نوما هادئا منذ أن بدأت تُزوّج أبناءها.

وأطفأت الكنة الكبرى المصباح لكيلا تزعجها في نومها.

وتمشـت الكنة الوسـطى في الفناء ليلا، وهي لا تستطيع أن تتعود العادة الجديدة، واستمعت إلى نوافذ الكنائن واحدة

---

(١٩) «لغمـان»، والأرز، و«الشـولة»، والشـوربة، و«شيشـبرك»، و«قاورما» كلها أكلات شـعبية أوزبكية.

واحدة، وفي الصباح بدأت تهمس في أذن العجوز شــيئا ما، فقاطعتها العجوز:

- يا ابنتي، اتركي عادتك هذه. أنا اســتقلت من وظيفة «الأم الحاجة»، وأقيلك أيضا من وظيفة «الجاسوسة».

وسمعت الكنائن كلهن هذا الحديث، وضحكن ضحكة عالية.

ومنذ خمس عشرة سنة تغلى سبعة سماورات (أباريق الشاي) في هذه الدار في آن واحد.

ذو الشعر الأزرق

ناصر فاضلوف

حـــل الربيع وبــدأ الثلج يذوب، وفي مثل هـــذا الوقت من كل ســـنة ينتقل رعاة مزرعتنا إلى مراعي ياسّـــي على شـــاطئ نهر سيرداريا ويقيمون خيامهم هناك. والمسافة بين المراعي وقريتنا ليست بعيدة، تبلغ نحو عشـــرة كيلومترات. أذهب إلى هناك مع عمّي باتشـــاخان كل يومين، إن لـــم أذهب كل يوم. وفي مثل هذا الوقت تفيض مياه نهر ســـيرداريا على شواطئه لتغطي الأدغال والبرك المجـــاورة، فيزعق الوز والبط ويحـــول هذه الأماكن إلى سوق طيور.

اليـــوم أيضا كنت أنا وعمي علـــى الجوادين في الطريق. وقد علق عمـــي على ظهره بندقية ذات طلقتين بعيار ســـتة عشـــر، وعلى ظهري بندقية ذات طلقة واحدة بعيار عشـــرين. كنا نمشي ونتحـــدث. ولما تجاوزنا نهر بوريجار واقتربنا من مراعي ياسّـــي قابلنـــا رجـــلان؛ أحدهما يركب فرســـا والآخر يركـــب حمارا، عرفتهما عندما اقتربنا منهمـــا: راكب الفرس هو الأخ قوجقار، طبيب بيطري في مزرعتنا، وراكب الحمار هو الجد عيسى، كبير الرعاة.

- السلام عليكم، قال عمي باتشاخان وقد أطال تحيته.

- وعليكم... - قصّر الجد عيســـى رده للتحية - مجيئك أمر جيد، يا أخي، هيا بنا لنذهب!

قال الجد هذا وتقدم إلى الأمام وهو يحث حماره. استغرب عمي وسأل:

- ماذا حدث؟

غمز الأخ قوجقار بعينه اليمنى كأنه يقول «لنذهب». سحبنا زمام جوادنا ورجعنا إلى الخلف وفكرنا: «هناك أمر ما». نسير أنا وعمي والأخ قوجقار في صف واحد، أما الجد عيسى فهو في الأمام قليلا.

- اعتدى الذئب على جواده، قال الأخ قوجقار هادئا.

- كيف؟

- سوف نرى الآن.

استغربت جدا، قبل الأمس رأيت جواده بجانب الخيمة، كان واقفا ويسعى إلى الأمام.

مشى الجد عيسى مسافة قليلة، ثم جذب مقود حماره إلى اليمين ودخل بين الأشجار القصيرة، وترجل حتى وصل، ووقف بجانب جثة جواده الهالك. وترجل الأخ قوجقار وعمي باتشاخان، وأعطياني زمامي جواديهما. رأت الخيول جثة الجواد المغطاة بدمه فأخذت تصيح من الخوف وتضرب الأرض بأرجلها. أكلت الذئاب رجل الجواد الخلفية ونصف بطنه، وعلى رقبة الجواد المسكين وشفتيه أثر أسنان الذئاب، ويبدو أن الجواد صارع الذئاب طويلا، وتجمدت عيناه مفتوحتين، يا للجواد المسكين!

رأى الجد عيسى هذا المنظر وهو يرتعش وقال:

- لا، لا يمكن تحمل هذا أكثر من ذلك. لا بد من اتخاذ اللازم!

- يبدو أنه ليس فعل ذئب واحد.

- آه، إنها أربعة، وأقواها ذو الشعر الأزرق - قال الجد عيسى غاضبا - ويسوؤني أنني لا أستطيع الإمساك به. أين الصيادون؟! أين الرجال أصحاب البنادق؟!

ربما أثّر هذا الكلام في عمي باتشاخان قليلا، فقد أنزل طاقيته على جبينه، وحك قفاه. وسكت الأخ قوجقار، وأخذ كيسه المعلق على سرج جواده، وجلس على الأرض وبدأ يفتح ربطة الكيس، واستخرج منه قارورة زجاجية ووضعها على الأرض، كان فيها مادة سائلة سوداء، وعلى ورقة ملصقة عليها صورة جمجمة وعظمتين. ثم أخذ الأخ قوجقار إبرة، كانت هذه الإبرة أكبر مما كنت أرى دائما بمرتين أو ثلاث مرات، وملأها من القارورة، وحقن ثلاثة أو أربعة أماكن في جثة الجواد، ثم استوى قائما وقال: سوف نرى غدا - قال وهو يمسح يديه بالقطن - سيرجع الذئب إلى هذا المكان مرة أخرى في الليل، فإن أكل مات.

- لن يأكل. يسمونه ذا الشعر الأزرق! - قال الجد عيسى حزينا - هذا الذئب الأبله حساس جدا، لا يقترب من مكان فيه بندقية، ويشم رائحة الدواء (السم)، ويتجنب الفخ.

- سوف نرى - قال الأخ قوجقار وهو هادئ - لنذهب، وسنعود غدا في هذا الوقت.

ركبنا وذهب الأخ قوجقار والجد عيسى إلى المراعي، وذهبنا إلى الصيد ووعدنا أن نعود غدا.

وصلت أنا وعمي باتشاخان إلى المكان مبكرين، وقد هطل الثلج على الأرض بمقدار شبر. وانحنت غصون الأشجار من

ثقل الثلج، وعلى الثلج آثار الصيد... هناك ثلاثة أو أربعة آثار أكبر من أثر الكلب، ربما لذئب. عندما وصلنا إلى مكان الجثة، فاجأنا حدث غريب، فقد غطى الثلج جثة الجواد، ويبدو أن الذئاب أكلت منها، ومزقتها عندما سحبتها من طرف إلى آخر، وعلى بعد عشرة أمتار منها تجمد ذئبان مثل الشمع، أحدهما فوق الآخر، وذهبنا قليلا فوجدنا ثالثا تحت شجرة... لما رأينا كل هذا وصل الجد عيسى والأخ قوجقار.

- ماذا حدث، هل حدث شيء ما؟

- قُتل ثلاثة...

ذهب الجد عيسى وشاهد ثلاثة ذئاب وقال:

- أما قلت لكم - ويهزّ رأسه - ليس هنا ذو الشعر الأزرق، قام هذا الذئب الماكر بحيلة هنا أيضا، ماذا سنفعل؟

- سوف نلاحقه. لن يغادر بعيدا ويترك الذئاب، لأنه تعوّد على هذا المكان - قال الأخ قوجقار - إضافة إلى أن جثث جرائه هنا.

قال عمي باتشاخان:

- لا بد أن نلاحقه اليوم، فهو يتجنب الفخ، ولا يأتي إلى مكان فيه بندقية، ويشم رائحة الدواء، هناك طريقة، فلنوجه خلفه كلبا، والكلب يأخذه، ولن ينجو. يا منصور، اذهب إلى القرية، وأحضر الكلب آق شونقار!

اتجهت إلى القرية لأحضر آق شونقار، وعندما عدت به كانت الشمس قد ارتفعت بمقدار شجرتين. أخذ عمي باتشاخان زمام آق شونقار وأعطاه للجد عيسى وقال:

- كما اتفقنا، أيها الشيخ.

وأخــذ بندقيته ذات الطلقتين وأعطاها للجد عيســى، وقفز على جواده وأضاف:

- سوف توجّه آق شونقار بعد إشارتي.

ركب الأخ قوجقار أيضا على جواده بمهارة.

- لــو كان فارس أو فارســان لكان جيدا. قال الجد عيســى قلقا.

- من أين نجد بضعة فرســان في ذروة الموسم هذه، لا تقلق، أيها الشيخ، ســوف ننجح - قال الأخ قوجقار وهو يطمئن الجد عيسى - علينا أن نجده أولا.

- علــى كل حال... يوفقكم الله - قال الجد عيســى ومســح وجهــه بيديه - مُرُّوا بدغل هناك.. إن لم يكن هناك، ابحثوا عنه في خميلة على شاطئ النهر، له جحر هناك.

جرى عمي باتشاخان والأخ قوجقار راكبين على جواديهما في اتجــاه نهر بوريجار، وفي يد كل منهما هــراوة، بقيت أنا والجد عيســى في المكان، وكان من الممكــن أن نذهب نحن أيضا، ولكن متى سمعتم عن أحد يلاحق ذئبا وهو راكب على حمار؟

دخل الفارســان في قعر دغل سريعا، وتحول كل جسمي إلى أذن، ألتفت وأنظر إلى أي شيء يصدر صوتا. تهب نسائم الربيع بهدوء. وبدأت أعشاب جديدة تنمو من تحت الأعشاب القديمة. حميرنــا لا تقف في مــكان وهي تأكل نبات الشــيح. ويرفع آق شــونقار أذنيه وينظر حيث ذهب الفارسان كأنه يحسّ شيئا ما. ومن حين إلى آخر يخرج لســانه ويلعق شــفتيه، ويقعي ويتحرك

من دون صبر.

الجد عيسى ينظر إلى نهر بوريجار، ويطير في السماء طير أسود كأنه يسبح، وتغرد في مكان ما قبرة. في هذا الوقت سمعت أصواتا تطرد، بدأت أقلق، اهتزّ آق شونقار وهو ينظر حيث جاءت الأصوات، والجد عيسى يكاد يسقط عن حماره، وعدَّل الجد نفسه بسرعة، ولف زمام الكلب في يده ومسكه بقوة. أما آق شونقار فيضرب الأرض ويحاول أن يجري إلى الأمام.

فجأة خرج الذئب من الدغل القريب من النهر وبدأ يقترب من جهتنا، وهو يسرع، أما الأخ قوجقار وعمي باتشاخان فقد تأخرا كثيرا. عندما اقترب الذئب منا صاح الجد عيسى بصوت عال، ولم تبق عندي قوة لأصيح، الحمد لله، سمع الذئب صوت الجد ومال إلى مراعي ياسّي، وصل الفارسان سريعا.

- الحقوا به! من طرف واحد.

لاحقه الفارسان، وأصواتهما كأنها أصوات عشرة أشخاص، أو خمسة عشر شخصا. يلاحقانه في المراعى وهما يصيحان بصوت عال، ابتعد الذئب والفارسان خلفه بسرعة. يكاد الجد يفقد صبره ويقول:

- كان من المفروض مطاردته من طرف واحد.

- ماذا يحدث إذا طارداه من طرف واحد، أيها الشيخ؟

- في هذه الحالة لا يستطيع أن يبتعد ويضيع طريقه ولن يغادر - قال الجد ووضع كفه على جبينه - لا تستطيع عيوني أن تراه... انظر، هل تراه؟

- نعم، هناك أحد الفارسين قطع طريقه.

- أحسن! الأمر سيكون هكذا.
- رجع إلى المراعي...
- جيد.. الفارسان في أي جهة من الذئب؟
- على يمينه. لماذا تسأل أيها الجد؟
- سأقول فيما بعد.

دار الذئب واقترب من جهتنا مرة أخرى. في هذه المرة تمكنت أن أسيطر على نفسي، وبدأت أشاهده من قريب. إنه فعلا يناسب اسمه، «ذو الشعر الأزرق»، وهو فعلا، كان كبيرا جدا مثل الحمار. سمعت عن الذئاب كثيرا، ولكن لم أر ذئبا من قريب، ها هو يقترب من مكاننا، وقد أخرج لسانه، ويبتعد هاربا، وهو ينظر إلى الفارسين عن يمينه. في هذه المرة صحت بكل صوتي مع الجد عيسى، ويبدو لي أن ركض الذئب لم يعد خفيفا مثلما كان في البداية، تعب الذئب في رأيي. دار مرة أخرى وهرب من الطريق نفسها. بقي آق شونقار في مكانه مرة أخرى وهو يسعى إليه.

- ألا توجهه إليه، أيها الجد؟
- حتى يتعب تماما - قال الجد وهو يحك ذقنه - ثم ستكون مهمة آق شونقار سهلة، فربما يجرح آق شونقار.

لما دار الذئب مرة ثالثة، رفع عمي باتشاخان قبعته وهو ينظر إلينا، وفتح الجد عيسى الزمام من طرفه، وخرج الحبل من الحلقة على رقبة كلب الصيد وبقي في يد الجد عيسى، وقفز آق شونقار إلى الأمام، وسرعان ما لحق الذئب ذا الشعر الأزرق، وعضه من مؤخرته، ونظر الذئب إلى الوراء وصاح وواصل جريه

كأن شـيئا لم يحصل، أصيـح أنا ويصيح الجد عيسـى ونحث حميرنا ونلاحقه.

– والآن انتقلا إلى الجانب الأيسر! تشنجت رقبته. يقول الجد عيسى وهو يصيح ويحث حماره.

– انتبها، لا تدعاه يهرب! هذا اللعين خطير جدا!

– لن يهرب، قطع آق شونقار رجله الخلفية.

– والآن نطلق عليه رصاصا، أيها الشيخ، أعطني البندقية!

أخذ الجد عيسى البندقية وأعطاها لعمي باتشاخان. عندما صوب عمي البندقية أغلقت عينيّ من غير إرادة، أطلقت طلقتان متتاليتـان، وصاح الذئب صيحة قصيرة وسـكت. عندما فتحت عيني وجدت الذئب ذا الشـعر الأزرق مغطى بدمه مستلقيا بين الأشجار.

هكذا انتهى عمر الذئب الوحش الذي أقلق الرعاة في مراعي ياسّي، وظهرت الابتسامة على وجه الجميع، وأخذ الجد عيسى سكينه ليسلخ جلد الذئب ذي الشعر الأزرق.

أمانة القيامة

أولماس عمربيكوف

طلعت الشمس وارتفعت عن الأرض بمقدار قطعة شمام عندما وصل «الأب سرسان باي» إلى وسط المنطقة. الناس في السوق قليلون، ولا يعرف هل سبب ذلك أن الوقت مازال مبكرا أم أن الجو بدأ يبرد ولذلك قل عدد الذين يريدون التسوق؟ ولا توجد الأصوات والضجة المعتادة التي تكون في أيام السوق(٢٠)، وفرح الرجل المسن وقال لنفسه: «هذا جيد، لم أتأخر في هذه المرة، والسوق في قمتها».

فكّر في هذا وشد لجام جواده، وبدأ الجواد الذي كان يتنفس وأذناه قد تدلتا، يتجه إلى الأسفل في اتجاه النهر وكأنه كان ينتظر هذا الأمر، إنه يعرف هذه الأماكن جيدا مثل صاحبه، ويأتي كل يوم أحد إلى هذا المكان منذ أن كبُر ووُضع عليه سرج، وهو يعبر جبال «حصار»، ويتوقف عند «الشاي خانة» المبنية كأنها مؤقتة بجانب جسر خشبي ضيق. وتقام السوق منذ سنوات الحرب - من آخر الخريف إلى بداية الربيع - هنا في هذا المكان قرب النهر الذي توسع نتيجة فيضان السيل توسعا غير منظم. ومن هنا ودّعوا إلى جبهة القتال شبابا اجتمعوا من أطراف مختلفة. والشاي خانة ذات أعمدة بالية خربة علامة من تلك السنوات القلقة.

---

(٢٠) يوم السوق، يوم واحد في نهاية الأسبوع، أي يوم الأحد يخصص للسوق، وهناك مكان خاص يجتمع فيه المشتري والبائع من التجار والحرفيين والفلاحين والمزارعين، ولذلك نجد في اللغة الأوزبكية كلمة يوم السوق تستخدم بمعنى يوم الأحد.

وكان «الأب سرسـان باي» يربط جواده بأحد هذه الأعمدة في الأوقات الماضية، أما هو فكان يتجول في السوق أو يجلس في الشاي خانة حتى الظهر، وبعد انتهاء السوق يصلي الظهر ويرجع إلى بيته. ولم يستطع الجواد أن يعتاد على هذا النمط مـدة طويلة، وقطـع حبله مرة أو مرتين وهـرب، وأزعج أهل السوق كلها، ومرة أو مرتين توقف في منتصف الطريق بعناد، ورفض أن يمشـي، وضُرب بالسوط، أما الآن فقد اعتاد هذا الأمـر، وصاحبه لا يربطـه بحبل، وأصبح يصل بنفسـه إلى العمـود ويتوقف عنده وينتظر حتى يترجـل صاحبه عنه، ثم يغلق عينيه ويرفع رجلاً مـن أرجله الأربعة لترتاح، ويقف في مكانه من دون حركة.

وفي هذه المرة أيضا حصل الشيء نفسه، ونزل الأب سرسان بـاي عن جواده عند العمود ودخل الشـاي خانـة. وتأوه الجواد ونظر حوله. وتحت الجسـر كانت البقرة تلعق عجلها الذي قفّ شـعره من البرد، وشعر الجواد بملل من النظر إليها، فتثاءب، ثم أغلق عينيه.

جلس الأب سرسـان بـاي بجانب النافذة الكبيرة المكسـورة الزجاج، وهذا المكان مخصص له من أول يوم بنيت فيه الشـاي خانة، وإن جلس فيه أحد فإنه يتركه عندما يرى «الأب سرسـان باي»، ومن خلال هذا المكان يمكن مشاهدة ساحة السوق بشكل جيد، وكلّ مَن يعبر الجسر.

– كيف حالك، يا سرسان باي؟ يقول صاحب الشاي خانة وهو يحضر شايا ويسكب له، ويضيف: هل أتيت بجديد؟

- ماذا، هل أنا عبء عليك؟ يرد سرسان باي بخشونة ويقطب حاجبيه النادرين اللذين اصفرّا من الشمس.

- لا تغضب، أقول هذا وأنا أشفق عليك. لا شيء أسوأ من الانتظار.

لم يرد الأب سرسان باي، كان مزاجه جيدا كأن نيته ستتحقق اليوم، ولكنه غضب من كلام صديقه. وكاد يقول: «ما دخلك أنت بع شايك!» ولكنه امتنع عن ذلك. إن كلام الأخ محمد عمر صحيح، لأن المسكين هذا انتظر ابنه عشر سنوات بعد أن وصلت رسالة تعزية له، وتعذبت زوجته بألم على ابنها من دون رسالة أو خبر، وأصبح هو نفسه نحيفا، وأخيرا أعلن عزاءه، والآن هو مشغول في الشاي خانة.

وما قاله اليوم محمد عمر صحيح أيضا، «أقول هذا وأنا أُشفق عليك...» وهل حالته تحتاج إلى الإشفاق، فكّر سرسان باي هكذا، وخدش شيء ما قلبه. وارتعشت شفتاه، واهتزّت لحيته الصفراء، وتوقف شيء ما في حلقه، وشعر أنه بدأ يرتخي، وصرخ عليه:

- يا أحمق، هل أنتظرك أنت إن انتظرت؟! لا ينتظرك أحد إلا عزرائيل! أين أصبحت معلما فتُعلّمني؟

ابتسم محمد عمر وقال:

- لا تغضب! أكاد أتقيأ عندما أرى وجهك في كل سوق. أليس من الأفضل لك أن ترعى قطيعك في تلالك أو حقلك؟ ومن يحتاج إليك سيجدك. وطبعا، أنت تعرف نفسك. وإن أردتَ فنَمْ هنا. وأنا أقول، حتى لا تموت أنت وحدك في الطريق، يا غبي!

- إن مت سيوجد مسلم يدفنني - قال سرسان باي وقد بدأ يهدأ - الله يحفظني منك، إنك تقصر في عمل الشاي وبالتالي قد تقصر من كفني أيضا.

- قل هكذا! ها هو شاي ساخن صنعته جديدا، فاشرب!

وسكب محمد عمر من الإبريق شايا صنعه جديدا، وقدمه له، وجلس بجانبه لأن الناس كانوا قليلين.

وسأله سرسان باي جادا وقال:

- هل سمعت شيئا ما؟

- لم أسمع أي شيء، لو سمعت لأرسلت إليك شخصا.

وساد السكوت بينهما. وشعر محمد عمر بعدم الراحة، وشرب قليلا من الشاي، وإن لم يرد ذلك.

- كيف حال «زيبي» هل هي بخير؟

- جيدة - أجاب سرسان باي ونظر إلى النافذة - اليوم رضيت عن ذهابي بصعوبة، علمت أني سآتي إلى هنا فطردت الجواد إلى الحقل في منتصف الليل.

وسأله محمد عمر قلقا وقال:

- هل شتمتها، هل غضبتَ عليها؟

- لا، إنها مسكينة، وضعها صعب، وهل أشتم الآن؟

- لا تشتمها. ليس لها أحد سواك أنت..

- لن أشتم، ولكن... فجأة بدأ الأب سرسان باي يضحك.

- ماذا؟ استغرب محمد عمر.

- أنا لا أشتمها، ولكن لماذا تطرد الجواد؟ إنها تعرف أنني سآتي ولو على الأقدام. وعدا ذلك فإن جوادي يجري إليّ عندما

يسمع سعالي، وهي تعرف ذلك، فلماذا تطرد الجواد؟

- إنها تشــفق عليــك. قال محمد عمر، وحــاول أن يضحك أيضا.

- ألا أشــفق عليها؟! إني أشفق عليها أيضا، والوحدة سيئة. وأنت تعرف هــذا. ولكن ماذا أفعل، إنها أمانة القيامة! ولا أريد أن أدخل القبر وعليّ دين. وعليها أن تفهم هذا! ثم...

- السلام عليكم!..

دخل الناس وانقطع الحديث، وقام محمد عمر من مكانه.

وبعد قليل بدأت ضجة الســوق كالعــادة، اختلطت صيحات الأطفــال بخوار الأبقار والعجول وكلمات السماســرة مثل «هيا، اتفقنــا، على البركة»، وأصبح النهر حيا مثل فيضان الربيع، وقد ساد فيه السكون قبل قليل.

نظر الأب سرســان باي إلــى النافذة من جديــد، ومن كثرة العابرين كان الجسر يهتز مثل الجمال، وهكذا كان يهتز آنذاك... عندما ودّع ابنه، وعندما ودّع حيدر علي.

ولكن في ذلــك الوقت كان الناس يتجهــون في اتجاه واحد، والكثير منهم لم يعبر هذا الجســر مرة أخرى، استشهد بعضهم، وضاع الآخر من دون نبأ. ولم يكن هناك أي خبر عن ابنه خلال نصف سنة، ثم فجأة جاءت رسالة تعزية، وكان يومها في «أوزملي» يرعــى قطيعه، وكان يرعى الأغنام في الحقل الذي بدأ ينمو فيه العشب في الجانب الآخر من النهر، وجلس تحت «قلعة الحجر» التي تهدمت وبقيت أسوارها فقط، ويذكر أنه عندما حل الزوال أراد أن يتغدى وأخرج من كيســه لبنة، وسمع صوت امرأة تبكي

بصوت عالٍ في طرف القرية. ويعكس الجبل صوت البكاء، وكان الصدى قويا جدا، وارتعش الأب سرسان باي، ووقف ونظر إلى الأسفل، كانت هناك امرأة بشعر منكوش جاءت إلى ساحل النهر وهي تخدش وجهها، ولم يعرفها الأب سرسان باي في البداية، وعندما نزل إلى الأسفل قليلا عرفها من فستانها الأزرق... عرفها وانقبض قلبه.

- زيبي! أنا هنا، يا زيبي! قال واندفع إلى الأسفل.

- لماذا تصرخين، ماذا حدث؟ أمسكها الأب سرسان باي من يديها وهزّها.

- غفور... غفورجان... لم تستطع الخالة زيبي أن تتحدث، وسلمت لزوجها ورقة تمسكها وهي تبكي بصوت عالٍ.

رأى الأب سرسان باي ورقة صغيرة زرقاء، وفهم كل شيء. وتسلم الأخ محمد عمر أيضا عن ابنه رسالة مثلها... لم يقرأ الأب سرسان باي، ووقف في مكانه وتجمدت يداه ورجلاه، أعطاه الله ولدا وحيدا ورآه كثيرا.

وضاع حيدر علي من دون أي خبر عنه ولقد ذهب إلى الجبهة بعد والده بشهر. ودّع ابن صديقه إلى مركز المنطقة، ولم يبق عنده أحد يودعه.

ويوم ذهابه جاء بغنمتين على العربة التي يسحبها الحمار، حين مرت سنة على وصول رسالة تعزية عن غفورجان.

- يا عمي، احفظهما عندك، - قال وهو خجل - كان أبي يحب الغنم، وإن عاد نعمل حفلة العرس... إن لم يكن هناك أي إحراج.

- نعــم، يا بنيّ، - قال الأب سرســـان باي - ســـأضعهما مع القطيع، وليس هناك أي إحراج.

عندمـــا ودّع حيــدر علـــي ارتعش قلبـــه كأنـــه ودّع ابنه على الجسر.

- فـــي أمان الله، يا بني - ولكيلا يظهر عينيه الدامعتين نظر في كيس وضعت زوجته فيه بعض الأشـــياء، وقدمه له، خذه، من خالتك.

- شكرا.

- إن كان في إمكانك زر قبر غفور، إنه في ستالينغراد.

لا يعرف الأب سرســـان باي هل سمع حيدر علي كلامه الذي قاله بين أصوات الناس والضجة أم لا، ولكنه رآه يهز رأسه ويقول شيئا ما.

هكذا، مرت أكثر من عشـــرين سنة. ولم يزر حيدر علي ابنه، ولم يرســـل أي خبر عن نفســـه، والغنمتان اللتـــان تركهما عنده تكاثرتـــا وصار العدد أكثر من أربعين، وربط الأب سرســـان باي علـــى عنق كل منهـــا خرقة حمراء لكيلا تختلـــط مع الأخريات. ولكنـــه لم يعد، ولا يعرف أحـــد هل هو حي أم ميت. ولم تبق أي إدارة هناك لم يذهب إليها الأب سرســـان باي، ولم يبق أي أحد هناك لم يســـأله عنه، وهل من السهل أن يجد شخصا لا يعرف اسم عائلته، ولا عنوانه؟

- يا سرســـان باي، اســـمع، لا تذهب إلى أي مكان، ولا تتعب نفسك، نصحه أحد أصدقائه، ثم قال:

- إن عاد الإنســـان من جحيم الحرب ســـليما فهل يأتي إليك

ليطلب منك غنمتيه اللتين تركهما منذ زمن؟! الحمد لله، الآن النعم متوافرة، وإن كان هناك أي حاجة للغنم فالسوق مليئة بها، ومن الأفضل أن تذهب إلى السوق، وأنت تعرفه، فإذا كان حيا وكان هناك ستراه.

وجد سرسان باي هذا الكلام معقولا، ومنذ ذلك الوقت لا يترك أي يوم من أيام السوق، وفي الأيام الأخرى يرعى قطيعه في التلال والحقول، وفي نهاية الأسبوع يعود إلى بيته. قال له الرئيس عدة مرات: «كفى، أيها الأب سرسان باي، إنك اشتغلت كثيرا، ربما يكفي، أما الآن فليعمل الشباب!» ولم يسمع الأب سرسان باي كلامه، وكيف يستطيع أن يسمع كلامه، وعليه أن يرعى أغنام حيدر علي؟! ومن يرعى قطيع غيره وهو لا يعرفه؟

أما الشيخوخة فيبدو أنها تأخذ حقها... في الماضي كان لا يتعب وهو يقف عدة أسابيع على الأقدام، والآن يتعب خلال نصف يوم، ويريد أن يجلس. ذات يوم كان يجلس في تلال أوزملي بعد أن تعب، وسمع صوت طلقة رصاص من جانب النهر. ونزل إلى الأسفل خوفا من أن يطلق أحد الرصاص على الأغنام.

كان تحت شجرة العنب المشتبكة بشجرة الصنوبر بضعة شباب وضعوا زجاجة على حجر كبير، وأخذوا يطلقون الرصاص عليها، ورآه أحدهم وقال:

– يا أبي، هل اصطدتم كل طيور الحجل، وملّحتموها؟ لا يوجد أي طائر هنا!

– صيد الحجل يكون في الشتاء يا بني. هل أتيتم إلى الصيد؟

- نعم، أتينا للصيد، قالوا هنا توجد طيور الحجل.
- نعم، توجد، وهي كثيرة، ولكنها تكون في الشتاء.
- يا أبي! - صاح شاب يجلس تحت شجرة الصنوبر - تعال هنا، واشرب هذا معنا.
صب الشاب شرابا ملء الكأس وقدّمه له.
- لا أشرب يابني! - قالها الأب سرسان باي وابتسم - لم أشرب أبدا.
- جرّب مرة واحدة، ثم نتحدث.
أصر الشاب وقام إليه متهاديا وقدم كأسا، خذه.
- أنا لا أشرب يا بني - قال سرسان باي ودفع الكأس - قل كل ما تريد وأنا أستمع إليك، ولكنني لا أشرب.
- كفى، لا تجبر الرجل! قال واحد من الذين كانوا يضعون الرصاص في البندقية.
- إذن، سأشرب بنفسي.
شرب الشاب الكأس ونفخ، ثم قال:
- يا أبي، الصيد هو السبب، فنحن أتينا إلى هنا للاستراحة، بِعْ واحدة من أغنامك، وسنعمل منها شيئا ما هنا ثم نغادر.
أحنى سرسان باي رأسه وسكت، ثم ابتسم بحياء، وقال:
- للأسف، لا أستطيع البيع يا بني، فهذه الأغنام ليست لي، وإذا مررتم بالقرية فستجد الغنم في أي بيت، وأنا أعطيك بنفسي أيضا، ولكن هذه أمانة، وإلا أعطيتكم بكل سرور!
- هكذا تقول؟
- نعم، هكذا يا بني.

- وما رأيك، نأخذ واحدة بأنفسنا. ابتسم الشاب.
- لن تفعل هذا، قلت لك إنها أمانة يابني.
غضب الشاب وقال:
- يبدو أنك بخيل، ما هي الغنم، هل هي أفضل من الإنسان يا «أكبر»؟
- ماذا تقول؟ - ردّ عليه أحد الشباب.
- هيا، لنأخذ إحداها ونحضرها هنا، وسنخبر الرئيس بأنفسنا.
بدأ الشباب يتجهون إلى «قلعة الحجر».
- قفوا - صاح الأب سرسان باي - هل أنتم مسلمون؟ قلت لكم إنها ليست لي! وصاحب هذه الأغنام ليس هنا، لقد ضاع في الحرب، وأنا أرعاها منذ عشرين سنة... هل لديكم شيء من الإنصاف؟
توقّف الشباب، ثم رجعوا إلى الوراء واحدا واحدا.
وقال أحدهم:
- معذرة، لم نعرف ذلك.
سكت سرسان باي، وتغير وجهه، وارتعشت شفتاه.
- معذرة يا أبي!
سكت الأب سرسان باي في هذه المرة أيضا، ثم توجه إلى القلعة بخطوات هادئة.
عندما تحدث عن هذا للأخ محمد عمر، ظل يفكر، ثم قال:
- لا تغضب، سأقول لك شيئا.
- ماذا؟

- أعـــط هذه الأغنام إلى المزرعة التعاونية، وهذا أفضل، ولا تعذب نفســـك، ثم ما الفرق بـــين أن تكون الأغنام عندك أو عند المزرعة التعاونية، هل تأكلها المزرعة التعاونية؟ سترجعها عندما يعود حيدر علي.

ولم يردّ الأب سرسان باي.

ها هـــو الآن ينظر إلى الســـوق، ولا تتـــرك نصيحة صديقه هـــذه خياله، ولكنه لا يعرف ماذا يفعـــل، وعندما حل الزوال قلّ الناس في السوق، ولم يبق فيها إلا من لم يتمكن من بيع بضائعه ومـــن جاء للتجول فقط. وضاع المزاج الجيد الذي كان عند الأب سرســـان باي من الصباح، وفي هذه المرة أيضا لم يقابل شخصا يشبه حيدر علي.

«هل صحيح أنـــه مات؟ خاف من هذه الفكرة التي جاءت في بالـــه، لا، لا يمكن أن يكون الموت بهذا القدر. لقد عاد كثير ممن ضاعـــوا في الحرب، وليـــس غريبا أن يعود. ولـــو أراد أن يقيم حفلة العرس لشاركت في حفلته أيضا، ولأقمت حفلة العرس له بنفسي...»

جلس طويلا مســـتغرقا في مثل هـــذه الخواطر، حتى انتهت الســـوق وانتشـــر الجميع تقريبا، وبدأت تهب رائحـــة الأرز من المطبخ، أما الرجل المسن فظل في مكانه جالسا لا يتحرك.

- يا سرسان باي!

انتبه الأب سرســـان باي إلى نفسه والتفت. وكان الأخ محمد عمر واقفا أمامه.

- كفى الآن، اعمل ما قلت لك، وإلا ستتحف.

ولم يرد الأب سرسـان باي، وأخرج «سـوما» واحدا من ساق حذائه، ووضعه في الصحن، وقام.

- هل تغادر، لقد طبخت الأرز، كل ثم غادر.

- في المرة القادمة!

نزل الأب سرسـان باي عن السـرير واتجه إلى الباب قائلا: إلى اللقاء.

عندما خرج من الباب رجع كأنما تذكر شيئا ما.

- كيف لا تفهم أنت أيضا، يا ترى؟! أخذت منه بنفسي، وعلي أن أرجع له بنفسي وبيدي.

ولم يرد الأخ محمد عمر، ولما خرج صديقه قال:

- بلغ تحياتي لزيبي!

رفع الجواد أذنيه لما رأى صاحبه، وهز رأسـه مرة أو مرتين، واقترب من السلم. وركب الأب سرسان باي الجواد بسهولة وأخذ لجامه، وذهب الجواد بخطوات واثقة على الطريق المعروف، وكان في مشيته أمل مثل ما كان في قلب صاحبه!

المسألة الحساسة

فرهاد موسى جانوف

منذ عدة سنوات حضر أحد الممثلين الكوميديين الشهيرين إلى مكتب مدير المسرح، وبعد تبادل التحية والسؤال عن الأحوال طرح الموضوع الذي جاء من أجله، وبدأ يقول:

– لقد جئت باقتراح، والاقتراح هو تنظيم مجموعة صغيرة لدى المسرح الذي تشرف عليه، وفي هذه المجموعة نخرج أعمالا نقدية ساخرة، وننتقد قليلا بعض النواقص لبعض الأشخاص، التي تحدث أحيانا في حياتنا حتى الآن، ونضحك منها.

نظر المدير إلى الممثل طويلا، وكأنه يقول: «يا غبي، هل أتيت إليّ بهذا الاقتراح، وهل هذا اقتراح؟»، أما الممثل فجلس وتحمل هذه النظرة، وأخيرا، تحدث المدير وقال:

– حسنا، اقتراحك ليس سيئا، لكن إذا فكرنا في هذا الموضوع بعمق، فإن للمسألة وجها آخر حساسا. ومن الصحيح أن حياتنا ليست خالية من بعض النواقص لبعض الأشخاص، وهي تحدث أحيانا. لكن هل من المعقول أن نفتش عن النواقص الصغيرة، ونزعج الناس؟! إن مهمتنا هي تشجيع الناس على الأعمال العظيمة. وطبعا، إن الضحكة – خصوصا الضحكة الخفيفة غير المؤذية – شيء ضروري، لكن هل من الضروري كشف النواقص والنقد لأجل توليد الضحكة... عفوا، لإيجاد

الضحكة؟ ألا يوجد هناك سـبب آخـر إن أردت أن تضحك؟ وهل من الضروري أن تضحك على النواقص؟

- وعلى ماذا نضحك إذن؟ سأل الممثل مبتسما.

- اضحك على أي شـيء، المهم ألا تضحك على النواقص! - قال المدير وحول الحوار إلى المشاورة - نفترض مثلا أنك تخرج على خشبة المسرح وتضحك بنفسك ضحكة قوية، وتضحك من دون أن تتقطع، وسيضحك الآخرون، لأن الضحكة شيء معدٍ.

- ألا تكون ضحكة بلا معنى؟!

- لا تفكر في معنى، إننا لا نريد معنى، بل نريد ضحكة.

- هكذا، إذن؟ ويمكننا أن نفعل مثلما قلت، لكن إذا فكرنا في هذا الموضوع بعمق، فإن للمسألة وجها آخر حساسا.

- نعم؟ - رجف المدير.

- لا، ليست على درجة الارتجاف، لكن للمسألة وجها حساسا. حسنا، نفترض، أنني أخرج على خشبة المسرح، وأضحك بنفسي من دون أي سـبب، كما قلت، ومن الممكن، أنه سيضحك البعض، لأن الضحكة شـيء معدٍ، كما قلـت. لكن، ماذا إذا فكر كثير من المشـاهدين، «إنه جن»؟ وهم يفكرون في «من سمح له بالخروج إلى خشـبة المسـرح»؟ وربما يقولون إن «مديري المسـرح ليسوا أناسا ذوي مسؤولية». وأقول إنه في هذه الحال سيعود الحديث إلى النقد.

- إن أخذنا هذا الجانب من الموضوع، وفي الحقيقة، أنه أيضا سـيعود إلى النقد. وماذا، لو فعلنا هكذا؟ نتصور أنك تخرج إلى خشـبة المسـرح بكل وقار، وفي ذلك الوقت تتعثر بشيء ما وتقع

على الأرض، وسـيضحك الجميع عليك. ذات مرة رأيت بنفسي بهلوانا في السيرك، فعل هكذا وضحكت كثيرا.

- حسنا، ويمكننا أن نعمل مثلما قلت، لكن إذا فكرنا في هذا الموضوع بعمق، فإن للمسألة وجها حساسا آخر.

- نعم؟ رجف المدير من جديد.

- لا، ليست على درجة الارتجاف، لكن للمسألة وجها حساسا. حسنا، نفترض أنني وقعت على الأرض فوق خشبة المسرح، وضحك عليّ غبي أو غبيّان. لكن هناك سيكون رأي آخر عند بعض المشاهدين، وهم يفكرون «لماذا وقع على الأرض، ربما كان هناك مسمار في خشبة المسرح، وليست لديهم صيانة كافية في الوقت المطلوب، إذن، مديرو المسرح ليسوا أناسا ذوي مسؤولية»، وأقول إنه في هذه الحال سيعود الحديث إلى النقد.

- وإن أخذنا هذا الجانب من الموضوع، وهو أيضا قد يعود إلى النقد - قال المدير- إذن، نفعل هكذا؟ نتصور أنك تخرج على خشبة المسرح، تنظر إلى المشاهدين، وتقطب وجهك من دون سبب.

- هل رأيته في السيرك أيضا؟

- نعم، رأيته في السيرك.

- وهل ضحكت كثيرا؟

- نعم، ضحكت كثيرا.

- حسنا، ويمكننا أن نعمل مثلما قلت، لكن إذا فكرنا في هذا الموضوع بعمق، فهناك للمسألة وجه حساس آخر.

- نعم؟ رجف المدير مرة أخرى.

- لا، ليست على درجة الارتجاف، لكن للمسألة وجها حساسا.
حسنا، نفترض، أنني أقطب وجهي من دون أي سبب، صحيح قد يضحك البعض، أما الآخرون فيفكرون «لماذا يقطب هذا الممثل وجهه؟ وهو يخاف أن يضحك على بعض النواقص لبعض الناس مما يحدث أحيانا في حياتنا، لذلك هو يقطب وجهه»، ألا يفكرون هكذا؟ وأقول، إذن، إنه في هذه الحال سيعود الحديث إلى النقد أيضا.

- إن أخذنا هذا الجانب من الموضوع، وفي الحقيقة، إنه أيضا سيعود إلى النقد، كيف يمكن توليد... معذرة... إيجاد الضحكة؟ إنها مسألة حساسة جدا!

فجأة مال المدير إلى الأمام، وهمس في أذن الممثل وقال:

- اسمع، لا تفكر في أن هذا الشخص يكره النقد جدا، وإنني لا أفكر في نفسي، وأنت تعرف، يحضر إلى المسرح أناس مختلفون، وليس جميعهم يحبون النقد.

ومال الممثل أيضا إلى الأمام، وهمس في أذن المدير، وقال:

- إن للذين لا يحبون النقد عيبا ما، ولذلك السبب يكرهون النقد خوفا من كشف عيوبهم.

- نعم، أحسنت - فرح المدير - إذن، هل من الضروري، أن نفتش عن نواقص بسيطة في حياتنا الزاهية والمزدهرة؟

- حسنا، وماذا نفعل ببعض الأشخاص الذين لديهم بعض نواقص تحدث أحيانا في حياتنا؟ سأل الممثل.

- ولا يهمك، يا صديقي، نقوم بالنقد القوي لهؤلاء الأشخاص ذوي بعض النواقص التي تحدث في حياتنا أحيانا، عندما تكشف

نواقصهم، نعم، عندئذ، سنقوم بالنقد القوي، من دون خوف أو رحمة.

ونظر الممثل الكوميدي إلى وجه المدير، وابتسم، وخرج من المكتب، وشك المدير في قلبه، وأسرع، وخرج وراء الممثل.

- قف، ولماذا تبتسم؟ سأل المدير.

أما الممثل فابتسم ابتسامة واسعة في هذه المرة أيضا.

وقلق المدير وسأله:

- لماذا تبتسم، ويشبه وجهك وجه الرأس المخروق؟

وضحك الممثل الكوميدي ضحكة قوية.

- ولماذا تضحك عليّ؟ سأله المدير وهو يرتعش.

- يضحك الإنسان متى أراد أن يضحك، وهل يمكن خنق الضحكة؟ أجاب الممثل الكوميدي.

الوليمة

أوتكير هاشيموف

مضى أكثر من شهر على انتقال البروفيسور عابد رسوليفيتش إلى حي جديد. ذات يوم في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس دق جرس الباب فلبس البروفيسور ثوبه وفتح الباب، ورأى هناك جاره خالق تجنك واقفا:

- يا أستاذ، هل ينام الإنسان حتى الظهر؟ سأله الجار صائحا، وقال: استعد بسرعة، لنذهب!

تعود عابد رسوليفيتش أن يعمل في الليل، لذلك ينزعج من النهوض باكرا.

- إلى أين؟ سأله مترددا.

- كيف «إلى أين»، إلى الوليمة! هناك أرز بخاري! وشرح خالق تجنك ملوحا يده كأنه يقول: «ألا تعرف هذا؟»، ثم قال:

- إن نسيب شاكر وغوغ يقيم حفلة بمناسبة ختان ابن أخ له، استعد بسرعة، هناك باص جاهز ينتظرنا.

أراد البروفيسور أن يسأل من هو شاكر وغوغ؟ ومن هو نسيبه؟ لكنه خجل أن يعترض على رأي جاره، فهو جار له على كل حال، ويراه دائما، وعدا ذلك فلقبه تجنك[٢١].

وذهبا يمشيان، أحدهما طويل القامة، والآخر قصير القامة، وفي الطريق طرق خالق تجنك أبواب ستة بيوت، وأيقظ الناس،

---

(٢١) تجنك: في اللغة الأوزبكية «غاضب»، «زعلان».

وفي الحقيقة كان هناك باص ينتظرهم أمام «الشاي خانة»، وبدأ الصبح ينبلج عندما وصلوا من حي «أكتوبر» إلى حي «قويليق». وعندما خرجوا إلى الشارع بعد تناول الأرز البخاري أنارت الدنيا تماما.

– أما الطباخ فقد طبخ الأرز بشكل رائع، أحسن! مدح خالق تجنك الطباخ من صميم قلبه، شكرا له!

ثم توجه إلى البروفيسور فسأله:

– ربما أنك تذهب إلى العمل، حسنا، أريد أن أصافح يدك التي أكلت بها الأرز، وأنا سأكون في «الشاي خانة».. ما رأيك، إن وجدت أكلة شعبية، مثلا، مثل «المضغوط»؟

– لا، لا، شكرا، اعترض البروفيسور مسرعا، وهز رأسه وقال: استمتعوا بأنفسكم...

يعمل خالق تجنك حارسا في إحدى الأسواق، يداوم يوما ويستريح يومين، ويقضي وقته في راحة واطمئنان.

وصافح خالق تجنك البروفيسور وقال:

– حسنا، إذن! لعلك تأتي إلى «الشاي خانة»، نحن ممن يحملون التابوت يا أستاذ!

– طبعا، طبعا، خجل عابد رسوليفيتش، وهز رأسه ومشى في طريقه. وأوجعه رأسه طوال النهار بسبب عدم تعوده النهوض في الصباح الباكر... وفي مساء اليوم نفسه كان اجتماع المجلس العلمي، وطال الاجتماع بسبب كثرة مسائله، واستمر حتى منتصف الليل، وعاد البروفيسور إلى البيت وتناول كوبا من الشاي فقط، ثم خلد للنوم.

ولم يعرف كم استغرق نومه، فقد طرق الباب أقوى من أمس، ونظر البروفيسور في خوف إلى ساعته، وكانت الساعة الخامسة والنصف، وأسرع الزوج والزوجة إلى الباب، فوجدا خالق تجنك واقفا أمام الباب.

– يا أستاذ، هل وُلدت في سنة النوم، وتحت برج الوسادة، ما هذا؟ – قال وهو يمزح – شارك الناس، وهذا أفضل، أو تنام مثل قطة بجانب الفرن الهولندي؟

نظر البروفيسور إلى جاره مستفسرا وقال:

– هل هناك وليمة أيضا في هذا اليوم؟

– نعم! هناك حسين باي من حي يونس آباد، ولزوجته ابن اسمه نارطاي...

– أي نارطاي؟ قاطعه البروفيسور.

– كيف لا تعرف؟ هو خادم في حمام قاره طاش، أنجبت زوجته توأمين ثلاث مرات... ونكح زوجته من جديد وفق الشريعة!

وقال البروفيسور «نعم، نعم» ولو أنه لا يعرف أي شيء.

– نعم، بارك الله فيك، فرح خالق تجنك، وقال: وهذا النارطاي، ولو كان في عينه عيب، فإنه رجل يعرف عين الأمور جيدا... وهو يقيم حفلة واحدة في ثلاث مناسبات، فقد عرفت أن هناك مناسبة العيد الفضي لزواج والديه، وزواج أخت أرملة لزوجته، وكذلك حفلة ختان ابنه المتوسط. هيا، استعد بسرعة، هيا! يا إلهي أنت نائم حتى الآن؟!

لم يأكل البروفيسور أرزا في الوليمة هذا اليوم، بل أكله الأرز! وكانت في اليوم نفسه مناقشة لرسالة دكتوراه، وكان البروفيسور

محكما رئيسيا فيها، لذا قرأ الرسالة من جديد طوال اليوم، وعندما عاد إلى بيته تصفح بعض الكتب إلى وقت متأخر في الليل، ونام نحو الساعة الثانية صباحا.

لا يعرف كم من الوقت نام، فقد طُرق الباب بشدة، وفتح عابد رسوليفيتش الباب، وهو لا يستعجل في هذه المرة.

- وماذا أيضا، يا ملا خالق؟ سأله بصوت بارد.

- يا أستاذ، يا لك من إنسان نائم؟! فهل أنجبتك والدتك مع الوسادة؟ استعد بسرعة. فإن الجزار قوجقار يقيم وليمة العشرينية لزوجته المرحومة، رحمها الله، ولقد كانت امرأة جميلة، حُشرت عظمة في حلقها وماتت، وربما كان هذا تصديقا لما يقال من أن البلاء يقع بين الجفن والحاجب.

- اسمع، أنا لا أعرف من هو الجزار قوجقار! قال البروفيسور غاضبا.

- إذا كنت أنت لا تعرفه، فنحن نعرفه، ونشارك معه في الولائم منذ عشرين سنة، وقد انتقل إلى حي الشرقي - الشمالي، وعلى الرغم من ذلك جاء إلينا ودعانا إلى الوليمة. وعليك أن تشارك مع أهل الحي، استعد بسرعة، ثم هناك في أرز الجزار لحم الخيل أيضا.

في هذا اليوم وقع البروفيسور في حالة حرجة جدا أمام زملائه الذين يعملون تحت رئاسته، فقد عقد البروفيسور اجتماعا، وفي الساعة الثانية - أي في وقت الغداء - أكل قليلا من الطعام، ووضع رأسه على الطاولة، ولا يعرف كيف أخذه النوم، واستيقظ على أصوات هادئة لسعال زملائه الموجه إليه.

ونظر إلى ساعته، لقد نام أربعين دقيقة.

عاد إلى بيته وقال لزوجته مصرّا:

- غدا أنا غير موجود، لقد ذهبت في مأمورية.

وأراد أن ينام وأن يستغرق في النوم، لكن لم يحصل ذلك، فقد استيقظ على ضجة صوت خالق تجنك.

- هذا عيب، أيتها الكنة! هذا عيب! عليه أن يشارك مع أهل الحي. رأيته بنفسي، لقد كان يجلس ويعمل في غرفته في الليل، ادعيه!

ولم يستطع عابد رسوليفيتش الذي حُرم من نومه تحمل الوضع فخرج.

- نعم، ها هو! فرح خالق تجنك، أنا أرى الشارع من داخل داري، إن لم يكن هناك جدار يمنع الرؤية أيتها الكنة.

ودخلت زوجته إلى البيت، وهي غاضبة، وكأنها تقول: «لماذا جعلتني أكذب؟».

- أما الحلاق رسول فهو إنسان حسن التعامل، قال خالق تجنك وهو يهز رأسه - جاء إلينا خصيصا ليدعونا إلى وليمة العرس، رغم أنه انتقل من هنا إلى محافظة جزاخ[٢٢]، وليس لهذا الرجل المسكين ابن، وله تسع بنات، والآن تتزوج ابنته الصغيرة التي تدرس في معهد التجارة، ويقيم وليمة بمناسبة زواج ابنته الصغيرة هذه، وهو يقول: «إني حضرت حفلات، وأكلت ولائم لأهل البلاد، وعليّ أن أدعو الناس وأن أقدم الوليمة»، هيا، استعد بسرعة!

---

(٢٢) محافظة تقع على بعد ٢٠٠ كلم من طشقند.

- ألف شـكر، قال البروفيسور ووضع يده على صدره بحركة قاطعة، كفاني، وأرجو ألا تزعجني قبل أن تنهض القُبَّرَة.

وأغلق الباب بقوة.

- يا أخي، إن كنت بروفيسـورا فهذا لنفسـك! - صاح خالق تجنك - واعلـم: نحن ممن يحملون التابـوت، ولا تنس أن أهل الحي هم الذين سيحملون تابوتك إن مت!

ودخل البروفيسور إلى البيت بخطوات سريعة، وتأوه.

وفـي هذا اليوم رجع خالق تجنك من جزاخ قبيل الظهر وكان لديه يوم إجازة، ولذا ذهب إلى «الشاي خانة» مباشرة.

- إن بروفيسـوركم هذا ليس إنسانا، يقول ويلوح بيده بشدة، ... أردته أن يكون إنسـانا، أن يشـارك مع أهـل الحي، أما هو فأغلق الباب في وجهي، سـألف «الناص» بـأوراق كتابك الذي كتبته، كنت أشعر بأنه لا يعرف حسن التصرف! أقم حفلة، وقدم وليمة للناس وأهل الحي، أين أنت؟ أليسـت لك إمكانية؟ مضى أربعـون يوما إلا يومين على انتقاله إلـى حينا، ولم يعمل وليمة! وربما لا يكون له أولاد، وزوجته أصغر منه بخمس عشـرة سـنة على الأقل.

أخـذ خالق تجنك يثرثـر من دون انقطاع، أما البروفيسـور فـي هذا الوقت فقـد كان يفحص نتائج الاختـراع الجديد في المختبر... ويفكر في الفائدة التي سوف تعود على الشعب إذا ما أنجز هذا العمل.

١٩٧٩م.

الثلج الأبيض

آمان مختار

السماء غطّتها السحب ، ونزل الثلج، الثلج الأبيض اللين...

تخيط العجوز فراشا وهي تعتمد على السرير. الرجل المسن أمام النافذة، يجلس منحنيا، وعلى وجهه آثار إرهاق الشيخوخة، وفي أحضانه طفلة صغيرة ذات شـعر مجعد. تنظر الطفلة إلى الخارج وهي تضع كفيها على زجاج النافذة الباردة. يهزها الرجل المسـن مرة إلى الأمام ومرة إلى الخلـف، ويصدر صوتا أجش. وتنظـر العجوز إليهما من حـين إلى آخر، ولا تدري هل يضحك زوجها أم يسعل.

يضحـك العجوز، وعندما يضحك يختنق ويسـعل. وتشـغله الخواطر البعيدة وهو يحدق في حبات الثلج.



كانت السماء كثيرة السـحب، وفي الجو رطوبة آنذاك، وكان الثلج الأبيض اللين ينزل بكثافة...

عاد الرجل المسـن الأب نعمان خان مـن المحطة إلى البيت، وقد ظهرت آثار الفحم على أطراف معطفه وشـاربه وحاجبيه، وهو نشيط على الرغم من كبر سنه. فتح الباب ودخل الممر شبه المظلم، ومسح الثلج عن كتفيه، وخلع قبعته ونفض الثلج عنها.

لا أحد يوجد في الحجرة. زوجته في المعمل.

وضع الأب نعمان خان إبريقا نحاسـيا على الفرن الحديدي

وبدأ يشعل النار. بعد لحظة غلى الشاي. على الطاولة كأس وإبريق للشاي وسفرة ملفوفة. صنع العجوز شايا، وفتح السفرة. في السفرة قطع خبز، ونصف رغيف أسود. جمع قطع الخبز ووضعها في فمه وشرب قليلا من الشاي.

كان للعجوز ابنان، توفي أحدهما في صغره. أما الثاني فذهب إلى الحرب عندما طرّ شاربه. ها هي عدة أشهر تمرّ بلا رسالة ولا خبر منه، خلاصة الكلام: دون أي نبأ.

تذكر الأب نعمان ابنه وتأوه. سمع البوابة تفتح، وألقى نظرة إلى الفناء عبر النافذة. تمشي ميرم بنت الجار على الثلج بخطوات قصيرة. فتح الباب وأدخلت ميرم رأسها المغطى بشال صوفي وقالت:

- يا عمي، أنا جئت... عيونها مرهقة، أبيض لون وجهها، ولسبب ما ترتعش شفتاها قليلا.

- تفضلي يا ابنتي. قال العجوز. تقرأ هذه البنت الرسائل التي تصل من ابنه كل مرة، وهما يتذكران الشاب البطل. بدأ قلب العجوز يقلق عندما ظهرت البنت التي لم تأت منذ زمن: «بأي خبر جاءت، يا ترى؟» رأى وجه البنت وارتجف قلبه قليلا... لكن من يعرف حالة العجوز إلا هو؟!

- هل أنت مريضة يا ابنتي؟ إن وجهك... سألها العجوز وكأن يدا قاسية تقبض على قلبه.

- نعم، تعبت قليلا، قالت ميرم.

«إنها تكذب»، فكر العجوز وقال للبنت: خذي، خذي خبزا. أخذت ميرم قطعة خبز وبدأت تعضها.

- هــل أمورك في المحطة جيدة يا عمي؟ ســألت البنت وهي تجبر نفسها على التجاهل.

- نعــم، نعم... جيدة. قال العجوز، «هناك شــيء تخفيه هذه البنت»، جاءت فكرة مزعجة على بال العجوز.

- يقــول أبي إن عمك مثل الشــاب، مازال قويــا. وأنا أفرح عندما يقول هكذا... أرادت أن تبتســم، لكن ارتعشــت شفتاها، وهزت رأسها وظهرت قطرة دمع في عينها.

- قولي، ماذا حدث؟ همس العجوز بهدوء.

- لا شيء، يا عمي، لا شيء. إني...

- قولي! قال العجوز بصوت يشبه صوت أولاد يطلبون بإصرار شيئا ما. حاجباه الكثيفان ينزلان على عينيه، وتشتعل عيناه مثل النار...

- لا شيء.. تسلمت رسالة. بدأت البنت تتكلم، وأحست أنه لا يمكن ألا ترد على هذه العيون، ربما أنه خطأ! لم أصدق...

- إنهــا الحقيقة! صاح الأب نعمــان خان بألم باطني. وانحنى رأسه الثقيل الأشيب. بللت ميرم قطعة قماش ووضعتها على جبين العجوز، وســاعدته ليستلقي في الفراش. ويرقد العجوز مستلقيا في فراشه بجانب المدفأة وعيناه شبه مغلقتين ويهمس بشيء ما.

- حســنا، أنا ذاهبة. قالت ميرم وهي قلقة، تفكر في شــيء ما، ربما هذا خطأ، لم أصدق. كتبوا رســالة... ربما خطأ. كأنها تتكلم لنفسها.

يســكت العجوز. اتجهت ميرم إلى الباب، ووقفت عند العتبة، التفتــت إلى الخلف ونظــرت إلى العجوز، وبكــت بكاء واضحا

وهـــي تعتمد على إطار الباب. تحـــرك الأب نعمان خان بصعوبة وجلس.

– إنه خطأ! قال بهدوء. رفعت ميرم رأسها حيرى ونظرت إليه. يتحامل العجوز ويبتسم وكأن شيئا لم يحصل. ولم تشعر ميرم بالابتسامة المصطنعة على وجه العجوز. أعرف، يا ابنتي أنـــه خطأ... كنـــت مريضا أيضا، وحدث مثل هذا. ســـنرى، سيصل سريعا، وسننسى هذه الأيام يا ابنتي...

رفعت ميرم رأســـها. مســـحت دموعها بشـــالها الصوفي، ومشـــت بخطوات قصيـــرة وخرجت من الفنـــاء. وقف الأب نعمان خـــان، أخذ معطفه ولبس حذاءه واتجه إلى الشـــارع. ماذا سيفعل الآن؟! فيمن يفكر؟ وينتظر من؟ لا، لا!

الطـــرق غطاها الثلـــج الكثيف. عليها آثـــار مختلفة كبيرة وصغيـــرة، متجهة إلى اليمين وإلى اليســـار وإلـــى الأمام... آثار نـــاس يجتهدون لكي يتخلصوا مـــن آلام عظيمة تعتصر قلوبهم...

دار العجوز في الســـوق مرة. أمام المخبـــز أناس كثيرون. جرحى يســـتندون على العصي، ونســـاء وأولاد، هنا يسيطر الســـكون الثقيل أحيانا، وترتفع الضجة أحيانا. ويشـــبه وجه البائـــع النحيف بلا لون قطعة خشـــب، وهـــو يعمل من دون توقف..

يمشي ولد، معطفه ممزق وعظم وجهه خشن، من هنا إلى هنا، وينظر إلى الناس حينا، وينظر إلى البائع حينا آخر. ماذا يريد هذا الولد، يا ترى؟

أحنـــى العجوز رأســـه وابتعد عن المخبـــز. ورأى في بداية الشارع نساء اجتمعن ليبعن أشياء مختلفة، وتوجه إلى بيته.

لقي في الطريق ولدا ذا معطف ممزق، وعرفه، لقد رآه بجانب المخبز. جلس الولد تحت التلال، أغلق عينيه وارتجف جسمه من البرد، اقترب الأب نعمان خان منه وسأله:

- لماذا تجلس هنا يا بني؟

- زوج أمـــي... طردنـــي... لا يعطيني خبـــزا، ويضرب أمي. طردني... أنا أشعر بالبرد يا عمي.

ضغط على قلب الأب نعمان خان حجر أثقل مما كان فيه. أما العجوز فرمى هذه الأحجار التي كانت ثقيلة.

- تعال يا بني، لنذهب إلى بيتي.

رفعـــه الأب نعمان خان، ووضعه على كتفه على الرغم من أن الولد كان كبيرا، وذهب به إلى بيته. وأجلسه على الفراش بجانب المدفأة، وفتح سفرة وقال:

- خذ، يا بني، خذ!

ومـــدّ الولد يـــده الصغيرة الحمراء التي تجمـــدت من البرد، مدها إلى الخبز، وبدأ يعضه مســـرعا. خـــرج الأب نعمان خان إلـــى الدهليز وعاد بقبعة ابنه. خلـــع طاقية الولد البالية ورماها في الركن وألبســـه القبعة. وينظر الولد الذي غطت القبعة أذنيه بحب وحيرة، وتشـــتعل علامات الســـعادة والســـرور في عينيه البسيطتين الصافيتين. لم يستطع العجوز أن يسيطر على نفسه أمام وجه الولد السعيد. أخذه في أحضانه، وسقطت الدموع من عينيه...

مرت السنوات. كبر الولد، وتزوج. وأصبح العجوز ذا حفيد...
مرت الســـنوات وبعد هذا انتصر الناس على الآلام مرات كثيرة، ووجدوا سعادتهم وفرحتهم.

وبعد هذا نزل الثلج الأبيض اللين على صدر الأرض الحار.

الدنيا العجيبة

طاهر مليك

بدأ وجه السـماء يتغير بعد أن أسقطت نجومها مثل الدموع، وقـد اسـتمعت إلى النـاس يبثونها همومهم وشـكاواهم طوال الليل، وبقيت في السـماء نجمة وحيدة كأنها تقول: «سأرى كيف ستكون أحوال هؤلاء المساكين اليوم»! وكان بيغيت علي يحدق في هـذه النجمة، وإلى جانبه ينام ولداه، وكانـت زوجته نائمة على الجانب الآخر من الفراش، وهؤلاء سيستيقظون أيضا بعد قليل، وسـتذهب زوجته مع ابنه الصغير لحصـاد القمح، ويذهب ابنه الأكبر ليعمل في بيت وكيل المزرعة، أما هو فسيضع كيسا فارغا على كتفه ويمشـي على رجله الخشـبية ليرعى القطيع، وهكذا تظل الدار خالية حتى يخيم الظلام.

لقد أوصاه الطبيب محذرا: «لا تمش على الرجل الخشـبية»! لو عرف أنه سـيعمل راعيا عندما يعود إلى قريته لما قال ذلك... ومن يعمـل الآن مُتَكِئا على جنبه! كل الناس يعملون واقفين على أرجلهم، ولحسن الحظ فإن هناك ليلا يمكن الرقود ومد الأرجل فيه، وإلا لما عرف ظهر الإنسان فراشا، ولندمت الرِجل على أنها كانت رِجْلا!

ولم يعرف بيغيت علي بالضبط هل اسـتيقظ من نومه بسبب الألم الشديد في رجله المقطوعة، أم أنه خاف من حلمه... ولمس رجله المقطوعة من الركبة بهدوء، وتذكر حلمه: هناك جثث ثلاثة أولاد فـي نعـش، وكان كل منهم نحيفا، كانـوا جلدا على عظم،

وقــد ماتوا جميعا من الجوع، وفوق جثــث الموتى يقف رمضان، صديقه الذي كان يشــاركه رغيف الخبز في الحرب، وكان ينظر إليــه غاضبا وهــو يقول: «إنك لم تــرع أولادي، وهـــا أنا الآن آخــذهم معي»! أما بيغيت علي فيســأله: «هل... هل أنت... هل استشــهدت؟» ولم يرد رمضان، وقــام أولاده الثلاثة ووقفوا في النعش وحضنــوا أباهم، وابتعد رمضان في هــذه الحال، وأراد بيغيت علي أن يوقفه، ولكنه لا يستطيع أن يمشي.

كان هــذا حلمه، أما جثث الأولاد الثلاثة فقد رآها في الواقع عندما كان راجعا أمــس وهو يقود القطيع؛ كانت امرأتان ورجل يحملــون ثلاثة موتى على النعش إلــى المقبرة، والرجل هو قمبر الأعرج، كلفه أهل القريــة وظيفة اللحاد، قال إنه لا يعرف حفر القبور، ولكنهم أجبروه!

هــل الوقت وقت حفر القبور وغســل الموتــى وتكفينهم وفق القواعد الشــرعية؟! يكفي أن يُكفن الميت بما وُجد، ثم يُدفن في الحفــرة، المهم ألا يقع التراب على وجهــه عند دفنه، وألا تنبش الكلاب قبره وتأكل جثته!

وإذا ما استثنينا العرج، فإن الرجل السليم في القرية هو هذا القمبر، أما الرئيس فهو لا يُحسب؛ إنه ليس إنسانا بل هو رئيس! وهو أعلى من العباد، كأنه إله في هذا المكان، إلا أنه لا يُسجد له ولا يُصَلَى، وهــذا ما يفرق بينه وبين الإله، فكل ما يقوله قانون، وكلامه أمر واجب!

إن الله رحمن رحيم، يغفر لعباده الذنوب ويرحمهم، وأما هذا الرئيــس فهو لا يرحم أحدا، ولا يســامح، ولهذا يخافه كل أهل

القرية، وكل المسؤولين يخافونه، طبعا، يخافونه، وإلا لأرسلوه إلى الحرب مع الآخرين... فهل بعد هذا تستطيع أن تقول له: «يا ابن آدم» وأنت ترى أحوال الرجال في القرية، ذهب سبعة وخمسون رجلا إلى الحرب، ولم يعد إلا اثنان منهم فقط، أحدهما بلا رِجل، والثاني أعمى، ومن العيب أن تعمل النساء لحادات فيساعدن قمبر الأعرج، أو يكن غسالات للموتى، لا...

وخلاصة الكلام، أخذ قمبر الأعرج على عاتقه وظيفة لحاد وغسال موتى، وهو الآن يحمل النعش من الأمام، ويمشي ويعرج، والمرأتان تمسكان النعش من قبضتيه الجانبيتين، ومع كل خطوة يخطوها قمبر الأعرج يتمايل النعش من جانب إلى آخر، وهذا يتعب المرأتين.

وضعوا النعش على الأرض عندما رأوا بيغيت علي، وجلست المرأتان على جانبي النعش، واقترب قمبر الأعرج من بيغيت علي، وسلم عليه، وقال:

- دعونا من حصاد القمح، انظر، لقد توفي الأولاد الثلاثة في وقت واحد.

وسأل بيغيت علي:

- ولمن هؤلاء الأولاد؟

أصبح بيغيت علي صابرا متجلدا، فكثيرا ما رأى الموتى والقتلى في ساحات القتال والمعركة، ولكنه غضب - وكأن شيئا ما وقف في حلقه - لما رأى الأولاد الموتى الممددين على النعش، وقد غطوهم بأغطية بالية... لا بأس لو كان هذا في وقت الحرب، ولا بأس إن قُتلوا من قنبلة، أو ماتوا في الحصار! ولكن الآن؟...

لقد مرت سنة على انتهاء الحرب، وكيف يتحمل الإنسان موت أولاد صغار من الجوع؟ هل كان يتصور مثل هذا الوضع عندما دخل النار، وعندما رقد على وجهه على الثلج؟ إن الجوع والفقر هما من الثمرات المُرة لشجرة الحرب، إذن لم تَمُتْ هذه الشجرة بعد، وسوف يذوقون من ثمراتها كثيرا.

- أحدهم، وهو المغطى بالمنديل المرقع، ابن زيبي، زوجة ساتوالدي، أتذكره؟ لقد ذهب قبلك... كان هذا الولد المسكين ذكرى من زوجها، ولكنها لم تتمكن من المحافظة عليه! أما الثاني فهو ابن حليمة، زوجة ايشقوزي، وهي أول امرأة في القرية تسلمت رسالة تعزية، وها هي الآن تسلم ولدها الثاني للخالق.

- ولمن الآخر؟

- إنه ابن ظريفة زوجة شاديواي.

ربما ظن قمبر أن بيغيت علي لما غاب في جبهات الحرب أربع سنوات نسي الجميع، ولذلك فهو عندما يتحدث عن أحد، كان يصفه موضحا بمثل هذا الشرح!

- وأين ظريفة نفسها؟ سأل بيغيت علي مستغربا.

- حرارتها مرتفعة، وقد أغشي عليها، وهي لا تدرك ما يجري حولها، حتى أنها لم تعرف أن ولدها مات!

امتلأ فم قمبر بالريق فبصقه وبصق الناس، ثم مسح فمه بمنديل كان يضعه على رقبته، وقال:

- انصب العذاب كله على الأولاد، يا لهم من مساكين لم يروا في الدنيا إلا عذابا، ولا بأس إن كفنوهم بكفن نظيف.

– لماذا لم يقولوا هذا والأولاد جياع بهذا القدر؟
– يقولون لمن، للرئيس؟! بدلا من أن تقول شيئا للرئيس، اطلب من الخالق أن يزيد إيمانك ويقويه، فهو الذي سيعطيك ويرزقك، أما الرئيس فتعرفه! في الحقيقة، عليك أن تكون أنت الرئيس، وفي مزرعة «كومونيزم» التعاونية انتخبوا رئيسا جديدا، إنه بائيسوف، هل سمعت عنه؟ مُنح وساما واحدا، وأهل قريتنا يفكرون في هذا الموضوع، وأنت لديك وسامان، وعليك أن تكون رئيسا!
– لا تحاول إثارة الفتن النائمة، لم يمنحوني وساما لأكون رئيسا، ولا أستطيع أن أكون رئيسا، ومن الأفضل أن نسأل الرئيس أن يخصص لنا يومي عمل، نحصد فيهما القمح ونأخذه لأنفسنا لتخفيف هم الغذاء!
وهز قمبر رأسه لما سمع هذا الكلام، وقال:
– لا أعرف... أمس ضرب الرئيس المزارعة كولجهان في التلال بسوطه، وسبب ذلك أن ولدها حصل على «إكرامية» ثلاثة أيام متتالية، ويقول الغبي: «إنك تسجلين «إكراميات» الآخرين لابنك، مستغلة منصبك، لأنك مسؤولة الفرقة»! ابن هذا لا يسمع كلامنا، ولا توجد عدالة ولا مروءة عند الناس، رأى أحد الحساد أن كولجهان أصبحت غنية، فاتهمها ووشى بها عند الرئيس، أما المسكينة كولجهان فهي لم تعمل أي شيء «لإكرامية» ابنها كأنها توقعت حدوث شيء ما... وأنت تريد أن تطلب العدالة من هذا الرئيس! من الأفضل أن نذهب لتساعدنا، سيخيم الظلام بعد قليل، وسندفنهم نحن –

الأعرجَيْن – معا، لو بقيت وحدي سأدفنهم في قبر واحد، هيا بنا، ستساعدنا ونحفر لكل منهم قبرا مستقلا، ليرتاحوا في قبورهم على الأقل، هيا بنا.

سيعود القطيع ويمشي في طريق القرية، ولا خطر عليه هنا، وكل خروف يعرف بيت أصحابه.

وأعطى بيغيت علي عصاه لزيبي، ووقف وراء النعش.

مشت المرأتان صامتتين، فليس لديهما قوة للبكاء، ولا دموع في عيونهما؛ جفت الدموع في عيون النساء من كثرة ما بكين على أزواجهن وأبنائهن وإخوانهن، ومن كثرة مشاركتهن وبكائهن في عزاء الأخريات... كان صمتهما يزيد من عذاب بيغيت علي أكثر فأكثر، لو بكتا بكاء شديدا لما عذبت وفاة هؤلاء الأولاد قلب بيغيت علي... لقد رأى في حلمه الليلة ما رآه أمس في يقظته، وبدا له أن هؤلاء الأولاد هم أولاد صديقه رمضان الذي كان يعتمد عليه.



ظل بيغيت علي مستلقيا مدة طويلة وهو ينظر إلى النجمة في السماء، وكأن الألم في رجله قد خف قليلا، وجاء صوت صهيل حصان في مكان قريب، ثم سمع صوت أقدامه... من يكون هذا يا ترى؟» استند بيغيت علي على ذراعه ونظر إلى طرف الشارع، وتوقف فارس أمام بيته.

– أمازلت راقدا في الغفلة؟

«إنه الرئيس! هل خرج الثعبان من بيته؟ ولماذا يتسكع هكذا في الصباح الباكر؟»، قام بيغيت علي ووقف وهو يفكر في هذه

الخواطر، وأخذ عصا صنعها ابنه من شجرة الصفصاف، واستند عليها وذهب إلى جانب الرئيس حاجلا.

– ماذا تعني بالغفلة يا رئيس، لم ينقشع الظلام بعد.

– هل سمعت أنهم انتخبوا رئيسا جديدا لمزرعة كومونيزم؟

– سـمعت! قالها بيغيت علي مبتسما، وفكر وقال في نفسه: «هذا الذي تقصده»! أخبره الآخرون أن جنديا شارك في الحرب أصبح رئيسـا قبل أن يخبره قمبـر الأعرج، ربما وصل الحديث إلى آذان الرئيس بشكل أو آخر.

– يا أنت! أأنت الذي يريد أن يكون رئيسا؟

– هل أفسـدت هذه الفكرة عليك نومك؟ إن قلقك لا أساس له! ابق في وظيفتك! ولست جائعا كي أحلم بسوق الخبز! يكفيني أن أعيش بلقمة حلال، فلا تتعب نفسـك بهذا الكلام، ولا تعكر مزاجي! اذهب، يا ولد، ولا تتلفت في طريقك!

قال له بيغيت علي «يا ولد» عن عمد، لأن الرئيس لم يحترمه عندما خاطبه بعبارة «يا أنت!» على الرغم من أنه يكبره بأربع أو خمس سنوات، وقد أزعج هذا التصرف بيغيت علي، ولكنه سكت مـن باب الأدب، أما الآن، عندما حـان وقته، فقد ذكره أنه أكبر منه سـنا، وانبسط بعد أن قال له هذا الكلام! ومن الطبيعي أن هذا التكبر لم يعجـب الرئيس، فقد أراد أن يضغط على بيغيت علي وإن علم أنه ليست لديه رغبة في إشغال وظيفة الرئيس.

– وعلـى الجائع الذي لا يحلم بسـوق الخبـز ألا يتدخل في شؤون الخبازين! وإن استطعت فخذ المزرعة وكن رئيسا، واسمح للناس بأن يحصدوا القمح سـتة أيـام لمصلحتهم، ويوما واحدا

للدولة! وليســعد الناس في عهــد حاتمنا الطائي (بيغيت علي)؛ لأنهم ظُلموا في عهد الظالم (سفرقول)... فكن رئيسا!

– لا تتحدث بالإيماء يا ولد، إن كنت رئيســا فرئاســتك لك، ولا أخاف منك، وإن أردت أن تأخذ مني شيئا فخذ هذه العصا، أمــا إذا أردت أن تتحدث مثــل الناس فترجلْ! وإن كنت تحب أن تفوح رائحتك الكريهة وأنت على الحصان فاذهب! ولكن اســمع يا ولد، عليك أن تتصرف بحكمة وتعقل، وإلا فســيلعنك الشعب، وإن حصــد الناس يومين مــن القمح لاحتياجاتهــم فلن ينقص المحصول.

– يا أخي! هذا القمح ليس لي، إنه للدولة! ونحن نقدم القمح للرفيق ستالين! هل سمعتم، للرفيق س – تا – ليــن! أم تعترضون على تقديم القمح للرفيق ستالين؟

– اســمع يا ولد، لا تقلب الكلام! لقد قدمنا للرفيق ســتالين أكثــر من القمح، لقد قدمنا له حياتنا! واليوم أولاد الذين قدموا حياتهم في حاجــة إلى قطعة خبز، وعلى الأقل، تجب المحافظة علــى هــؤلاء الأيتام، وأنت لا تســتطيع أن تخفي نفســك خلف الرفيق ســتالين، فانظر أولا لمصلحة أبناء قريتك، فهم شــعبك وســينفعونك غدا! هل تريد أن تحصد القمح من هذه الأراضي غدا أيضا؟ فمن يغرس، من يزرع، من يطحن؟ هل النساء اللواتي تعبن تعبا ليس بعده تعــب، أو الأولاد النحيفون الذين لا يجدون ما يأكلونه؟

– لســانك طويل وكلامــك كثير! هل أطلقــت الرصاص في الحرب أم تعلمت الكلام؟ إن رأسك مملوء بالأفكار المتطرفة!

– يــا رئيس! اذهب فــي طريقك، وإلا فســأريك النجوم في وضح النهار.

– ياه، هل تهددني أيضا؟ اهــدأ وهدئ أعصابك، ولا تفتخر بمشــاركتك في الحرب! إذا كنت قد شاركت في الحرب، فنحن لم نجلس وندلك أطرافنا، قدمنا لكم طعاما، وقدمنا لكم لباسا، وماذا تستطيع أن تفعل إذا كنت جائعا وعاريا؟ إن قُتلت برصاصة فإنك تموت مرة واحدة، أما نحن فخلال أربع ســنوات كنا نموت في كل يوم مرات! ونحن لدينا لســان أيضا، ونســتطيع أن نقول ما نشاء.

– أعــرف أن لديك لســانا حادا، ولكنك لا تحســب نفســك في صفوف الذين ماتوا ولا مــرة! ونحن نعرف من أطعمنا ومن ألبسنا، وهم لا يفتخرون بركوبهم على الخيل ولبسهم حذاء طويلا ومعطفــا جلديا، أما الذين يموتون في كل يوم فهم الذين يعملون فــي المزارع، يستنشــقون الغبار، ويبصقون الــدم، وأنت تعذبهم بالسوط، وإن كنت تزعم أنك مِتَ يوما فالحقيقة أنك لا تحب أن تــرى هذا اليوم، أنت الآن وجدت فتوى لنفســك، واختفيت أربع سنوات بعيدا عن ساحة الحرب، أنت لست رجلا يا هذا!

هكــذا تكلم بيغيــت علي بصوت عــال، وكان مغضبا فضرب ظهر الحصان بعصاه فانكســرت، وقفــز الحصان خائفا، وفقد بيغيت علي توازنه وسقط على الأرض، أما الرئيس فكاد يسقط عن ظهر حصانه، ولكنه أمســك لجامه بالقوة، وصاح فيه مرتين فهدأ، وحث الرئيس حصانه في اتجاه بيغيت علي وهو يقول:

– ستعلم من الذي سيرى النجوم نهارا.

قامت آينساء زوجة بيغيت علي من فراشها وقد استيقظت على ضجة الرجلين، وكانت تنصت إلى كلامهما خائفة، وهي تنظر إليهما مترقبة، وصرخت قائلة:

- ياه، إنك تقتل زوجي!

ونهض الولدان على هذه الصيحة.

- أبي، يا أبي!

صاح الابن الصغير وهو لايزال شبه نائم، أما الابن الأكبر فأسرع إليهما، واقترب منهما بقفزتين، ووقف في طريق الحصان.

- لا تخافي؛ إن زوجك ليس رجلا يموت بسهولة! قولي لزوجك... لولا صلة القرابة لكنتم كلكم الآن في القبر... تبا لمن علمك الكلام.

وشد الرئيس لجام الحصان وابتعد.

«بالمناسبة، هذا الخناس قريب لزوجتي!» تمتم بيغيت علي وهو ينهض معتمدا على ابنه.

وسألت زوجته كأنها لا تعرف شيئا، ولم تسمع ما دار من حديث:

- ماذا حدث، ولماذا جاء؟

- جاء ليأمر بالذهاب إلى حصاد القمح مبكرا.

هذا ما قاله بيغيت علي وقد اختصر الحديث، أما آينساء فقالت: «يا إلهي»، وبدأت ترتب الفراش على الدكة، ثم حلبت البقرة، وشرب كل منهم كأسا من الحليب، وقسموا رغيفا من خبز الشعير إلى أربعة أقسام وأكلوه، كان هذا هو كل

فطورهم، وأخذت آينســـاء أصغر قطعة، فنظــر إليها زوجها عابسا، وسألها:

- هل هناك رغيف آخر؟
- نعم.
- زوري (ظريفة)، سمعت أنها مريضة.
- لقد زرتها أمس مساء.
- زوريها اليوم أيضا.
- طيب.

عضت آينســـاء على شفتيها، وفســـرت غضب زوجها بسبب مشاجرته مع الرئيس، وقد كانت محقة من جهتها، لأن المشاجرة حدثت قبــل قليل، أما من الجهة الأخرى فقــد كان بيغيت علي يتعذب من تـــردده في إخبار زوجته بما كان يفكر فيه وهو ينظر إلى نجمة الصبح! إن الكلام أمر ســـهل، ولكن إن رُفضت الفكرة من منطق الزوجة فســـيغضب، وقد يقول شيئا يزعجها... وهذا الذي يقلقه... وأخيرا قال:

- كم عندك من الدقيق؟ هل يكفي لعجنة واحدة؟
- ربما يكفي.
- يجب علي السفر إلى نظرآباد.
- طيب... ولكنك كنت تريد السفر في الخريف.

وأســـقطت موافقة آينساء حملا ثقيلا كان كالجبل على كتف بيغيت علي، فتأوه آهة عميقة وقال:

- رأيته في نومي مرارا.
- من الذي رأيته؟ صديقك؟

- رأيته واقفا على جثث أولاده.
- إذا رأيتهم ميتين في حلمك فستراهم أحياء إن شاء الله.
- لا تفسري حلمي، وافعلي ما قلت لك.
- طيب.

انتهى الحديث هنا، ولبس بيغيت علي رجله الخشبية، ووضع ربع رغيف قدمته زوجته في كيس ابنه وقال:

- اليوم ستعمل في الطين، وإن كنت جائعا فسيلسعك الطين.

ذهبت آينساء مع ابنها الصغير إلى بيت ظريفة لزيارتها، وستذهب من هناك إلى التلال، أما ابنها الأكبر فسيذهب إلى بيت وكيل المزرعة، وخرج بيغيت علي وهو يسحب رجله الخشبية، وبدأ يخرج الأبقار والأغنام والماعز التي استقبلته بأصواتها وكأنها كانت تنتظره.

مر بيغيت علي بجانب بيت زيبي ولم ينظر إليه، ووقف أمام الجارة التي خرجت ترافق بقرة نحيفة، ورد على تحيتها وهو ينظر إلى الأرض، ثم قال لها بصوت منخفض:

- اليوم دورك.

نظرت المرأة إلى بيت زيبي كأنها لم تفهم، ثم دار في خيالها شيء ما، فهزت رأسها في الحال وقالت:

- نعم، نعم، صحيح، اليوم دوري!
- إذا كنت لا تستطيعين فلا تتعبي نفسك.
- لا، لا تقل هذا، تعال.

ابتعد وهو مطأطئ الرأس صامتا.

كانت هذه عادته؛ لا يصيح أبدا «لقمة حلال!»، وكان إذا أعطوه شيئا يأخذه، وإن لم يعطوه سكت ومضى، فأحيانا يعود إلى بيته وكيسه فارغ، وأحيانا أخرى يعود بصاع من الدقيق، أو الإقط، أو المشـمش المجفف... ويكرمه أهل كل بيت بطعام يوم، ومهمته أن يذكر من يكون عليه الدور، وكان يتعذب في نفسه كلما ذكر أحدا بدوره، وكأنه يطلب إحسانا أو صدقة، استحيا في بداية الأمر فلم يذكر، وظل جائعا لفترة، كان بإمكانه أن يتحمل الجوع، ولكن أهل القرية لاموه قائلين: «ألا تحب خبزنا وحساءنا»؟ ومنذ ذلك الوقـت أخذ يذكر كل من جاء دوره، صحيح أنه كان يتعذب كمن يطلب صدقة، ولكن ماذا يفعل؟!



لم يستعجل القطيعُ في المشي، بدا كأنه يشعر بالألم في رجله، حتـى الجداء كانت لا تتراكـض، وكأن أصحابها أطعموها طوال الليل، وهي من الشـبع لا تريد المشـي! وعند طرف القرية قابل بيغيـت علي شـابا يركب حصانا نحيفا، وقـد أردف خلفه فتاة، فوقف معهما، كان الشاب يلبس رداء مقلما، لم يكن جديدا، ولكنه ليس قديما أيضا، وعلى كل حال لم يكن فيه أي رقعة، وكان على الفتـاة فسـتان متواضع، ولم يعرفهما بيغيت علـي، ولكن الرداء المقلم والفستان كانا يعرفان بهما وبمقصدهما؛ فالشاب عريس، والفتاة عروس، والرداء والفسـتان لـم يكونا لهما، بل هما لإدارة المزرعة، وهمـا موجودان في مكتب الرئيـس، يُعْطيهما للعريس والعـروس يوما واحدا فقط! والآن العريس والعروس ذاهبان إلى إدارة مجلس القرية لتسـجيل عقد قرانهما! إذن، في هذه الليلة

سيكون في القرية عرس، وستقام هناك حفلة الشاي، وسيقدمون للضيوف - وهم خمسة أو عشرة أشخاص - كل ما هو موجود لديهم من المشمش المجفف، وإن كان لديهم شيء من الدقيق عجنوه وخبزوه، أو يقدمون الحساء إن وجد، وإلا فلا أحد يلومك إن لم تقدم في حفلتك رغيفا أو حساء!

رد بيغيت علي عليهما السلام، وسألهما، وإن كان يعرف قصد العريس والعروس وإلى أين يذهبان:

- مرحبا، إلى أين أنتما ذاهبان؟

- ذاهبان لنقول «نعم، قبلت!».

كانت نغمة السعادة ظاهرة في صوت العريس، فهو سعيد وإن لبس رداء خاصا بالمزرعة، وكيف لا يكون سعيدا؟ هل الرداء مهم؟ لا، إنما الفتاة التي تركب خلفه على الحصان هي المهمة بالنسبة إليه، أما الفستان فقد فُصل عمدا بمقاس كبير لكي لا يبدو ضيقا على واحدة من الفتيات، وكان كبيرا على قدها الأهيف، وماذا يعني إذا لبست هؤلاء الفتيات فساتين لا تناسبهن أو تليق بهن؟ هل سيمتنع الشباب عن النظر إليهن؟

بعد أن قال الشاب «نذهب لنقول: نعم، قبلت!»، خجلت الفتاة، وطأطأت رأسها كأنما انكشف سرها أمام الناس!

- أتمنى لكما السعادة، يا أبا شباب!

- آمين، ليستجب الله دعاءك يا خال!

- عيشوا طويلا، ولتكن ملابس أولادكما جميلة مثلها!

- يا خالي، كن مطمئنا، سيأتي الله بالفرج، وسيلبس أولادنا ملابس لهم، إن شاء الله.

ندم بيغيت علي على كلامه الذي قاله بحسن نية.

- يـا أخي، أنا لم أقصد غير هذا، ولعلي أخطأت في التعبير ففهمتني على غير ما أريد، فإن هذه الأيام ليست أبدية، وإن شاء الله سيأتي زمن الأيام السعيدة، فليرزق الله بلادنا رزقا فيه بركة ورفاهية عندما يرزقكما أولادا.

- يـا خالي نحـن أيضا نعيش على أمل أن نـرى تلك الأيام، وليحقق الله كلامكم!

قال الشاب وهو يضغط على خصر الحصان ببطء.

سـرح بيغيت علي بفكره وهو ينظر إلى الحصان الذي يركب عليـه العريس والعروس مبتعدا، ثم قال لنفسـه: «يجب علي ألا أشـكو من قدري، وعلى كل حال، في يوم زفافي لبست ملابسي التـي كانت لي، وكان لدي شـيء مـن الأكل والشـرب لأقدمه للضيـوف، أما هذه الأيام الصعبة فسـتمضي وتنتهي بإذن الله، وإن شاء الله ستأتي أيام يكون أولادي فيها سعداء...».

وقاد بيغيت علي القطيع إلى المراعي نفسها التي كان فيها في الأسبوع الماضي، وهي على شاطئ القناة، حيث العشب لم يجف بعد، وفي الأراضي الرطبة يوجد عشـب وأعلاف، وتذكر بيغيت علي مراعي روسيا، عندما رأى الأعشاب التي ماتت من دون أن تتحمل حرارة السـرطان... ليت تلك المراعي كانت هنا، فتشبع الأغنام والأبقار وتسمن وتعطي الحليب!

كان بيغيـت علـي يفكر فـي صديقه رمضان طـوال النهار، ولـم يبرح طيفـه خياله حتى حان وقت عـودة القطيع، وبدا أنه سيستعد للسفر إلى نظرآباد بعد أن يرجع إلى القرية، ولكن كان

هناك أمران يجعلانه يتردد: أولهما أنه لا يريد الذهاب إلى بيت صديقه من دون أن يحمل له هدية، وإن كان رمضان قد استشهد فكيف يدخل علــى أولاده ولا يقدم لهم ما يأكلونه؟ وكيف يعيش أولاده؟ يريد أن يذهب إليهم ولو بشــيء يســير مــن الأكل! أما الأمــر الآخر فإنه لا يعرف هل مــات صديقه أم أنه مازال حيا، لقد أنقذه بيغيت علي من نار جهنم بنفســه، وأراد أن يســتريح قليلا، فانفجرت بجانبهما قنبلــة، ويذكر أن رجله قد احترقت، ولا يذكر شــيئا آخر... ربما لم يعد رمضان، ماذا سيقول له أهل بيته؟ ربما سيسألون: «إذا انفجرت القنبلة بجواركما فكيف مات رمضان وأنت مازلت حيا؟» وإن لم يقولوا هذا صراحة فســيفهم من تعابير وجوههم المعنى نفسه.

وأراد أن يكتب رســالة إلى نظرآبــاد، ولكنه لم يجرؤ أن يبدأ رسالته بقوله: «يا أخي، هل أنت مازلت حيا؟»

أمــا الآن ربما حان وقته، جمعوا قليلا من الدقيق لأجل أولاد رمضــان، وتدبر في خاطــره كيف يقابل صديقــه إن كان حيا، وكيف يقابل أولاده إن كان صديقه قُتل، وجهز نفسه روحيا لهذا اللقاء.

وشم رائحة طيبة عندما مر القطيع بجانب الطاحونة، ويكفيه أنهــا تدغدغ معدته الجائعة، وفكر بيغيت علي في نفســه: «لقد طحنوا قمحا، ومن الذي يخبز اليوم، من يا ترى؟»

وأراد أن يبتعــد بالقطيع من هذا المكان، ولكنه ســمع صوت ولد:

- يا خال بيغيت علي، قف!

التفت بيغيت علي إلى الخلف، ورأى ولدا يسرع إليه قافزا من جهة الطاحونة وهو يمسك رغيفا.

- خذ، قالوا إنه لك!

- وممن هذا الرغيف؟

- من الخال قمبر.

- وهل أكلت أنت؟

- نعم، أكلنا كلنا!

قالهــا الولد وهو ينظر إلــى الرغيف الذي كان في يد بيغيت علي، فأخذ الرغيف، وقطع منه قطعة وأعطاها للولد، وقال:

- خذها، وإن كنت شبعان، وإلا.

وابتســم بيغيت علــي، وقرص الولد من أنفــه مداعبا، وتابع قائلا:

- ... وإلا ستصيبني بالعين، خذ.

وأخــذ الولد قطعة الخبز «مضطــرا»، إنه لأمر غير جيد إذا وقعت العين على رجل طيب بسبب قطعة الخبز هذه.

- قــل للخال قمبر ليأت إلي في بيتنا، لدي شــغل له، قل له هذا.

وقال الولد «حســنا»، ورجع مــن حيث جاء، وبدأ يأكل خبزته بعد أن ابتعد عنه بضع أقدام.



تشــقق كعب ابن بيغيت علي الصغير، وكان يتأوه من الألم في الليل، وقرر بيغيت علي أن يضع زيتا على كعب ابنه، ولهذا السبب دعــا قمبر الأعرج لكي يمســكه من كتفيه، وإلا فإنه ســيركض

ويقفز من شدة العذاب والألم، عندما يضعون الزيت المغلي على كعبه المتشـــقق مثل الأرض المتصحـــرة، ولا يتحمل الولد العذاب الذي يعرفه بيغيت علي جيدا، فقد سبق له أن صاح! «عدم وجود الرجل أفضل من أن تكون له رجل مثلها»، ثم شفي ولبس حذاء، ومشى برجليه وحذائه في أماكن كثيرة، وأخيرا، عاد من الحرب تاركا فيها إحدى رجليه! وأحيانا كان يقول: «ليت المعجزة حدثت ونمت رجلي من جديد، وســأكون راضيا بتشقق الكعبين ووضع الزيـــت عليهمـــا!»، وعندما يضعون الزيت علـــى كعب ابنه يذكر عذابـــه الذي عاناه، وفي الوقت نفســـه يعترف بأن هذا العذاب مؤقت، فستمر الأيام، وتلبس هذه الأرجل أحذية جميلة، وتمشي فـــي مدن كبيرة، وهو واثق بذلـــك، ولكن ما يخاف منه فقط هو أن ينسى ابنه هذا العذاب عندما يصل إلى الأيام السعيدة، ففي بعض الأحيان يصل الإنســـان إلى الأيام الســـعيدة فينسى كل ما عانـــاه من صعوبات، ولكن لا بد من عدم نســـيان الأيام الصعبة لأجل تقدير الأيام الحســـنة، يريد بيغيت علي لابنه أن يكبر وهو يتذكر الأيام الصعبة العصيبة!

وجاء قمبر الأعرج بعد المغرب حاملا بيده رغيفين، وقال كأنه لم ير بيغيت على عندما عاد إلى القرية بالقطيع، ولم يرسل إليه رغيفا:

- اليوم قمت بطحن القمح!

وبعد أن شربوا شايا مصنوعا من أوراق شجر التفاح، أوقدوا الشـــعلة، ووضعوا الزيت، ثم وضعوا فيه البصل، ووضعوا البصل المقلي بالزيـــت على كعب الابن الصغير، ولقد سُـــمعت صيحته

في ســبعة أحياء، ولم تكن الصيحة بالشيء الجديد في القرية، ولذلك لم يهتم بها أحد.

وفي الصباح أشــعلوا التنور، وخبزوا الخبز، وانتشرت رائحة الأرغفة الطازجة، وقد عرف الجيران كلهم أن بيغيت علي يستعد للسفر، وعندما تعلم زوجته شيئا فسيعرفه أهل القرية جميعا!

ومع انتشار رائحة الخبز انتشر الحديث:

- بارك الله فيه، في هذه الظروف يريد أن يزور أولاد صديقه الذي استشهد في الحرب.

- إن كان يريد مساعدة أحد، ففي قريتنا أيتام كثيرون، فلماذا يعطي الخبز للآخرين؟

لم يعلــم بيغيت علي بهذه الأحاديــث، كان يفكر في لحظات اللقاء مع صديقه رمضان أو مع أولاده.

وعند سفره سببت له آينساء ألما في قلبه حيث قالت:

- لو بعت نصف الخبز لاشتريت أحذية لأبنائك.

وقال بيغيت علي في نفسه: «يا لها من امرأة قليلة العقل! أنا أفكر في أمر، وهي تفكر في أمر آخر، الإنســان يمكن أن يعيش بــلا حذاء، فهل يمكن أن يعيش بلا خبز؟ ولن يبقى الأولاد حفاة طول العمر، كلهم شــباب قــادرون، وأنا موجود، لقد قلت لك إن أولاد رمضان صغار، كان أكبرهم في السادسة من عمره، إذن هو الآن في الســابعة أو الثامنة، أنت لا تفكرين في ذلك، والصحيح أنــك أم وتفكرين فــي أولادك فقط، لو بقِيتُ أنــا هناك ورجع رمضان لجاء يسأل عن أولادي منذ زمن، طبعا، مثل هذه الأمور لا تهمك...» قال بيغيت علي هذا الكلام في خياله عند الوداع.

وركب قطارا مشى طوال الليل، وكانت المحطة التي يجب عليه النزول فيها محطـــة صغيرة، يتوقف القطـــار فيها ثلاث دقائق فقط، وأسرع في النزول من القطار ونجح بصعوبة، وتفرق ثلاثة أو أربعة ركاب نزلوا من القطار بسرعة، وبقي بيغيت علي وحده، وكان يتســـاءل في نفسه: «لماذا يستعجل الناس هكذا، حتى أنني لم أتمكن من ســـؤال أحدهم كيف يمكن الذهاب إلى «نظرآباد»! ثم سمع صوتا يقول:

- يا أخي، كأنك تفكر في شيء ما؟

نظر بيغيت علي إلى حيث جـــاء الصوت، ورأى رجلا عجوزا ينتظر منه الرد.

- يجب علي أن أذهب إلى نظرآباد ولا أعرف كيف أذهب؟

هز العجوز رأسه وهو ينظر إلى الرجل الخشبية وقال:

- يصعـــب عليك الذهـــاب إلى نظرآباد في هـــذه الحال، إن الطريق طويلة. انتظر قليلا، فقد تأتي إحدى العربات.

أخذ كيسه الذي كان يحمله على كتفه واتجه إلى مقعد بجانب المبنى وكأنه يقول: «ماذا أستطيع أن أفعل؟»

سأله الرجل العجوز:

- هل لديك قريب في نظرآباد؟

- صديقي.

- صديقـــك، ومن هو؟ ربما أعرفه، يأتي كثيرون من نظرآباد إلى هنا.

- هل تعرف شـــخصا اســـمه «رمضان»؟ في منتصف السنة الثالثة والأربعين، كان قد ذهب إلى الحرب.

- رمضان؟... هل هو صاحب الدكان؟
- كان يعمل محاسبا في المزرعة التعاونية قبل الحرب، ولا أعرف هل عاد من الحرب أم لا.
- على بعد أربعة كيلومترات من هنا توجد مدينة صغيرة اسمها قيزيلكوبريك، ويعمل في دكان الخبز فيها رجل من نظرآباد، قالوا إن اسمه رمضان.
- هل رأيته؟ هو قصير القامة، وأنفه مفلطح.
لم ير العجوز رمضان، ولذلك لم يعطه جوابا شافيا، ولكنه وضح له الطريق إلى قيزيلكوبريك، ولقد تحمل عذابا لم يعان مثله كلب ضال من المشي في طريق حجري غير ممهد، ولكنه كان سعيدا لأنه عرف أن صديقه لايزال حيا، كان واثقا بأن الرجل الذي يعمل في دكان الخبز هو صديقه رمضان، وإن لم يقل الرجل المسن في المحطة شيئا واضحا، إن قلبه يقول: «إنه صديقك رمضان! إنه حي! إنك أنقذته من مخالب الموت، وهو ينتظرك، أسرع! وما هذه الطريق؟ لقد مشيت في طرق أسوأ منها بكثير، امش، هيا، امش! أنت رجل! وتتحمل ألم رجلك، وكم من آلام أشد منها عانيتها، امش، وأسرع...»
وتصور بيغيت علي لحظات لقائه مع صديقه، وكان يتصورها بألف مشهد عندما كان في بيته، والآن جاء مشهد جديد بدلا من كل ذلك:
تصور أن صديقه سيجري إليه، ويفتح صدره له وهو يقول:
- «يا صديقي العزيز، أين كنت كل هذا الوقت؟ لقد انتظرتك طويلا! ويحضنه بقوة، ثم يقول: يا صديقي العزيز، هل تركت

رجلك هناك؟ كنت أعرف أنك حي، وكان قلبي يشعر بذلك، تمنيت أن يكون لي جناحان لأطير إليك، يا صديقي، لا تغضب على صديقك ناكر المعروف!

وسيقول بيغيت علي:

- «لا تقل هذا الكلام... لقد كنت أرقب هذا الزمان، أنت لم تستشهد، وهذا أمر كبير، وماذا إذا تأخر لقاؤنا إلى يوم القيامة؟ يجب علينا التواصل من الآن، لماذا حفظ الله حياتنا؟ لأنه يجب علينا تربية أولادنا، ويجب علينا رؤية سعادتهم، ولذلك حفظ الله حياتنا، كم من الناس ذهبوا وحلمهم لم يتحقق...».

حتى هذه الخواطر اللذيذة لم تجعله ينسى عذاب الطريق، تؤلمه رجله، وبيغيت علي بصعوبة يضع قدمه على الأرض، وبدا له كيسه ثقيلا، وقال في نفسه: «أتوب إليك يا رب، هل يكون الخبز ثقيلا هكذا؟ قال لي إن المسافة نحو أربعة كيلومترات، وأظن أنني مشيت أكثر من ذلك، ولكن لا أثر لتلك المدينة الصغيرة؟»

لما وصل إلى شجرة وحيدة في الطريق وضع كيسه أرضا، وأراد مواصلة المشي من دون استراحة من جهة، ومن جهة أخرى كانت رجله تؤلمه، كأنها تقول: «سأعذبك، إذا ما توقفت عن المشي، وستندم على اليوم الذي ولدتك فيه أمك!» وجلس تحت الشجرة ومد رجليه وفك رجله الخشبية، وهبت الرياح كأنها كانت تنتظر ذلك، وارتاح قليلا، وارتاحت رجله المقطوعة، وبعد دقائق لبس رجله الخشبية، ونهض واقفا.

لم يكن البحث عن دكان الخبز أمرا صعبا، كان هناك مبنى متواضع ، وقد وقف عنده نحو عشرين شخصا في طابور،

واقترب بيغيت علي مــن دكان الخبز.. ورأى رمضان! ولكنه لم يقابلــه وجها لوجه، ففي هذه اللحظــة كان رمضان يتحدث مع أحد الواقفين بصوت مرتفع جدا، ورأى بيغيت علي امرأة عجوزا تقــف مقابل رمضـــان، كانت نحيفة ضعيفة، وقــد برزت عظام وجنتيها، وســقط شالها على كتفها، كانت ترجوه وهي تمد يديها المرتعشتين اللتين تمسك بهما أوراقا، وتقول:

- إن بقيــت جائعة فلا بــأس، أنا أتحمل، ولكــن أولاد ابني الشــهيد جائعون، ولم يذوقوا شــيئا، الله يبارك فيك، ويجعلك ترى أولادك سعداء.

ولم تكمل العجوز كلامها، فقد نظر رمضان إليها وصاح بها:

- قلت لــك، لا! هل أقطع لك من حق جدتي؟ من يريد خبزا عليه أن يستيقظ مبكرا!

- الله يبارك فيك، أنا واقفة هنا طوال الليل.

- كفى، كفى! ذبحتني!

ورفع شباك النافذة قليلا وسحب دعامة تسنده، فكاد الشباك يسقط على رأس العجوز لولا أن بعض الواقفين دفعها جانبا.

وظلت العجوز تنظر إلى النافذة، آملة أن تفتح ويقول صاحب الــدكان: «تعالي، يا أمي، هذا بعــض الخبز لك»! وبدأ الذين لم يكــن لهم نصيب في الحصول علــى الخبز بعد أن فقدوا الأمل، يشكو أحدهم حظه، ويلعن آخر صاحب الدكان، ونظرت العجوز طويــلا إلى الأوراق التي تعطيها الحق في الحصول على الخبز، ثم وضعتها في جيبها، وابتعدت عن الدكان قليلا، ومشـــت بضع أقدام، ثم التفتت إلى الدكان آملة أن يحدث شـــيء ما، وتزلزلت

الأرض تحـــت أقدام العجوز في نظر بيغيت علي، ماذا ســـتقول هذه العجوز التي أنهكها ألم فراق ابنها عندما تأتي إلى أحفادها الذين يبكون طالبين قطعة خبز؟ بأي حجر تضرب رأســـها هذه الأم؟

ونسي بيغيت علي لماذا جاء إلى هنا، ونظر قليلا إلى العجوز، ثم مشى سريعا ولحقها.

- قفي يا أمي!

فوجئت العجوز بصوت غير متوقع، فسألته خائفة:

- هل تناديني أنا؟

أشـــار بيغيت علي إشـــارة «نعم»، وأخرج رغيفين من كيســـه، وقدمهما إلى العجوز، وقال:

- خذي هذا الخبز، خذيه!

وازدادت حيرة العجوز، وقالت:

- أنا؟ آخذه؟

- خذي!

- ليس معي نقود كافية لشـــرائه، وليس لدي شـــيء لأقايض به!

- هذا بلا مقابل!

- بلا مقابل؟

بدا أن بيغيت علي سيغضب من تردد العجوز وعدم تصديقها ما ترى، وكيف يشرح لها فعله، وهل عليه أن يقول لها: لا تحسبي كل شـــيء بالنقود، في هذه الدنيا يوجد شـــيء اســـمه إنسانية، وتوجد ديانة، وإنصاف، وضمير... وإذا انعدمت هذه كلها فهناك

مفهوم «الأوزبكية»؟ سيحتاج ساعتين ليشرح لها مسألة رغيفين، ثم قال بيغيت علي بلهجة الأمر:

- خذي، وإلا تراجعت عن رأيي.

أخذت العجوز الخبز وهي لا تعرف إن كانت في حلم أم في الواقع؛ «هل هذا صحيح، هل لايزال في هذه الدنيا مثل هذا الإنسان؟ لا، هذا ليس إنسانا، بل إنه من الأولياء، نزل من السماء عندما سمع أناتي وآهاتي، لا، لا... إذا نزل الأولياء من السماء كلما سمعوا أنات وآهات المساكين فما أكثر الأولياء في الأرض! بلى، إنه إنسان، إنسان طيب»!

- طيب، أنا آخذه، ولكن... أرجوك... انتظرني هنا، إذا أخذته بلا مقابل سيكون صدقة، وأنا لست سائلة، فهل تنتظرني هنا؟

كظم بيغيت علي غيظه وعض على شفتيه لكي لا يصرخ: «كن محسنا، واشرح إحسانك، لماذا تحسن إلى الناس؟» وقال لها وهو غير راض:

- طيب، سأكون في هذا الدكان.

ومشت العجوز وقد ازدادت ثقتها بنفسها.

رجع بيغيت علي إلى الدكان، وطرق شباك النافذة، فسمع صوتا:

- لا يوجد خبز! انتهى!

وطرق بيغيت علي الشباك مرة أخرى.

- أريد أن أستريح، هل عندكم شيء من الإنصاف؟

- يا رمضان!

- نعم، أنا رمضان! ولكن لا يوجد خبز، انتهى!

- يا رجل! انظر إلي!

غضب بيغيت علي، لم يكن يتوقع لقاء مثل هذا أبدا، ولو قابل عرافا ما فقال له إنه سيقابل صديقه بهذا الشكل لكان جاهزا ليقطع لسانه، ماذا سيفعل؟ لن يحدث كل ما تتوقعه وما تريد!

وبعد قليل فُتح الشباك بهدوء.

- من هناك؟

- أنا بيغيت علي!

- بيغيت علي، يا إلهي! حقا؟ هل أنت بنفسك؟

أخرج رمضان رأسه من النافذة ونظر إليه، ثم أغلقها، وبعد قليل، فُتح الباب الجانبي للدكان، وخرج منه رمضان، وعانق بيغيت علي الذي كان لايزال غاضبا، كان يتصور أنه سيعانق صديقه هكذا عندما كان يفكر فيه، ولكنه لم يستمتع بهذه المعانقة!

- يا صديقي! يا صديقي العزيز! أي رياح طيبة جاءت بك إلى هنا؟ ياه، ما هذا؟ أين رجلك؟ هل تركتها في الحرب؟ هذا أمر مؤسف، هذا أمر مؤسف جدا، تفضل، ادخل، ادخل قليلا ثم سنذهب إلى بيتي.

وقاده رمضان إلى داخل الدكان وهو لا يتوقف عن الكلام.

- نحصل على رزقنا هنا، أهلي: أولادي وزوجتي في نظرآباد، وهنا أيضا تزوجت من امرأة أخرى، لقد عرضوا علي وظيفة «الرئيس» في المزرعة في نظرآباد، هل أنا مجنون لأكون رئيسا في مثل هذا الوقت؟ في مستودعات المزرعة تمشي الفئران مستندة على العصا، وأشكر أصدقائي الذين وظفوني هنا...

طيــب، ربما كنت جائعــا؟ الآن، الآن، يا صديقي، ولكن ما حدث برجلك هو أمر مؤسف!

وفتح رمضان صندوقا وضعــه تحت النافذة بعيدا عن عيون الآخريــن، ونظر بيغيت علي جيدا: كان في الصندوق عشـــرة أو خمســـة عشـــر رغيفا، لو وزعها لكفت نصف الذيـــن عادوا إلى بيوتهــم بلا خبز ولا أمل، وهم الذين انتظــروا هنا طوال الليل، وأخذ رغيفا واحدا منها وقطعه بالســكين، وفتش في كيس كان بجانب الصنــدوق، فأخرج منه قطعة لحـــم وأربع بيضات، ولم يشـــعر بيغيت علي من أين أخذ قارورة وكؤوسا، وكان ينظر إلى الصنـــدوق، وكأن عيون الذين وقفــوا للحصول على الخبز كانت تنظر إليه.

وأحـــس رمضان نظرتـــه أيضا، وقال في نفســـه: «ينظر إلى الخبز فقط، إذن هو جائع، يا مسكين! ربما جاء لأجله، ربما بعد قليل ســـيذكرني بأنه أنقذني، ســـأعطيه رغيفين، وأتخلص منه، والآن رغيفان هما الحياة»!

– هيـــا، يا صديقي، سنشـــرب بمناســـبة لقائنـــا، طيب، أين تعمل؟

– أعمل راعيا في القرية.

– هذا شـــغل ليس جيدا، يا صديقي، ماذا تريد أن تفعل؟ هل تريد وظيفة جيدة هنا...؟

– املأ الكأس!

كان بيغيـــت علي في هذه اللحظة كإنســـان ســـعى إلى القمة فوقع في المستنقع.

- املأ الكأس تماما.

وشـــرب الكأس دفعة واحدة، ولم يمد يده لا للخبز، ولا للحم ولا للبيض.

وصب رمضان كأسا لنفسه.

- بصحتـــك، يا صديقي، أنا ســـعيد بمجيئـــك، ذكّرني عند عودتك، سأعطيك خبزا لأولادك.

وانغرزت الكلمات في حنجرة بيغيت علي مثل الخنجر.

- أعطني إياها.

- إنك عطشان جدا!

ويرفع بيغيت علي الكأس بيده رغم ضحكة رمضان القبيحة، ويشرب وهو يلوم زوجته في نفسه: «لماذا لم تقولي: «لا تذهب!»، ولم تصري على رأيك؟ إذا قال زوجك إنه ســـيذهب إلى مكـــان ما كيف توافقين وتسكتين»؟

تبعثر خياله من طرقات على الشباك.

- من هناك؟ لا يوجد خبز!

وجاء صوت مكتئب:

- أبحث عن رجل.

- من هو الرجل؟

- إنه... إنه برجل واحدة.

- هل هو أنت؟ جئت الآن وتبحث النســـاء عنك! إنك خـطير يا صديقي، أنت خطير!

فهـــم بيغيت علـــى أن العجوز عادت، وقام مـــن مكانه، وأخذ كيســـه وخرج، وخرج رمضان وراءه، وكانـــت العجوز واقفة وهي

تحتضن حذاء من الجلد.

- الله يبارك فيك، خذ هذا، والبسه في أيام سعيدة بإذن الله!

وقال رمضان في نفسه: «يبدو أن صديقي يقوم بالمضاربة، والبيع والشراء»، وتقدم من العجوز وأخذ الحذاء بيده «إنه جديد تقريبا، استعملوه مرة أو مرتين...» وسألها:

- كم ثمنه، أيتها العجوز؟

- لن أبيعه! أحضرته لهذا الرجل، أعطاني خبزا.

- خبز؟ هل هذا الرجل أعطاك خبزا؟

كان رمضان مستغربا وهو يسأل العجوز، ثم نظر إلى بيغيت علي وقال:

- أأنت أعطيتها خبزا؟

وأحس بيغيت علي بسخونة تعبر جسمه، كان من الممكن أن يشتم رمضان، وأن يكثر عليه من كلمات اللوم، أو يضربه! «كله بلا فائدة، إنه ليس الإنسان الذي كنت أفكر فيه، ولا نفع من كلام أو ضرب»! ومنعه هذا التفكير من أي تصرف.

وأخذ بيغيت علي الحذاء من يد رمضان وأعاده إلى العجوز.

- لا يناسب الحذاء الجلدي الرجل الخشبية، لم يكن هناك داع لكي تحضريه يا أمي، هيا لنذهب.

رافقها بيغيت علي بعد قوله هذا، وبعد أن مشى معها بضع أقدام، سمع صوت رمضان:

- هل ستعود؟ هل أنتظرك؟

ولم يلتفت إليه، كأنه لم يسمع كلامه، ونظر رمضان إليه قليلا، وقال في نفسه: «هل هذا الرجل عاقل أم مجنون؟ ماذا

يستفيد من علاقته بهذه العجوز؟» وغضب ودخل الدكان.

لحقت العجوز التـــي تحتضن الحذاء بيغيت علي، وهو يفكر: «ربما كان هذا الحذاء لابنها، يا لهذه الدنيا العجيبة! وكيف يمكن تبديل الخبز بالذاكرة...».

– يـــا أمي، لا تخجلـــي، ولا تقولي إنك حصلـــت على خبـــز بـــلا مقابل، وإن لم يكن هناك إحراج، اســـمحي لي أن أبيت ليلة في بيتكم، لقد تعبت كثيرا من المشـــي! ولا أستطيع الوصول إلى المحطة في حالتي هذه.

– الله يبارك فيك، بإمكانك أن تبيت ليس ليلة واحدة بل ألف ليلة، وظروفنا تسمح بذلك!

عندمـــا وصـــلا إلى البيت صنعت العجوز شـــايا مـــن التفاح المجفف، وقدمت له كأسا، وسألته قائلة:

– ذلك الرجل... هل تعرفه؟

ارتبك بيغيت علي من ســـؤال لم يكن يتوقعه، ولم يســـتطع أن يرد عليها في الحال، وأخيرا أجاب بأسف شديد:

– لا، جئت إلى هنا أبحث عن صديق، وظننت أنه هذا الرجل، بل علمت... أنه مات في الحرب، ولم أستطع أن أنقذه.

ولم تسأل العجوز أي سؤال آخر.

ومـــع حلول المســـاء خرجت العجوز إلـــى دكان الخبز لتقف فـــي الدور من أجل الحصول على الخبز، وفي اليوم التالي بعد الشـــروق عادت إلى البيت حاملة بيدها رغيفين وهي سعيدة، وصنعت شـــايا وانتظرت حتى يخرج بيغيـــت على من الغرفة، وبعـــد أن مر وقت طويـــل ولم يخرج، طرقت البـــاب، ولم يرد

أحد، ونظرت إلى الداخل، ولم يكن الضيف هناك، أما كيســه فــكان بجانب المخدة، وظنــت العجوز أن الضيــف «خرج إلى مــكان مــا»، وانتظرته، ولم يعد الضيف لا فــي الظهر ولا في المساء، ولم تجرؤ العجوز على فتح الكيس، وبعد ثلاثة أيام قال حفيدهــا الصغير إن في الكيس خبزا، ووقفت العجوز متحيرة في مكانها!



عند مدخل القرية قابله رجلان، كلاهما يلبس ملابس جيدة، وكانا يتحركان بهيئة رياضية، وسأله أصغرهما قائلا:

- هل أنت بيغيت علي سلطان علييف؟
- نعم، أنا.
- أين كنت؟ ننتظرك منذ يومين.
- كنت أبحث عن صديق.
- هيا لتذهب معنا.
- إلى أين؟
- إلى الإدارة؟
- علي أن أخبر أهل بيتي.
- أهلك يعرفون، هيا لنذهب.

«ربمــا جاء هذان الرجلان من أمــانــة المحـافظة ؟ ربما كان كلام النــاس صحــيـحا؟ ربـما يعيــنونني رئيسا؟ لا، لن أرضــى، لا يمكن إدارة المزرعة برجل واحدة، إن الدنيا عجيبة، ولا يسألون عنك...».



... أعلـــن الرئيـــس للنـــاس أنه مـــن الممكن حصـــاد القمح لاحتياجاتهم خلال يومين.

بعد ثلاثة أشـــهر أنجبت آينساء ولدا، وسـمته «ذكرى» (في الأوزبكيـــة: «يادكار»)، نصحها الناس بهذا الاسـم وقد سـمعت كلامهم!

وبعد سـنة كاملة جاء بيغيت علي وهـو يطرق الأرض برجله الخشـبية، كان يحمل على صدره وسـاما، وقالت زوجته آينساء في نفسـها: «إذن، كلام الناس ليـس صحيحا، وإلا فكيف يُمنح المحبوس في السـجن وساما؟» غضب بيغيت علي عندما علم أن اسم ولده الصغير «ذكرى»، ثم قال:

- لو لم أكتب رسـالة إلى قائدي الذي كنت معه في الحرب، لبقي «ذكرى» مني فعلا، وبالمناسـبة لقد قابلت قائدي، وحصلت على وسـام عن المعركة الأخيرة، كانوا يظنون أنني قتلت، حقا... ما أعجب هذه الدنيا!

- سم ابنك بنفسك اسما آخر.

- لا، إنه يذكرنا بأيامنا هذه، وليكن ذكرى.

- وبعد مرور ستة أشهر جاءت رسالة إلى بيغيت علي، وكانت هذه الرسالة من رمضان:

«يا صديقي العزيز! أدعوك وأناديك يا صديقي العزيز! اشتقت كثيرا إلى صديقي الذي أنقذ حياتي، وأنقذني من مخالب الموت، أذكرك كثيرا، ليتني كنت أملك جناحين لأطير إليك، ولأحتضنك، ولكـن ليس لدي القـدرة؛ أجنحتي مقطوعة، أنا الآن مسـجون وأتعذب بسـبب بضعة آلاف سـوم، يا صديقي العزيز، كل أملي

فيك، اكتب إلى الإدارات العليا، وقل لهم عن خدمتي في الحرب، اكتب إلى قائدنا في الحرب، واطلب توسطه، أنت أنقذتني من الموت مرة، فساعدني في الخروج من هنا أيضا، لكي لا يعيش أولادي أيتاما ...».

قرأ بيغيت علي الرسالة، وغرق في التفكير، وقال في نفسه: «إنها الدنيا العجيبة»، ثم أخذ ورقة وقلما.

الجد والحفيد

طاغي مراد

ينهض الحفيد ذو الأعوام الثلاثة قبل الجميع من فراشه... يخرج إلى السقيفة وهو يلبس حذاء أحمر وسروالا وقميصا أخضر... إن الذين يجلسون حول المائدة لا ينتبهون إليه، ويظل واقفا في الدهليز قليلا.

من ينظر إلى هذا الولد من الأمام ويرى أذنيه الكبيرتين - وكأنهما موضوعتان مؤقتا - يشبهه لخاله، والذي يرى عينيه السوداوين وأنفه السمين، وجبينه الواسع الأحدب الزاهي الذي لم يعرف غما، يشبهه لأبيه.

ينزل الحفيد على السلم بهدوء، وينظر وراءه، ثم يذهب بخطوات صغيرة إلى درّاجة نارية تقف بالقرب من باب الفناء، ويقف بجانبها. ويذكر أنه ركب مع أبيه على هذا المقعد الجميل، إن هذه الدراجة النارية أخرجت صوتا عاليا وتحركت بسرعة، وحضن أباه من الخوف وأغلق عينيه. ها هو اليوم أيضا يريد أن يركب هذه الدراجة النارية، ويمسك بيده المقعد الخلفي، ويشير بهذا إلى أنه يريد أن يركب. وبعد قليل يأتي أبوه ويسأله:

- إلى أين تذهب؟
- أنا أريد الذهاب أيضا.
- إلى أين؟

- إلى العمل.

- نعم، أمس سأل مديرنا عنك في اجتماع المعلمين، وقال: لماذا لا يأتي إلى العمل؟، قال أبوه وهو يمزح.

لم يفهم الحفيد ما قاله أبوه، حتى إنه يسمع بعض الكلمات أول مرة، ولكنه فهم أن هناك شخصا ما - ربما خالته أو عمته طلبت أن يأتي، وسيذهب، إن شاء الله، سيذهب.

وحينئذ يدعس أبوه على شيء ما، وتخرج الدراجة النارية صوتا، ويرتجف الحفيد ويرمش بأهدابه. ويقطب وجهه، كأنه يقول: «إذا لم تأخذني معك فسأبكي»، ولا ينتبه أبوه ويغادر، وتخرج الدراجة النارية دخانا يبقى فيه الحفيد، وها هو يريد أن يرقد على الأرض ويبكي، أما جده.. فهو شديد، ولا يسمح له بأن يرقد على التراب، وأن يبكي حتى يرتاح، ويمسك بيده ويدخل به إلى الداخل. ومن بين الناس الذين يعرفهم كان يحب جده ولو أنه كان شديدا. ومنذ الآن سيحب جده أكثر من ذي قبل، لأنه الآن أخذ شوكولاتة من الدولاب وأعطاه إياها.

ويريد الحفيد شيئا ما، وذات يوم ذهب جده معه إلى مكان ما، هناك بيوت عالية وناس كثيرون، وهم جالسون في الشوارع ويعرضون التفاح والخيار للجميع، واشترى جده آنذاك ماء لذيذا، ويذكره الحفيد حتى الآن ويلعق شفتيه. والآن يريد أن يقول له لنذهب، ولكنه لا يستطيع، لأنه لا يعرف أين كان، ويجلس على ركبة جده ويزعجه. ويقول له جده:

- اهدأ، اهدأ، انظر هناك، انظر هناك، يا ...، انظر إلى الأولاد، ويشير إلى التلفزيون الموضوع في الركن.

لقد عرف الحفيد منذ قليل، أن هذا الصندوق الكبير المصنوع نصفه من الزجاج يسمى التلفزيون، ولكنه حتى الآن لا يستطيع أن ينطق اسمه. ويضحك الجد فجأة، وهو يشاهد شيئا ممتعا في التلفزيون، ويشاركه الحفيد ويضحك معه وهو لا يفهم ما الأمر، ويشاهد العرض ويستغرب، كيف يستوعب هذا الصندوق الصغير كثيرا من الناس؟

- يا جدي، أين هؤلاء الناس؟
- داخل التلفزيون، يا بني.
- هل في داخله بيوت؟
- نعم، يا بني، نعم، كل شيء في داخله.
- هل لديهم شوكولاتة أيضا؟

إن الحفيد الصغير يظنّ أن أفضل الأشياء المهمة والضرورية للناس هي الشوكولاتة، ولذلك فهو يقارن كل شيء في البداية مع الشوكولاتة. ويبقى سؤال الحفيد بلا رد، ويطفئ الجد التلفزيون بعد أن انتهى العرض، ويخرج إلى الفناء. ويجلس الحفيد منحنيا على الجدار بيديه، وينظر قليلا إلى التلفزيون، وهو يضع إصبعه في فمه، ويحني رأسه إلى اليسار قليلا، ثم يقترب من التلفزيون وينظر من خلفه إلى الداخل - لا شيء، ويضع أذنه إلى جانب التلفزيون، ويستمع إليه - لا شيء. ولا يرى هؤلاء الناس، قبل قليل هم كانوا داخل التلفزيون... أين ذهبوا؟

ويستغرب وينظر داخل البيت، ويرى سيارته الصغيرة الواقفة بجانب المدفأة، ويقترب منها، ويأخذ لعبة «عروسة»

لأخته ويسـحبها من رجلها ويركبها على سيارته، ثم يسحبها بحبـل طويل مربوط بها ويخرج إلـى الفناء، وينظر إلى جده الذي يعمل شـيئا ما في الركـن. إنه يصنع إطـارا للنافذة، وأمامه الأدوات اللازمة للنجارة وأخشـاب مختلفة الأحجام، وهو يرسم أحيانا على الخشب بقلم رصاص صغير، ثم يضعه على أذنه. ويرى حفيده هذا ويضحك، ويبحث عن قلم ليفعل الشـيء نفسه ولكنه لا يجده، ثم يسـحب سيارته ويتجه إلى وسط الأشجار.

ويراقب الجد حفيده بعينيه، ويستمر في عمله. مرّ شهران تقريبـا منذ تقاعد الجد، وكرّمتـه الحكومة، وكان يفكّر قبل أن يتقاعـد: «متى أتقاعد، وأرتاح؟» وها هو حلمه قد تحقق، لكنه لا يجد الآن مكانا يضع فيه نفسه، ولا يعرف ماذا يفعل، والإنسان الذي تعود على العمل لا يستطيع أن يستلقي دائما. إنـه يراقـب الفناء ويصلـح كل ما يراه ضروريـا للتصليح - الأماكن التالفة في الجدار، والنوافذ والأبواب المعطلة، ويقوم بتقليم أغصان العنب، وباختصـار، لا يرتاح إلا إذا أصلح كل شيء يحتاج إلى التصليح في الفناء. «إسماعيل هذا ... أتوب إلى الله، اشتغلت في الحكومة أربعين سنة، وتعاملت مع آلاف من الناس، ولكني خلال شهرين لا أستطيع أن أتعايش مع هذا الولد الصغير!..».

اليوم هو اليوم الثاني الذي يصنع فيه الجد بابا لقن الدجاج. يقيس الخشـب بكفه، فينسى، ويقيسه مرة أخرى، وفي هذه المرة يحدده بالقلم، ويأخذ المنشـار لينشـره... «ليس مفيدا

أنني تقاعدت، فعندما كنت أعمل، كان يسألني كل يوم عشرة أشـــخاص على الأقل، أما الآن فلا شأن لأي أحد بي». يفكر الجد في أشـــياء كثيرة أخرى... ويتذكر أن حفيده ذهب إلى وسط الأشـــجار، فينظر إليه، ويطمئن إلى سلامته، ويستمر في عمله، ويشـــفق الجد على حفيده: «إنه صعب عليه، وليس هناك أولاد يلعبون معه، وأهل البيت يتركونني ويتركونه، فهل يريدون أن يقولوا: العبا أنتما الاثنان!... لا...».

ويشعر الحفيد السمين بالملل من اللعب، فيسحب سيارته، وينظـــر إلى قـــنّ الدجاج، ويرى دجاجة قابعـــة هناك، فيرفع رجله اليسرى ويركل الأرض، ليطرد الدجاجة، ولكنها تبقى في مكانها ولا تتحرك، ويفكر الحفيد في نفسه: «الدجاجات كلها تلعب في الفناء، فلماذا هذه الدجاجة تجلس وحدها؟..».

وأراد أن يقطع يد اللعبة «العروس»، ويرميها على الدجاجة، ولكنـــه لا يتمكن من ذلك، فيأخذ حجـــرا صغيرا من الأرض ويلقيه عليها، وتصيح الدجاجة وتخرج من قنها وتهرب، ويرى الحفيد بيضة في المكان الذي كانت فيه الدجاجة، ويمد يده، ولا تصل، فيدخل بيت الدجاج زاحفا على يديه وركبتيه، ويضع البيضة في سيارته ويسحبها، ويذهب إلى جده، ويقول له:

- يا جدي، باضت الدجاجة بيضة، ها هي!
- جيد.
- وبيضتها دافئة.

ويذهب الجـــد والحفيد تحت العنب، وكل يمســـك الآخر بيديه. فينســـى الحفيد الصغير إلـــى العنب المعلق في الكرم،

ويريد أن يقطعه بنفســـه ويأكله، ويمد يديـــه إلى العنب مثل جده، ولكنه بعيد، بعيد جدا.

ينظر الجد إلى الحفيد، ويتذكر طفولته فجأة... ويشـــعر بأنه طرأ في قلبه شـــيء... شـــيء ما لحفيده... ويظل ناظرا إلى جبين حفيده الواسع ووجهه الصافي.

رمضان

آيْدِنْ حاجييفا

يجيب رمضان - ابن أختي - من يسـأله عن اسـمه بأنه «رمزان ملاّ»(*).

عندما يحل المساء تبدأ أمي في التفكير بقلق: «ماذا سوف يعمل رمضان هذا المساء؟» رمضان في الثالثة من عمره، يبكي كثيرا، وينام نهارا، ويشبع من النوم، وفي الليل يبكي ولا ينام، وتتعب أمي المسكينة وهي تحمل دائما هذا الولد الكبير.

أحيانا، يقول: «اذهبي معي إلى بيت أُسطى بابا، ليعطيني اللوز!» وتحمله أمي المسكينة إليه.

وفي اليوم التالي يقول إنه يريد الذهاب إلى «إسلام بيه»، و«أريد أن آكل الشمام المجفف» و«أريد أن آكل الحلوى».

وعادة ما يكثر ملاّ رمضان سياحاته في ليالي الصيف.

ذات يوم وجدت أختي شريفة طريقة لتخوفه، ودخلت في الليل إلى غرفة الفرن وخرجت من هناك لابسة «الرداء الأبيض»، وخاف ملاّ رمضان وارتعش وسكت.

وسمع ملاّ رمضان همسات أمه وجدته، ومع حلول المساء أخذ عصا كبيرة ووقف أمام الفرن، وأما أختي شريفة فلم تستطع أن تقترب من الفرن وبيدها «الرداء الأبيض»، وملاّ

(*) في اللغة الأوزبكية تنطق الكلمة المقتبسة من العربية التي تحتوي حرف «الضاد» بحرف «الزاي» وذلك نتيجة عدم وجود صوت «الضاد» في الأوزبكية ويلفظها الطفل بالزاي بدل الضاد - المترجم.

رمضان «مسـلح»، وأمي تنادي: «يا أيها الرداء الأبيض، تعال هنا»، أما «الرداء الأبيض» فلا يستطيع أن يقترب من الفرن، ولا يلبس «رداءها»، ولا يخرج من الفرن.

والحـارس لا يتـرك موقفه، ولا يخرج «الـرداء الأبيض»، وتقول أمي: «ربما ذهب الرداء الأبيض» لزيارة خالته.

وانتصر «الملاّ الباكي» على «الرداء الأبيض»، وفي منتصف الليـل أصر على الذهاب إلى بيت خالـه نظام، وحملت أمي هذا الولد الكبير وذهبت معـه إلى الخال، وملأ الخال نظام قبعة «الملاّ» بالزبيب.

وفي مسـاء اليوم التالي بدأت السـياحة إلى بيت «كيواني بيبي»، وفي بيت كيواني بيبي كان يوجد دائما فطائر، وأعطته «بيبي» منها، وملأت منديل «الملاّ» بالسكر.

وفي الطريق عند مدخل مسـتودع القطن أسـقط «الملاّ» منديله، وبعثر السكر على التراب، وبكى وطلب منها أن تجمع السكر من التراب.

وتمتمت أمي بكلمات غير مفهومة وهي لا تعرف ماذا تفعل.

وحينئذ ظهر شـيء كبير أبيض، وبدأ يقترب منهما، خاف «الملا رمضان»، ولكنـه لعق ترابا مرة أو مرتين، ثم بدأ يهرب إلى جدته، وهو يقول:

- يا جدتي، عاد «الرداء الأبيض» من بيت خالته.

بعد هـذا انتهت سـياحات «المـلاّ رمضـان» ومغامراته الليلية.

وتقول أمي إنه كان جنّا، والله أعلم!

وكانت لـ «الملاّ رمضان» أفعال كثيرة. في صندوق الملابس الجديــدة كانت أمي تحفــظ حلوى وشــوكولاتة مربوطة في المنديل، إنها زينة السفرة إذا جاء الضيوف.

ذات يــوم فتحت أمي الصنــدوق ورأت المنديل فارغا، ولم تجد الحلوى والشكولاتة!

واستغربت أمي، وفكرت: «من فتح غطاء الصندوق الثقيل؟» ثم ابتسمت، لأنها وجدت أن هناك رزة غير موجودة. وقد أكل «الملاّ زمزان» كل الحلوى والشوكولاتة.

ولم تقل أمي شيئا، ووضعت على المائدة في غرفة الضيوف زبيبا ومشمشا مجففا وفواكه أخرى.

وفجأة ســمعت أصوات البكاء، وكان «رمضان» يبكي وقد استلقى في الممر تحت السقيفة الكبيرة، كان يبكي ويقول:

- حلواي، حلواي.

كان الولد قد أخذ قطعة كبيرة من مكعبات السكر وخبأها في ســرواله، وعندما دخل دورة المياه ســقطت! وهذا سبب البكاء مما جعل الجميع يضحكون!

وجاء «الجد الملاّ رجب» بحلوى كثيرة، وأعطاه.

وكبر «رمضان» وأصبح شــابّا يستطيع أن يكسب مكاسب جيدة.

وكان زوج أختي يقول له دائما:

- يا محب الحلوى! سأزوجك بنت بقاء حلواجي!..

ولم يتــزوج «رمضان» بنــت بقاء حلواجي، بــل تزوج بنت الراعي «عرب»، واســمها «حرســندآي»، عيناهــا جميلتان،

وشعرها الكثيف يغطي كتفيها.

ومـــن يـــرَ داره يغبطه. ومائدتـــه مليئة دائما بالشـــكولاتة والحلـــوى. وإذا ذهب لزيارة أصدقائـــه فإنه يأخذ معه دائما كثيرا من الحلوى. والأولاد يحيطون به ويقولون:

- يا «عم رمزان» أعطنا حلوى!

وفي جيب «العم رمضان» دائما توجد الحلوى!

الصف

خورشيد دوست محمد

استيقظ العجوز رئيم قبل الصبح، ولبس ملابسه على مهل وخرج إلى الشارع. وفي مثل هذه الأيام إذا نام غافلا، أو استيقظ ولكنه تأخر في الخروج ينادونه خلافا لهدوء الصبح:

- للـ..وليـ ...مـ...ـة!..

ويسمع هذا في أذنه كأنهم يقولون «صفّـ...ـا!»

وفي الآونة الأخيرة أصبح العجوز رئيم يمشي مثل الطفل الذي بدأ يتعلم المشي، وكان يحس أن الدنيا تنتهي مثل ما بدأها بالمشي الحذر، وكان يستمع إلى صوت قدمه كأنها تعبر عن شعورها بشيء ما، وهو يمشي كل يوم أو كل يومين مسافة من باب بيته إلى عمودين للإنارة يجتمع عندهما الجيران. وأحيانا يشبّه هذه المسافة بقياس العمر ومكانه في الصف بالختم الموضوع على هذا القياس.

عندما يجتمع الجيران ينظر العجوز رئيم إلى أطرافه واحدا واحدا، ثم يبدأ يترأس المسير، ويمشي الصف ممتدا بخط معوج مثل تجعيدة على جبين العجوز.

يقوده العجوز، ويمسك يديه خلف ظهره لكي تكونا قوة في خصره. قبل أوقات قليلة كان الأب غلام يمشي أمامه، كان ضخما وذا صدر عريض، ولا يترك دخان «بيلومور» من فمه، ونادرا ما يشارك في الحديث وهو يمسك سيجارته بأسنانه، وكان يمشي ساكتا كأنه غاضب ممن حوله.

ولم يرقــد الأب غلام مريضا في عمره ولا مــرة واحدة، ذهبوا قبل يوم إلى حفلة عرس في الشارع المجاور، ولم يشك من شيء ما. وبالعكس، شكا العجوز رئيم وقال:

- «يا غلام، أنا لا أســتطيع الذهاب إلى مســافة بعيدة، وإن لم أخرج من البيت، فتَرَأس الجيران، واذهبوا بأنفســكم». ابتسم الأب غلام قليلا، ثم قال:

- «من عشــر سنين لا تســتطيع الذهاب، أليس كذلك؟» وأجابه العجــوز رئيم بصوت حزين: «لقد تحيرت في أمري، وإن كان هناك نصيب لــك فلن ينقطــع...» انحدر الطريق عند منعطف الشــارع المجاور، وقال العجوز رئيم: «لا أســتطيع المشي في مكان مثل هذا، أكاد أقع». وأمســكه الأب غلام من يده وقــال مازحا: «اطمئن، أنا وراءك، وسأمسكك من معطفك بنفسي».

تذكر العجوز رئيم هذا الحديث، وانقبض قلبه، شعر بنفسه كأنه يمشــي في الظلام وحيدا، أما الأب غلام الذي يمسكه من معطفه فليس حاضرا، وفي اليوم التالي بعد ما تحدث معه مازحا... انقطع نصيبه من الدنيــا. وباغت الفراق غير المتوقــع العجوز رئيم، رحل الأب غلام وخالف ترتيبا عادلا في الصف.

ويشــارك العجوز رئيم منذ نحو خمسين سنة في الولائم مع أهل البلاد. ويذكر يوم أجلسه أبوه، رحمه الله، أمامه، وقال:

- «يا بنيّ، شارك مع أهل الحي، فأنا أكون سليما يوما، ومريضا يومين، وأنت رجل، وستخرج من بيتنا تلبية للدعوة»، يذكر كلام أبيه جيدا، حينئــذ فرح من كل قلبه. أما اليوم فــإذا مازحه أحد وقال: «أنت مازلت شابا» فإنه يقول «لا ..»، ولكنه يفرح من قلبه.

في أول مرة شارك في الوليمة سلّم على جميع الجيران، كبارهم وصغارهم، ثم انضم إليهم، أي مشى في آخر الصف مكتوف الأيدي، واستمر هكذا خلال سنة تقريبا. وعندما بدأ يشارك ابن الجار الذي يسكن بعد ثلاثة بيوت، تقدم رئيم إلى المكان الثاني من الأخير، وشعر بنفسه آنذاك كأنه كبُر. ومرّت السنوات، ومعها ازداد عدد الذين يمشون وراءه، وإن لم يكن مكانه في وسط الصف ولكنه كان قريبا منه. وهو وإن كان الغرور يخالف طبيعته، كان يفرح من صميم قلبه بازدياد عدد الشباب المشاركين في الولائم، وازدياد عدد الذين يتنازلون له عن الطريق، ربما كان يفكر في «أن الاحترام للإنسان يبدو ضروريا».

يوم بدأ رئيم يشارك في ولائم حفلات العرس والتعازي توفي الجد عارف، وصارت قيادة الصف للجد مَحْكَم، الذي عاش حياة طويلة، وبلغ عمره تقريبا مائة سنة، أما الصف فطال ولم يقصر، وفجأة سلّم الجد محكم، ثم الخال حسين أمانتهما لله، وقال الكبار آنذاك «إن الجد مَحْكَم سحب وراءه الخال حسين». ثم، آه، قبل والده كان الجد رزّاق - الذي كان يمشي ويطرق برجله الخشبية - قد ترأس الصف، وبعده البستاني ميرجليل، وكان ابنه الصغير يطعمه في الولائم، لأنه فقد يديه كلتيهما في الحرب... وبعد العجوز وهاب كانت «رئاسة» الصف لأبيه... أما الآن... فينظر العجوز رئيم في الجيران الذين يمشون وراءه وهم يتحدثون، واحدا واحدا... الطويل، ومتوسط القامة، والقصير، وذو الفخامة، وكثير الكلام، وسيئ الوجه... لا يشبه أحد الآخر... لا فرق لذلك في الصف، ويتبع الكل العادات العادلة في الحياة

بغض النظر عن نسـبه وقدرته على الاكتساب، ويأخذ كل منهم مكانــه في الصف وفق ســنّه. ويتقدم هذا «المــكان» إلى الأمام باســتمرار، من الخلف إلى الوسط، ومن الوسط إلى الأمام، ثم ... يُترك الصف. وليس هنــاك طريق إلى الخلف، وليس هناك أحد يســتطيع أن يؤخر وأن يعيد هذا «التقدم»، ولا تستطيع أي قوة أن تفعل ذلك.

ويشــبّه العجوز رئيم آخر الصف ببدايــة الحياة، وبداية الصف بنهاية العمر، أما الصف فيقارنه بالحياة نفسها.

وجاءت فكرة غريبة في بال رئيم حين تقدم «مكانه» إلى وســط الصــف. نظر إلى الجيران... يبدو أن بعضهــم يجامل بعضا ولكن توجد عداوة خفيــة بينهم، وهناك بعض الناس يحاولون أن يأخذوا مكانا في الصف قبل شــخصين أو ثلاثة، أو على الأقل قبل شخص أكبــر منهم ســناّ، وأمثالهم أحيانا يتجاهلــون، وأحيانا يتعمدون أن يمشــوا قبل ناس أكبر منهم ســناّ. وبيت العرس وبيت العزاء مكان مزدحم، وهناك ناس يعرفون بعضهم أو لا يعرفون، وهناك أصدقاء وأعــداء. والحضور في آخر الصف في نظرهم يعتبر بالنســبة إلى أمثالهم عيبا وتحقيرا.

وكان بعضهم لا يتبع العادات غير المكتوبة لإقامة الصف، ويأخذ مكانــا له قبل رئيم، ولكنه لم يقل شــيئا، ولم يبد تأففه. ورغم ذلك لم يترك حســن التعامل ولم يُحرم مــن الاحترام. هيهات، راح عهد كان فيــه «الأخ رئيم»، أما الآن فقد أصبح «العجوز رئيم». وفي هذه اللحظــة جاءت في بال العجــوز رئيم فكرة: «يا ليتــه كان في آخر الصف ولو موســما واحدا!..» وقــال لنفســه: «ومــاذا تــريد أيـضا،

يا رئيم؟ أنت رجل مسن محترم في هذا الشارع، وهل يتركك جيرانك في الخلف وهم يحترمونك؟...».

اختلطت خواطـــر العجوز رئيم، وتذكر كلام الأب غلام حين كان يشكو له من شيء بســيط أو مرض خفيف، فيقول: «أي رجل أنت، يـــا رئيم، ما دمت موجودا فـــي الدنيا فتمتع بحياتك! وعندما ينتهي عمرنا ويأتي الأجل فيقول هيئ نفســـك، فســـنرحل أمامه. هل هذا أمر يوجع رأسنا؟..».

تضايــق العجوز رئيــم من مزح الأب غلام قليـــلا، ولكنه لم يبد غضبه، وقال له: «اسمع، في شارعنا عادة أزلية: من جاء إلى الدنيا أولا غادرها أولا، ومن جـــاء أخيرا غادرها أخيرا. والآن أنا أكبركم جميعـــا، وإذا جاء من يأخذك قدمني له وقل: هناك شـــخص أكبر سنا بيننا...».

لا، لـــم يفعل الأب غلام ذلك... ها هنا يأتي الجيران، والأقرباء، والأصدقاء القريبون والبعيدون إلى بيت الأب غلام للتعزية.

- أريـــد أن أكون في الخدمة قليلا، - قال العجوز رئيم لجيرانه، وجلس على أحد الكراســـي بجانب البـــاب. ويأتي ناس صفا صفا ويدخلون بيت الأب غلام ويخرجـــون منه. «عند دخول دار العرس، وبيـــت العزاء، والمطعم أو المؤسســـة - التي يجتمع فيها عشـــرة أو اثنا عشـــر شخصا - يمشي كبارهم أولا ثم صغارهم. هكذا عادات الإنســـانية. ولكن»... يســـند العجوز رئيم ذقنه على عصاه ويراقب بداية الصف ووســـطه ونهايته، ويتأمل في الناس المختلفين، ويشعر بأن بعضهم يحاول أن يكون قبل أكبرهم سنا... ويبتسم.

أعلى القمة

خورشيد دوست محمد

إن أي إنســـان يفكر في البحث عن اعتزاز شـــخصيته، ويبدع ليكســـب مالا كثيرا، فيبني أحدهم عمـــارة، ويتمنى آخر أن يكون كبيرا وذا شأن في نظر المجتمع والبلاد، ويحفر شخص آخر قرن الثور، أو ينظم حزبا جديدا، ويكرس أحدهم حياته للكمال المعنوي، أما الإنسان المتقي فيبحث عن العزة عن طريق الإيمان والدين.

لا شـــك في أن الصلاة معراج لكل مسلم وأن فريضة الصلاة أعلـــى من مرتبة الحج، لكني آمنـــت بأن عبادة الحج هي اختبار لا مثيـــل له في إظهار جوهر الإنســـانية التي تكمن في باطن كل مسلم، الحمد لله!

عندما أحرمت وبدأت أردد «لبيك اللهم لبيك...» كان الشـــك يملأ قلبي، وكنت أتســـاءل في نفســـي: «هل ســـيكون الحج من نصيبي؟» ولا يترك الشـــك والخوف قلبي. تذكرت وجهي والدي ووالدتي، رحمهما الله، عندما ســـمعت أنني حصلت على جائزة ســـفر الحج كأحد الفائزين في المســـابقة بين الأدباء المبدعين، يـــا ليت والديّ يريان أن هذه الســـعادة كانـــت من نصيب أصغر أبنائهما التسعة الذين بقوا بعدهما! يا للأسف.

بدأت حديثي أن الحج عبادة لا مثيل لها، ولكل عبادة جهتان باطنة وظاهرة، وكل ما سمعت وقرأت عن الحج قبل سفري كان عبارة عن معلومات وتصورات عن شـــعائر ظاهرة لهذه العبادة.

وفـــي اللحظــات التي أقلعت فيهــا طائرتنا إلى الســماء بدأت أبحث عن حقيقــة عبادة الحج، خصائصهــا المعنوية والباطنية والروحانية. ما الحج؟ وماذا يعطي الإنســان؟ وبأي شيء يغتني قلب المســلم؟ وهل يمكن أن يعي الكل قوته الروحانية؟ وهل يغير الحج طبيعة الإنســان؟ هذه الأســئلة وغيرهــا بدأت أبحث عن أجوبة لها لكوني شاهدا مباشرا.

ولــم تغادر هذه الأســئلة خاطري، ونتجول في شــوارع مكة المكرمة والمدينة المنورة، ونتمشـــى في مخيمات منى ليلا، ونبحث عن الطريق إلى عرفة في بحار الناس الذين أضاعوا مســارهم تحــت حر الشــمس، ونتجه إلـــى مزدلفة، لما وصلنـــا إلى عرفة لم نرتح ولم نتناول طعاما، وتشــغل بالي تلك الأســئلة. وأشــعر بــأن قلبي لا يرتاح كأنه يلقنني شــيئا ما ونحن نقف على التلال التاريخية التي حدثت فيهــا معركة أحد، وعلى مقابر الصحابة الســبعين المستشهدين، وحتى في الحالات الساحرة في المسجد النبوي، وآنذاك أقررت بأنه يمكن إيجاد الهدوء والطمأنينة غير المتكررة في مكان واحد من الكرة الأرضية، وهو بيت الله المسجد الحرام في مكة المكرمة.

حين ندخل المســجد الحرام من باب السلام، ونطوف بالكعبة المشــرفة، ونصلي ركعتين في مقام إبراهيم، وفي اللحظات التي نســهر فيها عند عتبة بيت الله يكون اثنان وســبعون وعاء دمويا وسبعون ألف حجيرة في مقام السعادة الإلهية. وفي هذه اللحظات ينســى الهوى كله، وتتحــول الهموم والســرور الأرضية والمتاعب والمصاعب إلى ذرة لا قيمة لها، وتكون الدموع في عيون الإنســان

السعيد شكرا على وجوده في الدنيا، وتصبح الروح صافية، وتظهر الابتسامة في وجهك مثل الرضيع، ويتوقف خيالك عن التفكير، وتنسى الأسئلة وتقف وجها لوجه أمام البيت الحرام.

راقبت - من الطابق الثاني - الطواف حول كعبة الله، والذي لا يتوقف عن الحركة ولا لحظة واحدة، ثم من الطابق الثالث فترة طويلة، ثم نزلت إلى الفناء وغرقت في الطواف مرة ومرة أخرى، وحينئذ آمنت أن أعلى قمة في العالم ليست قمة إفيريست في جومولونغما، بل هي عند عتبة بيت الله، وفي قلب مسلم يسجد عند عتبة كعبة الله، هنا يبدو أي علو مادي ومعنوي منخفضا جدا. وعلى كل إنسان أن يستشعر هذه اللحظات ولو مرة واحدة في حياته، وعليه أن يذوق سرور هذه اللحظات، وأن يتطهر! وفي هذه اللحظات تتسى المشقة، وهي - أخيرا - علامة من علامات استجابة عبادة الحج.

تأوه أحد الحجاج في طريقنا إلى مكة المكرمة بعد أن أقمنا في المدينة المنورة ثلاثة أيام وهو يقول: «اشتقت إلى كعبة الله!» وارتعش جسمي، (يعذبني ذلك الشعور والاضطرابات التي لا يمكن وصفها أينما تذكرت ومتى تذكرت كعبة الله بعد مرور عدة سنوات على تلك الزيارة). نعم، سنعود بعد خمسة أو ستة أيام إلى بلادنا، وماذا نفعل عندما نشتاق إلى كعبة الله، ومن الطبيعي أن يشتاق قلبنا إلى عبادتنا في عتبتها؟

نصبر ونفتح أيدينا للدعاء، ندعو الله تعالى أن يقبل عبادة الحجاج وأن تكون هذه السعادة من نصيب إخواننا المسلمين الآخرين!

قوس المطر

نارمراد نارقابلوف

- هل تريد أن تهرب مرة أخرى؟

فوجئ الطفل الوســيم الذي كان ينظر إلى الخارج من خلال فتحة في الجدار الخشبي العالي، والتفت إلى حيث جاء الصوت وهو يغمز عينيه، كانت مربية الروضة تقف رافعة حاجبيها تحت شجرة المشمش.

هددت المربية الطفل وقالت:

- إذا هربت، ســأعاقبك، وسأشد أذنيك... هيا اذهب والعب مع زملائك!

توجــه الطفل على مضض ناحية الأطفال الذين كانوا يلعبون فــي الفناء، وأخفت طفلة صغيرة دميتها خلفها كأنها لا تريد أن يأخذها منها، ولم يلتفت الطفل إليها، ورفع سيارة مكسورة كانت تحت رجليه، وأخذ يلعب بها، وســرعان ما شــعر بالملل من هذه اللعبة، فرماها وبدأ يلعب في الفناء.

وكانت الروضة مملة جدا لهذا الطفل، وقد مر أكثر من أسبوع منذ أن بدأ يأتي إلى هنا، لكنه لم يتعود على الوضع الجديد بعد، ومــازال يذكر اللحظات الحلوة التي كان يقضيها مع جدته، آه... لو كانت جدته هنا لما شعر بالملل أبدا.

كان الخروف الصغير في الحظيرة صديقا قريبا إلى نفســه، بعد تناول الفطور عادة ما كانت جدته تجلس في الســرير تحت

كرم العنب وتنشغل بالخياطة، أما الطفل فيذهب إلى حيث قطيع الغنم، ويبدأ يدغدغ الخروف الصغير الذي يستلقي في الزاوية، وفي البداية يسأله قائلا:

- أين أمك؟

ويرد الخروف - كأنه يفهم كلامه - بصوت جميل لين «ماااااء»، ويفسر الطفل هذا الصوت بنفسه، ويتأسف، ويقول:

- هل ذهبت إلى المزرعة؟

ويصدر الخروف صوتا خفيضا كأنه يشكو إليه، فيقلد الطفل جدته ويقول بشكل جاد:

- لا تبك، أصبحت شابا كبيرا، وإذا بكيت كان عيبا عليك!

وأخذ الطفل يمسح على ظهر الخروف، ويعجب الخروف فعله، ويشم يده ووجهه، ويمسح الطفل على رأس الخروف، ويلاحظ قرنه الذي بدأ ينمو، فيقول الطفل مندهشا:

- ياه، ظهر لك قرن!

ثم يمسح بيده على رأسه وهو يقول:

- ليس لدي قرن، ولكن عما قريب سيكون لي قرن أيضا، ثم نتصارع هكذا... ويضع جبينه على رأس الخروف كأنه يتصارع معه، أما الخروف فيتراجع ويهرب، لكن الطفل لا يتركه، والخروف يصدر صوت حزينا.

ويسمع صوت جدته آتيا من الفناء:

- يا نوربيك، لا تعذب الخروف!

ويغضب الطفل من الخروف، ويقول:

- يا لك من بكاء، ابتعد، ولن ألعب معك، اعرف هذا!

وابتعد الطفـل عن القطيع، وراح يراقـب الكتاكيت البيضاء والصفراء في الفناء، وأراد أن يأخذ واحدا منها ليلعب به، ولكنه خاف من الدجاجة الأم، ومشـى في اتجاه البستان الذي يفصله عن الفناء شبك من السلك.

لم يكن هذا البسـتان عاديا بالنسبة إلى الطفل، بل كان عالما ممتلئا بالعجائب، وفيه كثير من الأشـياء التي تدهشـه، فها هو مثلا، البرعم الذي شـاهده بالأمس صغيرا قد تفتح اليوم وصار وردة بقـدر كفه، ولونها وردي جميل، وأراد أن يمسـك سـاقها ليشـمها كما تفعل أمه، لكن للوردة صاحبها، وقد أخذها قبله... ويطير النحل عن الوردة في الهواء، لقد سمع الطفل من جدته أن النحل يشرب عصير الوردة، ويهتم بمعرفة كيف يكون عصيرها، فدقق فيها النظر ولم يجد شيئا، فقال: «لقد شرب كل العصير!»، وأراد أن ينظـر في وردة أخرى، لكن خياله ذهب في اتجاه آخر، لقد صُبغت جذوع الأشـجار في البسـتان باللون الأبيض، كأنها تلبس سراويل بيض، ويسرع إلى جدته ويسألها صائحا:

- جدتي، يا جدتي! من فعل هذا؟

ترفع الجدة رأسها وتسأل:

- نعم، يا بني! ماذا تقول؟

وأشار الطفل إلى الأشجار قائلا:

- من الذي جعلها هكذا؟

- أمك.

- لماذا؟

- لكي لا يتسلق عليها النمل؟

- وماذا إذا تسلق عليها النمل؟

- سيكون سيئا.

كان الطفل قد سمع هذا الكلام من جدته كثيرا، فكلما فعل أمرا غير مناسب قالت له: «لا تفعل هكذا، سيكون سيئا»، ومن وجهة نظر الطفل فإن شيئا مدهشا ومرعبا يكمن في طي هذا الكلام، ولكنه في هذه المرة استغرب كثيرا، لأنه أراد أول أمس أن يدخل عودا في بيت النمل ليلهو به، فقالت جدته الكلام نفسه، وقالت: إن النمل لا ذنب له ولا ضرر منه، وقالت كلاما آخر، أما اليوم...

ويسأل جدته:

- يا جدتي، لماذا سيكون سيئا؟

- ماذا؟

- ماذا سيكون إذا تسلق النمل على الشجرة؟

وأحست الجدة أنها لن تتخلص من حفيدها بسهولة، ولذلك فهي تحاول أن تجد جوابا يناسبه... وكررت الجدة سؤال الطفل بتمهل:

- ماذا سيكون إذا تسلق النمل على الشجرة؟

وبعد لحظات من التفكير أجابت:

- سيخدش جذع الشجرة ولن تثمر.

اقشعر جلد الطفل وكأن النمل يتسلق عليه، ويذهب إلى شجرة التفاح الكبيرة ويرى منظرا مدهشا، فعلى الرغم من أن جذع الشجرة قد وضع عليه حرير صخري بشكل مكثف فإن النمل كان يتسلق على الشجرة بكل سهولة، وأخذ الطفل

عــودا يريد أن يبعد النمل، ولكنه لــم يجرؤ على ذلك، فتردد لحظات.

وفــي هذا الوقت اقتربت الجدة مــن حافة القناة، وكانت قد جمعت حزمة من الأعشاب الطرية، فأعطتها للطفل قائلة:

- خذها وأعطها لخروفك!

رمى الطفل حزمة العشــب التي يحضنها أمام الخروف، أما الخروف فنظــر إليه وبدأ يأكل العشــب، وراقب الطفل خروفه بعــض الوقت، وأراد أن يجرب أكل العشــب، فأخــذ قليلا منه، ووضعه فــي فيه ومضغه، فتغير وجهه من ســوء الطعم، وبصق العشــب، ومسح شــفتيه بكمه ورجع إلى البستان، ووقعت عيناه على الكلب المربوط تحت شــجرة المشمش، فأراد أن يلعب معه، واقترب منه، لكنه لم يتمكن من فك الحبل، فلجأ إلى جدته:

- جدتي، فكي حبل كلبي!

- ولكن تصرفاته سيئة يا بني، إنه يخيف الكتاكيت.

- لن يفعل لها شيئا، وأنا أعدك.

وتبتسم الجدة لحفيدها وهي تقول:

- وهل اتفقت معه؟

- نعم!

فقالت الجدة:

- إذن انتظــر حتى يعود والدك من عمله، أنا لا أســتطيع أن أفك هذا الحبل.

ويصــدق الطفل هذا الكلام، ويجلــس بجانب جدته، ثم أخذ يســاعدها فــي جمع العشــب، ولكنه لم يكن يفــرق بين الجزر

والعشـــب البري، وقطف الاثنين معا، فنهرته جدته، فرجع ثانية إلى البستان...



توفيت الجدة فجأة، فتغير عالم الطفل البسيط والفرح...

كان والداه يذهبان إلى العمل في الصباح الباكر ويعودان إلى البيت متأخرين، فســـجلاه في روضة الأطفال التي بنيت أخيرا في القرية، وشعر الطفل بالملل منذ اليوم الأول في الروضة، وفي اليوم التالي بكى في البيت رافضا الذهاب إلى الروضة، أما في اليوم الرابع فلم يكن يفكر بالذهاب إليها...

في ذلك اليوم حدثت أمـــور كثيرة مفاجئة، فعندما كان يتنزه فـــي الفناء، نظر من خلال ثقب في الجـــدار إلى الخارج، فرأى عالما غريبا: رأى القناة الزرقاء تجري بين المراعي الخضراء، كما لاحظ أمامه جســـرا خشبيا، وتحت الجسر كان الأولاد يسبحون وقد اســـمرت جلودهم من طول تعرضهم للشـــمس، وهناك رأى ولدا طويلا نحيفا في الثالثة عشـــرة أو الرابعة عشرة من عمره، يجلـــس على حافة القناة وقد وضع صنـــارة في الماء، وعلى بعد قليل منـــه تمتد المراعي إلـــى التلال، وهنا وهنـــاك قطعان من الخرفان...

لم يخرج الطفل مـــن القرية ولا مرة واحدة، ولم تبعده جدته الحنون عن ناظريها!

وأخذ هذا العالم الغريب العجيب لبه وفتن خياله، فلم يشـــعر كيف خرج من تحت الجـــدار زحفا على حافة القناة، وذهب إلى الولد الذي يمســـك الصنارة، وتلفت حولـــه، ووقعت عيناه على

الأسماك التي تتحرك في قدر صغير، واندهش وصاح:

- ياه!

وضع الولد أصبعه على شفتيه وقال:

- اش اش! أنت تخيف الأسماك!

ولم ينتبه الطفل لما قال، وظل ينظر إلى الأسماك، ثم قال:

- أعطني واحدة منها!

نظـر الولـد إلى الطفـل من رأسـه إلى قدميـه متفحصا، وسأله:

- ماذا تفعل بها؟

- سألعب بها.

ضحك الولد وقال:

- ستلعب بها؟ وهل السمك لعبة؟

- أعطني واحدة منها، أحب أن ألعب بها!

وفـي هذا الوقت تحركـت الصنارة، فرفعها الولد بسـرعة، ووقعت على العشـب سـمكة بقدر الأصبع، كانت تلمع في ضوء الشـمس، وبدأت تتحرك، وسـحب الولد الصنارة من السـمكة ووضعها في القدر... ويرجوه الطفل قائلا:

- أعطني إياها!

- ياه، كم أنت لحوح مزعج، اذهب إلى روضتك!

- أنت بخيل!

ولـم ينتبـه الولد إلـى غضبـه، كان مركـزا كل انتباهه في الصنارة.

وقـف الطفل قليـلا بجانبه، ثم أخذ غصنـا كان قريبا منه،

ووضع طرفه في الماء، فسأله الولد مستغربا:

- ماذا تفعل؟

ولــم يرد الطفل عليه، لأنه كان متجهمــا، ولاحظ الولد ذلك فضحك له من صميم قلبه، وقال:

- ومن يصيد الســمك هكذا؟ وكيف يمكن صيد السمك من دون الصنارة... تعال، خذ الصنارة، امسكها جيدا...

وأخذ الطفل الصنارة بســعادة غامرة، ونظر في الماء منتبها، وشعر بنفسه وكأنه كبر، ونظر إلى الولد شاكرا.

وفي هذا الوقت بدأت الصنارة تتحرك بسرعة، وارتبك الطفل ولم يعرف ماذا يفعل!

وصاح صاحب الصنارة:

- اسحب، اسحب! اسحبها بسرعة!

أما الطفل فزاد ارتباكه، وسحب الصنارة عندما مد الولد يده إليها، لكنه كان قد تأخر، فقد أكلت السمكة الدودة ومضت.

تمتم الولد وهو يضع دودة أخرى في غمازة الصنارة، وقال:

- يا لك من صياد ماهر! جعلت السمكة تهرب!

أحنى الطفل رأسه كأنه ارتكب ذنبا، وهدأ الولد من روعه بعد أن تمتم قليلا، ثم أخذ سمكة من السلة وأعطاها للطفل، وقال:

- خذ هذه السمكة والعب بها، والآن اذهب من هنا!

أخذ الطفل السمكة، ونظر إليها، وتفحصها، واتجه إلى الأولاد الذين يسبحون، وعندما وصل إليهم توقفت السمكة الصغيرة في كفه عن الحركة، ووقف الطفل حيران، وجاء ولد منهم إلى جانبه ثم جاء الآخرون وتجمعوا حوله.

- أهذه سمكة؟
- كم هي صغيرة!
- هل أعطاك رستم البخيل سمكة؟ كم هي جميلة!
- انظروا... إنها ميتة!
- ارمها في الماء، ستنتعش.
- لن تنتعش!
- ستنتعش.
- هات، أريد أن أراها.

ارتبك الطفل بين أصوات وضجة الأولاد، وانتقلت السمكة من يد إلى يد، ورماها أحدهم في القناة، ثم ابتعدوا عنه في لحظة.

أما الطفل فجرى فرحا وهو يقول: «انتعشت السمكة! انتعشت السمكة!».

في ذلك اليوم رجع الطفل إلى البيت عند المغرب وقد توسخت ملابسه بالتراب، أما أمه فكانت تجلس باكية حزينة لأن الدنيا كانت ضيقة في عيونها، واحتضنته وقبلته ثم بدأت تسأله عما صنع في يومه، وأين كان، ومع من... لكنه لم يجب، وظل واقفا مندهشا صامتا، لأنه كان تحت تأثير انطباعاته اليوم، وبعد أن تناول طعامه وشبع، أراد أن يتحدث عن الولد الصياد، وعن السمكة التي عادت إلى الحياة في القناة، لكن التعب تغلب عليه فقال بعض الأشياء غير المفهومة، ثم غرق في النوم.



كان الطفل يلعب في الفناء، وقد غطت الغيوم وجه السماء، ونزل المطر، وتجمع الأطفال تحت السقيفة وهم يتصايحون.

وغطت طباخة الروضة القدر، وقالت:

- يا إلهي، إننا في بداية الصيف، فلماذا المطر؟...

أشارت مربية الروضة إلى التلال وقالت:

- انظري، المطر يهطل على التلال غزيرا!

قالت مربية أخرى متدخلة في الحوار:

- سيتوقف بعد قليل!

وفي الحقيقة، لقد صبت الغيوم السوداء التي جاءت من الشرق كل مائها على التلال، ثم تفرقت بعد ذلك غير قادرة على الاستمرار، وأشرقت الشمس، وبدأت رائحة العشب المبلل تنتشر في الهواء.

تذوقت الطباخة طعم الأكل في القدر وهي تصنع الشاي، وتجمعت النساء حول مائدة الشاي، وبدأن في الدردشة.



تذكر الطفل جدته مرة أخرى، وانتقل إلى الفناء وهو يتأوه حسرة عليها.

واستغل الطفل انشغال المربيات بالحديث، فزحف من خلال حافة القناة تحت الجدار إلى الخارج، ولم يكن أحد على شاطئ القناة، لكن هذا الأمر ليس مهما بالنسبة إليه، واتجه إلى الجسر متلفتا يمنة ويسرة، وتستمر الحياة حوله: كانت القناة صافية أمس، أما اليوم فهي متعكرة لكنها سريعة، وفي مكان بعيد قليلا ينتشر قطيع من الخرفان، ويتصارع خروفان بكل قوتهما،

وفي السماء يطير نسران يكادان يلمسان الغيوم، وهذا رجل يركب فرسا ويسرع في اتجاه المزرعة، ويتسابق ثلاثة أولاد على دراجاتهم الهوائية، وقد أخافوا حمار رجل عجوز يمشي في الطريق، وهدد العجوز بعصاه وهو يتمتم بشيء ما...

كان الطفل يتأمل في الطبيعة حوله، وظهرت الشمس فبدا جمالها بعد أن غطت الغيوم المؤقتة وجهها، واندهش فجأة، وهمس لنفسه: «ياه، ما هذا!؟».

وفوق التلال يلمع قوس بألوانه الأحمر، والأزرق، والوردي، والأخضر، والأصفر!

واندهش الطفل من ألوان القوس المختلفة، وأسرع في اتجاه القوس من دون إرادة منه! وفي هذا الوقت...

- يا نوربيك!

والتفت خلفه، ورأى مربية الروضة تمشي بجانب الجدار مسرعة إليه.

- يا نوربيك، ارجع إلى الروضة!

وقف الطفل بين المربية والقوس مترددا...

ليتها كانت جدته، فإنها كانت ستقوده إلى القوس.

النقطة

خيرالدين سلطانوف

منذ أسبوعين بدأ المطر ينزل في «آجرا» بشكل متصل، وطال مثل هموم المريض. ومنذ أسـبوعين يستلقي ظهير الدين محمد بابُر وينظر إلى حديقة نورافشان التي فقدت جاذبيتها وبهاءها، واليوم رفع رأسه عن الوسادة، وها هو يجلس في غرفته الخاصة منفردا يكتب رسالته إلى كابل - إلى ابنه همايون.

في يوم الإثنين الماضي جاء سفيران من همايون ببشرى، وهما بيان شـيخ وايس لاغري وبيكّينـه، وكان بابر ميرزا يعرف هذين الشـابين الظريفين منـذ زمن قديم، عندما كان في سـمرقند، وعيّنهمـا في خدمة همايون بسـبب ثقته فيهمـا، وكانا رجلين عالمين فاضلين ذوي قلبين عظيمين.

وسرّ الخبر الذي جاء به السفيران قلبه المشتاق، مثلما يغطي موج البحر شـاطئا عطشان، ولكنه لم يجد في نفسه طاقة لكي يتحدث معهما في كل التفاصيل، فمنذ أسـبوعين يشتعل جسمه بنار الحمى؛ وقـد ازداد ألمه مع حلول البرد، ويوجعه الألم الذي طرأ على أذنه اليسـرى، ولـم يجد الأطباء الهنـود ولا الأطباء العرب دواء له، وهو يعاني ألما لا مثيل له.

أول أمـس علّق الحلاق فوطة على رقبته وحلق شـعره وزيّن لحيتـه، ونظر بابُر فـي مرآة في إطار ذهبي ورأى بعض شـعر أشـيب في لحيته، وشهق في أعماق نفسه وأغلق عينيه بلا قوة،

وفي ذلك الوقت جرح بيت علي شيربيك الممتلئ بالحكمة والألم قلبه:

إن شيب اللحية هو بداية النهاية

مثل الثلج على خضر النبات.

خضر النبات!.. نعم، واجه ربيع عمره موسم تساقط الأوراق، وبدأ يتساقط مثل الورق الأصفر. توفي والده وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، أما هو فقد عاش حياة والده، وإذا أعطاه الله عمرا، فسيبلغ في هذا الشتاء الخامسة والأربعين. ولكن القدر الأزلي لم يطل في حياة الملوك، وإذا نجا من خنجر العدو، فلن ينجو من ضربة حسام الأجل المفاجئ. ويعرف بابر ميرزا تماما أن حياته التي سارت في المعارك مثل الأحلام المرعبة تتجه إلى نهايتها. والآن لا يخيف وهم الموت قلبه، ولا يحيط به إحساس الندم، وخلال حياته التي تبدو خمسا وأربعين ثانية حينا، وخمسة وأربعين قرنا حينا آخر، تذوّق الشراب المرّ للقدر بلا ندم، وتجوَّل في الدنيا، وحازها، وعاش في الرخاء والشدة، واعترف بأن لذة الحياة ليست أبدية - مثل أي شيء في العالم - مهما كانت لذيذة، ولكنه يعرف أن هناك أمورا لم يكمل إنجازها بعد، وعليه أن ينجزها، وهذه الأمور أكثر من الأمور التي أنجزها، ولذلك ينظر ويراقب كل دقيقة وكل ثانية تمر بلا رجوع ببكاء صامت.

أخذ رسالة همايون من صينية مطلية بالفضة وبدأ يقرأ من جديد، وبعد لحظة هزّ رأسه بأسف: أصبح همايون ملكا مشهورا، وأحرز انتصارات مرموقة في الشؤون الحربية، وأصبح

أبا سعيدا، ولكنه لايزال صبيا! وتدل رسالته هذه على أنه - وهو في العشـــرين من عمره - لايزال صبيـــا، وقد كتبها بلطف زائد من البدايـــة إلى النهاية، ولا تجد ولو جملـــة خالية من الحفاوة والاحترام.

«والـــذي يقـــدم هـــذه العريضة... وتحـــت حماية ســـلطان الســـلاطين... وكانت طلعة الشمس في برج الحوت، ونسي عبر النسيان...».

وتوقفت نظرة بابر ميرزا على الرسالة وهو حزين... أخذ بابر ميرزا همايون من صغره برفقتـــه، وعلّمه جميع العلوم والحرف التـــي يعرفها ولا يعرفها، وعلَّمه فضـــل الفضيلة، وتخيل أنه، إن شاء الله، أصبح إنسانا كاملا بعناية الله، ولكن للأسف الشديد، يبدو أن هناك شـــيئا لم يخطر فـــي باله، من العيب العظيم على الرجـــل الذي حمل على عاتقه قيادة المملكة اســـتخدام الألفاظ المغلقة وغير الواضحة في تأليف الرســـالة، ولكن هل سبب ذلك في همايون فقط؟ وإن جميع الرسائل والمراسيم للديوان الرسمي، والرسائل المحلية التي تصل يوميا من كل أنحاء المملكة، والشكاوى والمعروضات تمتلئ بزركشة مثلها، تثقل كلها قلب القارئ إذا أراد أن يقرأهـــا من البداية إلى النهاية، ولكـــن لا بد من قراءتها من البداية إلى النهاية ليرد على كل منها بشـــكل مناسب، ولا بد من الصبـــر على القراءة الكاملة، ولذلك لا مفرّ هنا إلاّ أن تطلب من الخالق تعالى صبـــرا، وليس من فضل العارفـــين ملء الصفحة البيضاء بكلمات فارغة مثل فقاعات الصابون، وللأسف لا يفهم هذا الأمر إلا أناس قليلون، ويفضل أكثرية الناس الذين يفهمون

ذلك الابتعاد عنه من باب الأدب.

ومد يده إلـــى قلم ودواة، وتأوه بهدوء، وجاءت على باله فكرة غريبـــة: عليـــه أن يكتب رســـالة الرد بملاحظـــات لا تؤذي قلب همايون من جهة، ومن جهة أخرى، إذا فهم ذلك، تكون درســـا له طول عمره!.. وبدأ رسالته بما يلي:

«تحية مشتاقة لهمايون وبعد،

لقد وصلنـــا بيان شـــيخ وبيكّينه في اليوم العاشـــر من ربيع الأول، ولقـــد أصبحـــت الأحوال واضحـــة من الرســـالة وممّن أحضرها ...».

وتذكر فجأة أن حفيدا وُلد له، وقد أصبح من الآن جَدا، وشعر بارتياح في جســـمه الذي كان غارقا في الحمى: لقد وُلد مولود ذكـــر لهمايون من بنـــت يادغر طاغي... وأحـــس قلبه بالاقتناع. وتحت تأثير هذا السرور جاء في باله مصراع تلو الآخر:

«الحمد لله الذي أعطاك مولودا

لك المولود ولي السرور والفرح!..».

وفجأة تذكر تلك الأيام السعيدة التي وُلد فيها همايون، وملأ فيها إحساس الافتخار قلبه.

لقد وُلد ابنه همايون في «قوس كابل»، لم تكن له ولاية، وليس له أمل في ولاية، وقد تشـــرد جيشـــه، وكان ذلك في تلك الأيام التـــي وجدوا فيها اســـتقرارا مؤقتا وهدوءا مع المســـاكين الذين اضطـــروا إلـــى أن يأكلوا لحوم الكلاب والحميـــر من الجوع في حصار ســـمرقند، وعانوا عذابـــا أليما في طشـــقند وأنديجان ووصلـــوا إلى كابـــل، وأفرح المولود همايون قلبه المســـكين. وكان

جميع حكام سلطنة تيموربيك حتى ذلك الحين يسمون ميرزا، وأمر في تلك السنة بتسمية نفسه ملكا، وأرخ الشاعر مولانى سيدي يوم ولادته: «سلطان همايون خان»، أعجب هذا الاسم بابر وأهله، وعُرِّف المولود للشعب باسم محمد همايون بعد أيام ثلاثة أو أربعة.

يقولون إن إعطاء اسم مناسب للمولود فرض على الوالد، وكان يسعى إلى ذلك بقدر إمكانه دائما، وعندما وُلد ابنه الثاني سماه كامران راجيا له السعادة في عمره، وعندما وُلد ابنه الثالث حضنه وسماه: ميرزا عسكري وتمنى له شجاعة العساكر، وعندما استولى على الهند أعطاه الله ابنه الرابع، وسماه هندال كذكرى لأيامه الماجدة، وأكرمه الله بثلاث بنات من أم واحدة، وسمى هؤلاء البنات الجميلات مثل أوراق الزهرة بأسماء الزهور الجميلة: كول رانك بيغيم، وكول جيحره بيغيم، وكول بدن بيغيم... ها هو الآن، رزقه الخالق بسعادة الحفيد.

«ليعط الله هذا الفرح لي ولك دائما، آمين يا رب العالمين - واصل رسالته - سميته الأمان، بارك الله فيه، وكتبته بنفسك، وغاب عنك شيء، من كثرة استخدامه يقول العوام «الأما»، أو «إيل أمان» ومن النادر استخدام ال التعريف في الاسم...».

وغرق في الخيال وهو يستند إلى وسادة من الريش، ما الذي كتبه كاتب الرزق لهذا المولود؟ هل كتب له ملك السلطنة، أو شهرة القادة، أو رتبة العلامة، أو قسمة الشاعر؟ وبأي فضل وكرم رزقه الخالق، وهل مستقبله منير أم مظلم؟

يخطئ الذين يقولون إن إرادة الملوك في أنفسهم، وفي هذا

العالم يتبع الملوك والأمراء دائما لغيرهم، لمن أقوى منهم، ويتبعون لإراداتهم. ولذلك في أكثر الحالات يكون الأجداد والآباء، والآباء والأبناء في نزاع مستمر. كان سلطان ميرزا أولوغ بيك رجلا من الرجال الأفاضل في زمنه، وقتل عبد اللطيف - ابنه المشؤوم - أباه لأجل هذه الدنيا الفانية، وكان السلطان حسين ميرزا ملكا ذا خبرة عظيمة، وفي شيخوخته أغرق يده في دم حفيده البريء مؤمن ميرزا. ويا للعجب، كم كان فرح ميرزا أولوغ بيك عندما وُلد قاتل الوالد عبد اللطيف، وهو فرح مثل جميع الآباء الذين حلموا بالمولود! ومن يعرف، وماذا إذا عرف أن هذا الرضيع الذي كان يتمطق بلا ضرر في المهد سوف يقطع ذات يوم رأسه العزيز والمحترم الذي علا إلى السماء... أو كم كان فرح السلطان حسين ميرزا عندما بشر بمولوده مؤمن ميرزا، وكم فرح بأن هناك سببا للحفلة؟ يا رب، ارحمنا من بليات مثلها!

«بارك الله في اسمه وجسمه، وأسعده وحفظ الله «الأمان» لي ولك خلال سنوات وقرون بالدولة والسعادة».

وتمنى همايون استشارته، وقد عرض بعض ملاحظاته فيما يتعلق بأمور الدولة، وانتبه بابر إلى تلك الأماكن وفهم أن ولي العهد على استعداد لإنجاز حلم سمرقند وأنديجان... لقد كانت رغبة شديدة تعيش في قلب بابر منذ سنوات، ولكن هل يعرف همايون أن هذه الرغبة المقدسة صيحة تشتعل في قلبه؟ أم أنها غبطة البطولة لهمايون، أو أنها رغبة جاذبة عادية في سبيل الحكم؟ يا ترى، كم مرة استعد، وكم سنوات انتظر فيها فرصة مناسبة، وعندما حانت الفرصة... انتظر الجرأة، ولكن لم يجد

جرأة، هل يستطيع أن يروي بدم تلك البلاد التي تشبه الجنة؟ إنها مسقط رأسه، ويرتعش قلبه عندما يتذكر... هل يبطش بأقدام الفيلة في أماكن مقدسة لأجداده وآبائه؟ وماذا سيحصل فيها؟ مجدا وارتياحا؟ ألا يخدع نفسه عندما يفكر: «إني وجدت مرادي»، وسوف تذكره الشعوب بلعنة؟ لا، لا يستطيع أن يتصرف من دون حساب المخاطر، وفي الوقت نفسه ليس معقولا أن يوقف ولي العهد البطل ويحد من شجاعته، وهو في عمره المزدهر، وذو قلب مملوء بالشوق للظفر والتمتع بالمعارك. ومن يعرف أن السعادة التي لم تتيسر للوالد ستكون من نصيب الابن؟

وفكّر قليلا واستمر في رسالته:

«وكذلك أمرنا كامران والحكام الآخرين بالانضمام إليك في حملة حصار أو سمرقند أو أطراف أخرى في إصلاح الدولة، وبعناية من الله تعالى، سوف تنتصرون على الأعداء، وسوف تفتحون البلاد، وتجعلون الأصدقاء سعداء، والأعداء أذلاء، إن شاء الله. حان وقتكم لرفع السيوف... وإن تيسر بعناية ربنا فتح ولايتي بلخ وحصار، فليكن رجل لك في حصار، ورجل لكامران في بلخ، وإذا تيسر بعناية الله فتح سمرقند أيضا - فجأة اقشعرّ جسمه - فاجلس أنت في سمرقند...».

أوه... هل ستأتي تلك الأيام السعيدة؟ أصلا، لم يكن حسن الطالع من نصيبه، وكان سوء الطالع بلاء في حياته. وليكن أولاده ذوي حب ومروءة وأدب وسخاء تعويضا لفقدان وطنه. والشكر لله، لم يكن حتى اليوم أي نزاع بينهم، وهل ستستمر هذه الأخوّة بهذه الصورة؟ أو سيحدث مثلما حدث بين الأولاد الثلاثة

للسلطان حسين ميرزا وأولاد الزنا الأربعة عشر له، والذين كانوا في نزاع مستمر. ومادام هناك طمع في الملك فهناك قلق وبلاء في النفس ووسواس من الشيطان عليه اللعنة!.. وكم عانى بنفسه عذابا بهذا الشأن! كان له أخ من أبيه، اسمه جهانكير ميرزا، وصار بينهما نفاق وتكدير! وحاول الأخ دائما أن يؤذيه، ونجا من بين مخالب شيبانيخان واتجه بقلب مكسور إلى أنديجان - بلاد أبيه، وأغلق أخوه أبواب المدينة في وجهه. لا، لم يقل العاقلون هذا المثل الفارسي العجيب بلا سبب:

ده درويش در كليمى بخسبند

دو پادشاه در اقليم نكنجند....(*)

ولا بد من التأكيد أن على همايون أن يتعايش مع إخوانه، لأنه هو الأكبر، ويجب عليه أن يكون بخلق واسع ومتحملا لهم.

«لي لوم صغير عليك، - كتب في بداية سطر جديد - لم يأت شخص من عندك منذ سنتين أو ثلاث. وأما الرجل الذي أرسلته إليك فعاد بعد سنة. هل هذا معقول؟».

وفي هذا الوقت بدأت تؤلمه أذنه اليسرى بشدة، وشعر في رأسه ضيقا كأن أنشوطة في جبينه تحكمه بشدة، وتقشعرّ أعضاء بدنه، واستلقى على وسادة بلا قوة من جديد وترتعش يده التي تمسك القلم.

إنه يعرف جيدا سبب داء أذنه، ولم يجد الأطباء دواء له وهم حيارى.

منذ عشرين سنة وقع في عاصفة الثلج القاسية في «كوتالي

(*) (باللغة الفارسية) تتسع السجادة الواحدة لعشرة دراويش، ولا يتسع الإقليم الواحد لسلطانين.

زرّين». والمرشـــد المسن، واسمه سلطان بيشـــاي، أضاع الطريق إما بســـبب ارتباكه في البرد أو بســـبب كبر سنه، وازدادت شدة سقوط الثلج في المساء. وذهبوا في طريق اقترحها مصرّا قاسم بيك، وقـــال إنها أقرب، وخجل الرجل ، وأخـــذ ابنيه إلى جانبه وتقدم إلى الأمام وهو يغرق في الثلج ويفتح الطريق. ويزداد الثلج الذي تســـاقط بحبات كبيرة من لحظـــة إلى لحظة، أما الصقيع الذي يعصف عبـــر الطريق الجبلي، فهو يضرب الوجوه والعيون والأيـــدي والأرجـــل وكأنه يضـــرب بمئات وآلاف مـــن العقارب، وانتهـــى صبرهم عندما وصلوا إلى مكان يســـمى «هوالي كوتي» وقرروا المبيت هناك، بعضهـــم على الخيل، وبعضهم صنع مأوى من حجر الثلج بنـــوع ما، وآخرون في عيونهم دموع... وأخذ في يـــده مجرفة، واقتـــرب من الغار وبدأ يزيح الثلـــج، وأزاحه بقدر ركبتيـــه، ثم بقـــدر خصره، ثم بقدر صـــدره - ولم تظهر الأرض بعد. ونزل في حفرة من الثلج، وجلس فيها وأحنى رأســـه، وبدا لـــه كأنه وجد مـــأوى من الصقيع الذي يهـــب وكأنه يقصد هدم العالم كله، وانســـحب وهم الموت. وجلس صامتا صابرا وأسنانه تصطك، وفي قلبه ألم مثل حرارة الصيف، وفي جســـمه صقيع الشتاء وهو ينظر في الســـماء الغامضة المظلمة مثل قلبه، وبعد فترة جاء إليه رجـــلان أو ثلاثة من «البيك» - الحكام وقالوا له: «ادخل الغار، هناك مـــكان أفضل للحفاظ على الحياة»، ورفض رفضا قاطعا، كيف يستطيع الذهاب إلى الغار وجميع جنوده هنا في مخالب العاصفة، يرتعشـــون، وهو يذهـــب إلى الغار الدافئ وينـــام في هدوء!.. لا، هذا الأمر مخالـــف للمروءة، وغريب عن

مبادئ التضامن، وسوف يتحمل كل أنواع المشقة في صف واحد مع الجميع، وإذا جاء أجله سوف يموت مع الجميع! جلس هكذا كأنه نزل في حفرة ولم يتحرك، وأما الثلج فازداد بشدة، وعندما حان وقت صلاة العشاء كان الثلج قد غطى كتفه ورأسه وأذنيه بمقدار أربع أصابع. وأصاب البلاء، يا له من بلاء، أذنه آنذاك، ومرة أخرى، عاش يوما باردا آخر وعندما وصل إلى شاطئ النهر، فاقشعرّ الجيش ونزل بابُر عن الجواد بسرعة واقترب من الشاطئ، وثقب الثلج، وغطس في النهر ست عشرة مرة.

نعم، هل بقي هناك أي بلاء للدهر لم يعانه؟!

وضع كفه على أذنه اليسرى وصبر مدة، بدا له أن الألم قد خف، وانحنى على رسالة همايون من جديد.

ما هذا؟ في الرسالة كُتبت كلمات عن الوحدة، وعذاب الوحدة، وبقي بابر حيران: من أين هذه الصيحة والندم في قلب شاب في العشرين من عمره، وهو في عمر مزدهر؟ وهزّ رأسه بالعجب... وقال في نفسه: يا بني، أنا ما كنت أعرف بلاء الوحدة، ولكن أحببت أن أتعذب فيها!..

ونظر في السقف، وجمع أفكاره وواصل كتابته بسرعة:

«كذلك تحدثت في رسالتك عن الوحدة وعذابها، وهذا عيب للملك، وقد قالوا:

اكر پايبندي رضا پيشكير

وكر يك سواره سرى خويش كير(*)

لا يوجد في أي مكان حكم للملك كما يحب، ولا تتناسب الوحدة

(*) (بالفارسية) ومعناه: إن كنت مقيدا فاتبع طريق الرضا وإن كنت فارسا فكن معتدا بنفسك.

مع إدارة المملكة...».

وفي الحقيقة، هل رأى أحد أن غبطة الملك تتناسب مع غبطة الوحدة؟ إن الرجل الذي أراد الوحدة لا يأخذ على عاتقه سياسة الملك.

وعليه أن يعلق كيسا في رقبته، ويذهب في طريق الدراويش، أو يختار طريق الزهد. وفي الحقيقة، كيف تعرف ما هي الوحدة، يا بني؟ هل أصبحت يتيما من والدك الحبيب في الثانية عشرة من عمرك؟ هل توّجوك ملكا وأنت صغير ولم يبرد تراب قبر والدك ولم تجف الدموع في عيونك؟ هل تبعثرت لحظات طفولتك البريئة وأوقات مراهقتك الجريئة مثل أوراق متساقطة بين الدم والمعارك؟ هل رفع العدو سيفا على رأسك؟ هل بصق أشقاؤك على وجهك وانضموا إلى عدوك وحرموك من وطنك؟ هل اشتاق قلبك إلى بلاد أمك وقد حُرمت منها إلى الأبد؟ هل تشردت في بلاد بعيدة تحت كره شعوب الغير وطوق اللعنة؟ هل قدمت الملكة بيدا لك سمّا وأنت في سن الشاب؟ هل غرق فصل الربيع المزدهر من عمرك في بحر الغفلة والشراب؟ لماذا تئنّ، يا بنيّ - أيها الملك محمد همايون؟ وما سبب هذا الأنين غير المحدود؟

وفي الوقت نفسه بدا له كأنه وجد جوابا عن هذه الأسئلة التي لا حساب ولا حد لها: إن سبب هذا الأنين يكمن في الحياة، وفي الإنسانية؛ فإن الإنسان الحي فقط قادر على أن يقاسي الألم والمعاناة، وأن يعلو عليهما وأن ينتصر على جميع مشقات الحياة. في الدنيا يحرم الميت من معاناة الألم مهما كان شأنه،

لأن التألــم الإنســاني هو علامة الحياة وصــوت الأمانة الحية، إذنْ، لــم يضع جهده وتربيتــه - وينظر فيما حول همايون ويملأ قلبــه بالألم، ويفحص قدمه بقلــق. إذن، وجدانه في قلبه يقظ، وعدله وإنصافه حي. بارك الله فيك، يا ابني، - همس في نفسه - بــارك الله فيك، يا بطلي!.. ولكن في الوقت نفســه غمره به إحســاس بالقلق وأبرد قلبه: ومن الصعب أن يكون همايون ملكا برقة قلبه هذه ودماثة أخلاقه، إنه صعب جدا!

وأحــاط القلق بقلبه وبحث عن ســلوى في رســالة ابنه، كان همايون صاحب خط حسن، ولكنه قرأ بعض الكلمات في الرسالة بصعوبة، وفهم معناها تخمينا.

«كمــا قلت، إنك قد كتبت هذه الرســالة ولم تقرأها، لأنك إن أردت قراءتها لم تستطع - بدأ يكتب بقلق - يمكن قراءة رسالتك بعناية جيــدة، ولكن فيها ألفاظا مغلقة، ولم ير أحد مشــكلة في النثــر. والإمــلاء عندك ليس ســيئا، ولكن فيه بعــض الأخطاء، كتبــت التفات بالباء، والقلونج بالياء. ويمكن قراءة رســالتك بهذه الطريقة، ولا يُفهم المقصود بهذه الألفاظ المغلقة، وهذا ســبب قلة كتابة الرســائل غالبا، وتريد أن تستخدم المحسنات البديعية ومن هنا تكون الرسالة غامضة، وبعد هذا اكتب الرسائل من دون تكلف وباستخدام الألفاظ الواضحة؛ وسيكون الأمر سهلا لك وللقارئ.

وتوقف عندما وصلت الرسالة إلى هذا المكان، لأنه يعرف أن السبب ليس في همايون فقط، ومنذ وقت طويل اقتنع بشيء، أن الإملاء العربي غير مناســب للشعب الناطق بالتركية. ربما صنع العربي إملاءه بما يناسب لسانه.

وكان ذلك وهمّ على وشك خوض معركة عظيمة.

كان له بيك اسـمه ينكيبيك، أرسـل رسالة إليه، وأخبره فيها بأن هناك طريقا سرياً في شـيرغاري، يمكن القيام منه بحملة مفاجئـة على العـدو، وأمر فـي الفجر بالحملة وسـاروا عبر شـيرغاري، وعندما وصلوا قابلهم حشد كبير من جيوش العدو، وقُتل كثير منهم وتكبدوا خسائر جسيمة، ونجوا بصعوبة. وطلبوا غاضبين حضور ينكيبيك، واسـتجوبوه، وأقسم بالله العظيم، أنه رأى طريق شـيرغاري بعينيه، وانتظرهم حتى المسـاء مستغربا ولم يأت أحد، ثم قاموا بتحقيق الرسـالة مرة أخرى، ووجدوا أن هناك غلطا في وضع النقطة في شـيرغاري، ولم ينتبه ينكيبيك إليـه ربما من بطء فهمه، أو كسـل تفكيره، وكاد يقع في سـوء الحظ بسبب سوء الخط.

لقد مضى زمـن طويل منذ بداية اسـتخدام الخط العربي، ولكن، يا للعجب، كيف لم يدرك العلماء العظماء والملوك الناطقون بالتركية عدم توازن هذا الخط مع لغتهم؟ ربما أدركوا ولكن هناك مسـألة الأدب عرقلـت جرأتهم. لا أحد يجـرؤ أن يعرض فكره علنا، وسبب ذلك أن القرآن الكريم كُتب بهذا الخط بالذات، وأي بطل يجرؤ أن يقوم بإصلاح الخط الذي كتب به كلام الله؟! ولكن ليس العرب فقط، بل هناك شـعوب مختلفة ناطقة بالتركية هم عبـاد صادقون لله تعالى، ولذا، عليهـم أيضا أن يكون لهم خط ليحمدوا الخالق. ولفهم ذلك يكفي إيقاظهم من الغفلة والجهالة. إذنّ، مـن وجهة النظر هذه، إن الإصـلاح حاجة طبيعية، ليأخذ بعين الاعتبار فيه لغة الشـعب الناطق بالتركية. وقبل كـل شيء

لا بد من التخلص من الفتحة والكسرة، وإزالة النقط التي تتعب عيون العقل، ولا بد من حد لاختلاف شكل الحرف، حتى يُضمن شكل مستقر قطعي للإملاء، وليكسب الإملاء بساطة عجيبة، تقضي على جميع الوهميات.

كل هذا يحتاج إلى الجرأة فقط!

وتجرأ هو على ذلك فألّف إملاء جديدا، وعرض المشروع الذي اخترعه على العلماء والفضلاء، وحاول إقناعهم بإيجابياته.

للأسف، استمعوا إلى كلامه في كل مكان بهدوء، ولكن تعبيرات وجوههم كانت تكشف قلقهم. وهكذا لم ينل الخط البابري إقبالا جادا.

ولكنه لم يتراجع، ومضى إلى النهاية، وأمر الخطّاطين بنقل القرآن الكريم بالخط البابري، وأرسل نسخة إلى مكة المكرمة!...

وفي النهاية حصل ما يلي:

ذات يوم حضر العلماء الكرام المحترمون إليه بحفاوة وتكريم، ودعوه «ليحذر من بعض الحركات غير المناسبة». لقد احتفظوا بالاحترام الظاهر، وتبين في لهجتهم القلق الجاد الباطن. إن الله واحد أحد، ومحمد رسول الله، ويؤمن به ظهير الدين من صميم قلبه، وعليه أن يؤمن بأن خط كلام الله وحيد وثابت، وأن يعلم قبل أي أحد أنه إذا اشتبه أحد يشتبه في اعتقاده.

استمع إلى كلام علماء الزمن بهدوء، وعض شفتيه بألم، واعترف بأن حلمه أصبح سرابا بعيدا عن حد الإمكان. لأن القائد مهما كان صالحا لا يعارض آلافا من العساكر الذين أمامه، هذا ضد العقل، ومحكوم عليه بالهزيمة. وإن كان

صارما مرة أو أخرى، ونفّذ حكمه، ولكن في هذه المرة لا مجال إلا للانسحاب.

استمع إلى كلامهم وتذكر نصبات المنجم محمد شريف، وكان هـذا الرجل متكبرا وينظر في النجوم، ولكن دائما يحدث عكس ما يبشـر به، ولذلك لم يحبه فيما بعد، وهو أيضا يسـعى إلى ألا يلتقي معه، وحُرم هذا المنجم التعيس من إمكان الحديث إلى الحاكم، ولذا كان يسحب أي واحد يلاقيه إلى جنب ويهمس إليه: كأن المريخ انحرف هذا المسـاء إلى الغرب، ومن يحارب في هذه الجهة ينهزم، ويكسّر كلامه قلوب العساكر المترددين أكثر فأكثر، وفـي النهاية عندما لم يترك الحديث عن أخبار الشـؤم اضطرّ إلى أن يطرده من ديوانه. أما هؤلاء العلماء فليسـوا مثل المنجم محمد شـريف، إنهم علماء الشـريعة، ويصلي مئات الآلاف من المؤمنين خلف أي واحد منهم.

فجـأة تذكر حدثا حصل في إحدى مـدن غزنة، قالوا هناك قبـر إذا دعوا فهو يهتز، وذهب بنفسـه وراقب طويلا، وبدا كأن القبر يهتز، جلس هناك، وفكّر مدة، وأصبح واضحا أن المجاورين صنعـوا حلقة، كانـوا يحركونها من وقت إلى آخـر من دون أن يلاحظ أحد، وعندما تهتز الحلقة، يبدو كأن القبر يهتز - مثلما يبدو لشخص ركب سفينة، وهو لم يركبها من قبل، كأن الشاطئ يتحرك. انطلاقا من هذه الفكرة، أمر المجاورين بأن يذهبوا إلى مـكان بعيد عن الحلقة، فبعدوا كثيرا، ولم تلاحظ أي حركة في القبر، ابتسـم وقبل أن يعود أمر بهـدم الحلقة، وبناء قبة عليه، وكذلك أمر المجاورين بحزم بألا يقوموا بأعمال الكذب والنصب

بعدها. نعم، هم كانوا مجاورين متجولين ويستطيع أن يأمرهم، ولكن مع أهل العلم بحضوره.

وهكذا نُسي «الخط البابري»، ثم في وقت لاحق عندما فُتح الحديث في هذا الموضوع رأى في وجوه الناس المقربين له إظهار عدم الرضا والتعجب بدلا من التأييد.

ولكنه كان متأكدا من أنه سيأتي وقت يفهم فيه أبناء الشعوب التركية أن إصلاح الخط العربي لا بد منه، وسوف يتذكرون «الخط البابري» آنذاك بالأسف.

إن كان الأمر هكذا فلا داعي للغضب من همايون. ومن الأفضل أن يرسل إليه نسخة من الخط البابري، ولكامران ميرزا، والحاجة كلان بنسخة منه، وقد تستفيد منه في يوم ما.

وبدأ يختتم كتابته كأنه وضع حدا لأفكاره، وتمنى أن يقول كلمتين أو ثلاثا من النصيحة في نهايتها:

«قبل البدء في عمل عظيم لا بد من استشارة الحكام التابعين لك، وأن تأخذ آراءهم.

وإن أردت رضاي فعليك أن ترفض الوحدة وقلة الاختلاط مع الشعب، وادع أخاك والحكام التابعين لك ليحضروا عندك مرتين في اليوم ولا تتركهم لحالهم، وعليك اتخاذ القرار بالاتفاق معهم».

وكان تردد قليل في مكان ما في قلبه بما يخص حملة ما وراء النهر مهما تمنى لأبنائه ظفرا ونصرة، ولذلك وجد أن من الضروري أن يوصي همايون بوصية كانت في أعماق قلبه:

«لقد أحرزت فتوحاتي وانتصاراتي عندما كنت في كابل، ومسكتها اليوم وجعلتها خالصة، ولا طمع لأي أحد منكم فيها».

اقشعرّ جسمه فجأة، لأن كابل أصبحت له بلدا بدل بلده، ووطنا بدل وطنه،

وإن كانت العودة إلى الوطن ليست من نصيبه فهو يوصي أن يدفن في إحدى حدائق كابل التي بناها بنفسه، وتمنى أن تهب نسائم طيبة من جهة النهر المقابلة عندما ينام نوما أبديا في التراب الحار واللين.

وتأثر كثيرا وكتب الجملة الأخيرة بسرعة: عليك أن تجمع الجيش بشكل جيد، وهنا بعض كلمات شفهية يعرفها وينقلها إليك بيان شيخ.

وتقبل تحياتي المشتاقة.

كُتب في اليوم الثالث عشر من ربيع الأول.

هكذا أنهى بابر رسالته ووضع نقطة.

وهنا نستطيع أن نضع نقطة للقصة، ولكن هناك ملاحظة صغيرة، لم تتسع لها القصة، ونرجو ألا يتهمنا القارئ على تعبيرها هنا.

وإن شخصا ذكيا مثل بابر عانى عذابا طويلا بسبب النقطة - وأثبتته الحياة - يا للعبة الدهر، فقد عانى بابر حتى بعد وفاته جبر الفتحة والكسرة - كُتب اسمه خلال سنوات طويلة بشكل بابِر (الباء الثانية بالكسرة)، وقبيل الاحتفال بمرور خمسمائة سنة على ولادته، صاح عالم ذكي وقال: «إنه ليس بابِر، بل بابُر» (الباء الثانية بالضمة)، وتم تصحيح الغلطة المنتشرة المشهورة.

وهذا هو تاريخ وقدر وموقع نقطة واحدة.

تم. نقطة.

عروس من المدينة

نرجيزة غلاموفا

طرد نور الصباح عتمة الليل، ولكن الشمس لم تشرق بعد، تحجبها الجبال العالية، وقد نبحت الكلاب، وصاحت الديوك، وبدأت القرية تنهض، وفي أفنية البيوت ظهرت الكنائن يحملن المكانس والدلاء، وإن حرمت نفسك من نومك اللذيذ، فإنك ستشاهد مشهدا عجيبا : لبست الكنائن كلهن فساتين زاهية الألوان، وأروابا وسراويل من الديباج والتفتا، كأنهن خرجن لعرض الملابس الشعبية وليس لكنس الشوارع، وبدا جمال الشوارع بعد الكنس والتنظيف، وظهرت الأزهار والأشجار بجمالها، وأشرقت الشمس من خلف الجبال، أما أبواب البيوت التي ليس فيها عرائس فتفتح بعد وقت، وفي إجازة نهاية الأسبوع تشفق الأمهات على بناتهن اللواتي بلغن سن الزواج؛ فيتركنهن حتى يشبعن من النوم ويستيقظن بأنفسهن، وعندما ارتفعت الشمس عن الأفق فُتح باب في آخر الشارع وخرجت رنا، كانت تلبس روبا قطنيا باليا، وتلفّ على رأسها شالا ذا نقشة صفراء، ورشّت الماء من الدلو على الأرض بلا رغبة، ودخلت البيت متجهة إلى غرفة النوم، واستلقت بجانب زوجها الذي كان يغطّ في نوم عميق، واستيقظت الخالة جنَّتْ على صوت أقدام كنتها، «ها هي قد انتهت من رش الماء، فهل دخلت المطبخ؟ لا ...» ونهضت الخالة جنّتْ بتجهم وبدأت تجهز الفطور، وهي تضع الصحون والكؤوس

بقوة لتصدر أصواتها فتنبه النائمين، وأحسّ الأخ قُدّرَتْ بتعكّر مزاج زوجته من مسكها الإبريق.

- أين الآخرون؟

وعض لسانه في الحال، فلم يكن هناك من داع لأن يسأل سؤالا يثير حساسية زوجته.

- أين يمكن أن يكون الآخرون في الصباح الباكر؟ ربما ينامون في أحلامهم اللذيذة، أفنية الناس نظيفة جدا، ويمكن لحس العسل إذا وقع عليها، أما فناؤنا فيكنس سطحيا فقط، لقد مرّت سنتان ولكنها لم تتعلّم حتى الآن، والأدهى من ذلك أنها أصبحت كثيرة النوم، كم قلت لك إن عروسا من المدينة لا تناسبنا!

كانت الخالة جنّتْ تتحدث وهي تصيح بأعلى صوتها، كأنها تخاطب الجيران وليس الأخ قدرت.

- ربما.

- من أين؟ كيف؟ كان من الممكن أن تنجب أولادا كثيرين، ولكن ليس هناك أمل في كنتكم هذه؛ إنها إذا هبّت عليها الرياح انحنت مثل الريحانة!

نظر الأخ قدرت إلى زوجته نظرة خاصة وقال:

- هل نسيت أنك لم تنجبي خلال أول خمس سنوات من زواجنا؟

- ولذلك أقول إن ولدي الوحيد الذي طلبته من الله تعالى يجب أن يكون له أولاد كثيرون، أما بنات المدينة فلا ينجبن إلا مولودا واحدا، أو مولودين!

- هنا ليست مدينة، وسيعطيهما الله أولادا كثيرين، سيكون الأولاد أمامك وخلفك ولن تستطيعي التحرك منهم!

بدأت الخالة جنّتْ تبكي.

- كنّتك لا تحترمني، الكنائن الأخريات ينادين أمهات أزواجهن «يا أمي»! أما كنتك، فهي..

- يـــا زوجتـــي، لو قالت لك أمي، فهل يزيدك شـــيئا أو يتغير اسمك جنّتْ؟ إن كنّتنا مؤدبة جدا، فخلال السنتين لم يحدث أي نـــزاع بينكما، أما الكنائن اللواتـــي يقلن لأمهات أزواجهن يا أمي فكم سبّبن لهن من العذاب.

- أنا معك في هذا، فهو يسعدني ويرضيني.

- انظري إلى ابنك وكنتك... إنهما مناسبان لبعضهما وكأنهما يغـــرّدان مثل عصفورين، وهذا يعني أنك حققت حلمك، احمدي ربك!

مع دخول أوميد غيّر الأخ قدرت تعبير وجهه، وحيّا ابنه:

- تعال، يا ابني! كيف أصبحت؟

- أيـــن زوجتك المحبوبة؟ أما زالت نائمـــة؟ وماذا كانت تفعل طوال الليل؟

- كفى، يا زوجتي!

قطع الأخ قدرت كلامها، بينما ظلّ أوميد صامتا، لقد فهم منـــذ زمن أنه لا فائدة من المناقشـــة مع أمّه، وظهرت رنا بعد زوجها بقليل وحيّت الجميـــع، وظلّت واقفة خجولة تنظر إلى الأرض، ولـــم تعرف ماذا تقول أو مـــاذا تفعل، ولفتت حماتها وجهها عنها، ولم تردّ تحيتهـــا، فقال الأخ قدرت لكي ينقذها من موقفها الحرج:

- تعالي يا بنيتي، بدأ الشاي يبرد.

أثناء الفطور سكت الجميع ولم يتحدثوا في شيء، وبعد الفطور تفرقوا وذهب كل منهـم في طريقه، وبقيت رنا وحيدة، فجمعت الأواني وغسلتها، ثم دخلت غرفتها وجلست على الأريكة... منذ سـنتين وهي تعيش في هذه الأسرة، ولكن كل شيء هنا يبدو لها مؤقتا، الجبال تحيط بها من كل النواحي، والشمس الحارة تشرق بعد منتصف الليل مباشـرة، والأبقار والحمير تروح وتجيء هنا وهناك، وتثير الغبار في شوارع القرية، وكل هذا لا يبدو مناسبا لها، فكيف يمكن أن تقضي عمرها بين هذه الأشياء؟

كانت هذه الحياة كلها كحلم في ظن رنا... وستسـتيقظ منه بعد فترة وستسـافر إلى مدينتها، إلى أحضـان والديها، ولو لم تكن تحب زوجها أوميد لغادرت منذ زمن، لكنها أحبّته من النظرة الأولى، عندما رأته في يوم حفلة زواج صديقتها، واعترضت أمها فـي البداية، ولكن رنا كانت عنيدة، وقـد أيّدها والدها؛ أعجبه أوميد كشاب جاد له فكر مستقل.

وبعد حفلـة زواجهما سـيطر حب أوميد عليهـا، وأعطاها جناحـين، وبدا العالـم حولها جميلا، ولكن... مـع مرور الزمن اختلـط جمال الطبيعة، وهواء الجبال النقي، وحتى حب زوجها، مع أشـياء صغيرة عادية، وبدأت رنا تشـعر بالملل من كل شيء، ومما زاد الطين بلّة أن حماتها طلبت منها أن تناديها «يا أمي».

ذات يوم اشـتاقت رنا إلـى أمها، وكانت تنظـر إلى الطريق المؤدية إلى المدينة وهي غارقة في أفكارها، واقترب منها زوجها، واحتضنها من كتفيها وسألها:

- هل اشتقت إلى بيتك؟

- نعم.

- يا رنا، هل يمكنني أن أطلب منك شيئا؟

ونظرت رنا إلى زوجها نظرة مستفسرة، فقال:

- نادي أمي «يا أمي»!

تنهّدت رنا بعمق، وقالت:

- هل تعرف أن أمي أنا بالنسبة إليّ كانت صديقتي القريبة جدا، وكنت أقول لها أسراري، وآخذ نصيحتها، إنها امرأة رائعة، أما أنا، وللأسف، فلم أنادها «يا أمي» ولا مرة.

وسكت أوميد، وبعدها لم يهتم برغبة زوجته، وانشغل بأعماله.

وازدادت علاقة رنا مع حماتها برودة، وإن لم تكن تعارض كلامها، فقد كانت تقوم بكل أمور البيت على أحسن وجه.

كانت تجلس مستسلمة لخواطرها، وفجأة أحسّت بطعم مرّ في فيها، فقامت من مكانها وأسرعت إلى الفناء، وجلست بجانب حوض زرعت فيه بعض النباتات، وكانت حماتها قريبة منها فنظرت إليها باهتمام.

وفي المساء، حينما كانت رنا تكنس الشارع، اقترب منها رستم - ابن الجيران - مسرعا وقال:

- يا رنا، إنك تبدين متعبة اليوم، كنت أراقبك من فوق السطح، وجدت لونك أبيض.

- لا بأس، ربما أكلت شيئا ما.

يعيش رستم جار الخالة جنّتْ في المنزل الملاصق، وهو في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، غير أنه يشبه الأطفال،

قصّر الله من طوله، ولكنه نشـيط، وهو أكثر أولاد القرية احتراما لجارته رنا، ولا يستطيع أن يفهم علاقته بها، وعلى كل حال فقد كان يحترمها، وارتبط بها ارتباطا شديدا، وهو يكره أوميد، وكان يعجب رنـا احترام هـذا الولد الصغير الحنون، وأحيانا كان يسـاعدها، ويمكن القول إنه كان لها الصديق الوحيد في القرية كلها.

- اسمحي لي أن أكنس فناءك!

- لا، ماذا يقول الناس؟

- ما عليك من قولهم، وأرجو ألا تكوني مريضة، إنك ضعيفة ومتعبة.

ابتسمت رنا وقالت:

- أنت غريب يا رستم؟

- طيـب، حافظي على نفسـك، وأين زوجـك المجنـون؟ ألا يستطيع أن يساعدك قليلا؟

- لا تقل هذا، هو مشغول، وأشغاله كثيرة.

- أعرف شغله! إن ثلوج السنة الماضية أنفع منه بكثير!

وذهـب إلى جهة الأولاد الذين كانـوا يلعبون بالكرة في مكان قريب.



لم ترتح رنـا في النوم طوال الليل، وعند الفجر أخذتها نومة خفيفة، ولكن زوجها لكزها في خاصرتها ليوقظها، وقال:

- قومي، حان الفجر.

ونظرت رنا إلى زوجها غير راضية، وخرجت إلى الشـارع... وابتسـمت؛ لقد رأت أن الشارع قد كُنس ورش الماء على الأرض،

«إنه شــغل رستم»! أدركت رنا ذلك في الحال، فعادت إلى البيت، وكنســت ســاحة الفناء ورشــتها بالماء، ثم فكّرت في العودة إلى غرفة النوم والاستلقاء على السرير، ولكنها دخلت المطبخ وبدأت تجهز الفطور.

وكالعادة اجتمع أفراد الأســرة حول المائدة، وبدأوا في تناول الفطــور، واســترقت رنا النظــر إلى وجه حماتهــا... لا علامة رضا... لا تغيير... وما الفائدة من إعداد الفطور؟ وما الفرق بين إعداده أو عدمه؟ وقرّبت قطعة خبز من فمها وشــعرت بالطعم المُرّ كما حدث معها أمس، فقامت إلى الخارج مسرعة، وقال الأخ قدرت:

- يبــدو أن كنّتــك مريضة، رافقيها إلى المستشــفى لمراجعة الطبيب.

فردّت زوجته:

- لم يحصل معها شيء، هذه هي عادتها!

توقف أوميد عن تناول الفطور، ورفع يديه بالدعاء ثم مســح وجهه، وأسرع إلى رنا، فقال الأخ قدرت لزوجته:

- كم انتظرتُ ولم ألاحظ سعادتك، وانظري كم حاولتِ كنّتك؟ لماذا لا تبتسمين؟

فأجابته الخالة جنّتْ وهي تبكي:

- الجيران يضحكون مني ويقولون: «إن كنّتك لا تحترمك، ولم تقل لك يا أمي خلال ســنتين، وأنت لا تســتطيعين أن تخضعيها لأوامرك»!

ابتسم الأخ قدرت ساخرا وقال:

- لا داعي لإعلان كل شيء لأهل القرية، أنت تضخمين الأمور وتجعلين من الحبّة قُبّة! إن كان هذا الأمر مهمّا بالنسبة إليك فتحدثي مع الكنّة بصراحة.

- قلت لها، ولكنها عنيدة، ربما تسمع كلامك!

ونظرت الخالة جنّتّ إلى زوجها نظرة فيها رجاء، فارتبك الأخ قدرت وقال:

- طيب، سأحاول.

كانت رنا تكوي قميص زوجها جالسة تحت السقيفة، وعندما دخل حموها نهضت ووقفت احتراما له.

وبدأ الأخ قدرت الحديث قائلا:

- يا بنتي، لا تغضبي من أمك، إنها امرأة حنون بطبيعتها، ولكنها ترجو أن ترى أحفادها، وإن شاء الله ستدركين ذلك عندما يأتي أولادك؛ فإنها ستربيهم بنفسها بكل المحبة والحنان!

سكتت رنا، وأحسّ الأخ قدرت من احمرار عينيها أنها كانت تبكي:

- هل اشتقت إلى أمك؟

هزّت رنا رأسها في هذه المرة مشيرة «نعم».

- سأقول لابني أن يرسلك إلى المدينة، وستبقين في استضافة والديك بضعة أيام!

ذهب الأب وابنه إلى العمل، وخرجت حماتها لابسة ملابس جديدة، وبقيت رنا في البيت وحدها.

ظهر لها رأس رستم من فوق الجدار، فناداها ثم قفز إليها ووقف أمامها، وأخرج من عُبّه حبات من الخوخ، ومدّ يده بها قائلا:

- خذي هذه، إنها لك.
- شكرا.
- من الآن سأحضر لك الفواكه كل يوم، وعليك أن تأكلي جيدا.
استغربت رنا قول رستم، وسألته:
- لماذا تقول هذا الكلام؟
- لأنك ستصبحين أمّا عن قريب!
- من أين أتيت بهذا الكلام؟ من قال لك هذا؟
- أهل القرية كلها يعرفون، الجميع يتحدثون عن هذا.
- أنا نفسي لا أعرف، فكيف يعرفون هم؟
- أمس جاءت الخالة جنّتْ عند أمي، وقالت لها هذا الخبر، وقد كانت سعيدة جدا، حتى أنها كانت تبكي من الفرح!
فقالت رنا وهي غير مصدقة الخبر:
- لا... لا...
- أقسم لك، أو أموت في لحظتي إن كنت كاذبا، والآن عليك أن تحافظي على نفسك.
وابتسمت قائلة:
- ولذلك كنستَ الشارع اليوم؟
- لم أكنسه أنا.
- لماذا تكذب؟ ومن كنسه إذن؟
- ربما أحد فاعلي الخير!
وضحكت رنا وهي تقول:
- طبعا، إن كنت أنت واحدا من هؤلاء، ولكن لا تفعل هذا مرة أخرى، سأفعله بنفسي، وعلى كل حال فأنا أشكرك.

- هذا لا يستحق الشكر، ولكنك تخرجين متأخرة، تخرجين بعد الجميع!

- وماذا في ذلك؟ عندما يحلّ الفجر تكون قد جفت الساحات أمام بيوت الآخرين، أما ساحتي فتكون مبللة رطبة!

ضحك رستم ضحكة مرحة وقال:

- أنت غريبة يا رنا، ولكن الأمر ليس في ذلك، رنا... هل يمكنني أن أسألك سؤالا؟

- تفضل.

- لماذا لا تتعاملين مع أي أحد في القرية؟ أم أنك تختلفين عنهم؟

- طبعا، أختلف، وإلا لما تركت المدينة وعشت في هذه القرية البعيدة عن رحمة ربنا!

استاء رستم من هذا الجواب، فسألها:

- ألا يعجبك هذا المكان؟

- لا!

- هل ستغادرين قريتنا إذن؟

- نعم، سأغادرها، ولكن لا تقلق، سأزورك عندما أجيء إلى هنا، هذا إذا لم تغادرها أنت حتى ذلك الحين!

فقال رستم فخورا:

- أنا لن أغادر هذا المكان أبدا!



جهزت رنا السفرة للعشاء، ثم أسرعت إلى الفناء، وراقبت الشمس وهي تختفي بين الجبال، وتتحلى أطرافها بأشعتها

الذهبية؛ أعجبها المنظر فقالت لنفسها: «كم هي جميلة! وكيف لم ألاحظ ذلك حتى الآن»!

وأحست رنا بالطعم المُرّ نفسه، ولكن إحساسها هذه المرة كان إحساسا جديدا، كان إحساسا لذيذا، وصار مزاجها جيدا، ووضعت يديها على بطنها بحنان، «أصحيح هذا، وهل سأصبح أمّا»؟ ولما دعاها حموها للمائدة تبعثرت أفكارها.

كانت السماء مزدانة بالنجوم، واستيقظ القمر الذي أطلّ على غرفة النوم فأيقظ رنا، وصوّتت بومة من خلف الجبال، ولم يغيّر كل هذا من سكون الليل الساحر.

ظهرت رنا على عتبة الباب، تلبس روبا دافئا أهدتها إياه أمها، وعلى رأسها شال ذهبي يناسبها تماما، وجلست قليلا على أعلى السلم، ونظرت إلى الجبال السوداء فبدت لها عظيمة وجليلة ومخلصة وصادقة؛ وسرحت بفكرها: «ستحفظني وأولادي من كل شرّ»!

واستغربت في الحال من التغير الذي طرأ على أفكارها: «ماذا يحدث معي»؟

... وحان الوقت ليخلي ظلام الليل المكان لضوء الصباح، وأخذ القمر والنجوم في الاختفاء، ومازالت رنا تجلس وتراقب الجبال العالية الممتدة أمامها، ستشرق الشمس من خلفها بعد دقائق، وستهدي العالم أشعتها الدافئة، وستستمتع بها رنا أيضا، وظهر ضوء الصبح، وبدأت ولادة يوم جديد، ولاحظت رنا أنها جزء من هذا الصبح الساحر، ووجدت إجابة عن سؤال كان يحيّرها؛ إن عاطفة الأمومة بدأت تُولد فيها مثل هذا اليوم الجديد.

نهضت رنا ونزلت، كانت خطواتها رشـيقة، وكنسـت الشارع والفناء ورشـته بالماء، ثم دخلت المطبخ ورتبت السـفرة للفطور، وبعد قليل دخلت حماتها.

- السلام عليكم يا أمي!

ارتعـش صوت رنا، وقد قالت يا أمي بـلا إرادة منها، وعلت وجه الخالة جنّتَ ابتسامة هادئة، ولكنها لم تجب في الحال.

- وعليكم السلام يا ابنتي، كيف أصبحت؟

- جيدة جدا، يا أمي، أنا اليوم استقبلت الصباح!

- وهل أعجبك؟

- طبعا، أعجبني، ولم أكن أعرف أنه جميل بهذا القدر!

ودخـل الأب وابنه غرفة الطعام، وأعطى مزاج الخالة والكنّة للفطور نكهة جديدة طيبة، وصار الحديث دافئا.

عندما اختلى أوميد بزوجته قال لها:

- يا رنا، لم نخرج إلى أي مكان منذ زمن، لنذهب إلى المدينة ولنتنزه، ما رأيك؟

- وماذا تقول أمي؟

وأعجب رنا رنّة صوتها وهي تسأل بهذا النغم الحنون اللطيف، وسـمعت صـوت الخالة جنّتَ التـي كانت تراقـب العصفورين السعيدين من بعيد:

- اذهبـا يا ولـدَيّ، اذهبا، ولكن لا تتأخـرا، لأن المائدة تبدو خالية من دونكما.

وبعد أن خرج ابنها وكنتها، اتجهت الخالة جنّتَ إلى الباب وهي تمسك في يدها كوبا فارغا، وجاءها صوت الأخ قدرت حازما:

- إلى أين أنت ذاهبة يا زوجتي؟

- سأذهب إلى الجيران، سأبحث عند أحدهم عن قشدة؛ فإن كنتك تحبّ «الششبرك»!

- وما علاقة القشدة بذلك؟

- إن كنتك لا تأكل «الششبرك» إلاّ بالقشدة.



بعض الملاحظات بشأن هذه القصة:

أولا: هذه قصة اجتماعية تبرز إحدى المسائل الصعبة في حياة المجتمع الأوزبكي، وهي العلاقة بين الحماة والكنة، وفي العادة فإن ما نسبته نحو تسعين في المائة من الفتيات عندما يتزوجن يعشن في بيت العائلة، أي مع والدي الزوج، وعلى العروس خدمة الأسرة، والقيام بتنظيف (كنس) فناء الدار من الداخل، وكذلك الساحة أمام البيت في الشارع، كما قرأنا في القصة.

ثانيا: من طرق المخاطبة عند الأوزبك أن العروس تخاطب حماتها أو تناديها بكلمة يا أمي، وهي في اللغة الأوزبكية: (آيي oyi) في طشقند وحولها، و(أيا aya) في وادي فرغانة، وتخاطب حماها بكلمة يا أبي، (أدا ada) في كلام أهل طشقند، و(دادا dada) عند أهل وادي فرغانة، وهكذا يخاطب العريس والدي العروس أيضا، ويعتبر هذا الأمر عاديا وطبيعيا ومقبولا! كما أن هناك عند الأوزبك طريقة أخرى في الخطاب، وتكون بإضافة (jon) إلى الاسم أو كلمة المخاطبة، فتصبح كلمات المخاطبة (آيي جانoyijon)، و(أياجان ayajon)، و(أداجان adajon)،

و(داداجـــان dadajon)، وهـــذا يعني زيـــادة الاحترام، والحب، والحنين.

وهكذا عند المخاطبة بالأسماء، فمثلا أخاطبك بـ«محمودجان» (Mahmudjon) إذا كنـــت صديقـــا لـــي في مثل ســـنّي، أو محمودجان أكا (الأخ محمود) إذا كنت أكبر مني سنّا، فهذا زيادة في احترامي لك، وإذا خاطبتك بـ محمود أكا (أي: الأخ محمود) فلا بأس، وتضـــاف الكلمة (أكا = الأخ) للاحتـــرام، وهذا الأمر مطلوب عند مخاطبة الشخص الأكبر سنّا، وللبنات تضاف كلمة خان، وعلى هذا فإن رنا تكون رناخان.

وطلبـــت الخالة جنّتْ حماة بطلـــة القصة من رنا أن تخاطبها بـ «أمي» (آيي جـــان oyijon)، ليعرف الآخـــرون أنها تحترمها كثيرا.

رأيت أن من الضروري شـــرح هذه المســـألة لكي يكون الأمر واضحا للقارئ العربي.

الزنبقة

أولوغ بيك حَمْدَم

أمامي قمة الجبل الضخمة ذات الحافة الحادة المستقيمة. والكل يسعى بنفسه إلى الزنبقة الخفاقة الحمراء الأسطورية الجمال التي توجد على هذه القمة. والسماء في لباسها من السحب الحمراء والسوداء والبيضاء. إنه ليس ليلا ولا نهارا، الوقت مختلط. وكل هذا يشكل منظرا مدهشا خلف الزهرة التي تهتز فوق القمة العالية، وتؤثر في القلوب عندما تنظر إليها من الأسفل. وفي رأيي، كأن السماء وصلت إلى حلمها الأعلى فهي تدور مزينة حول الزهرة. وماذا يجري في الأسفل؟ كم من الناس يتسلقون الجبل ويصعدون إلى الزهرة الساحرة، وكم منهم يقع إلى الأسفل على الأحجار على عمق مئات الأمتار ويتبعثر. ولم يصل أحد إلى منتصف المسافة بعد. هناك شعاف ودّع فيها أفراد قليلون - عبروا شعافا غيرها - حياتهم. ولكن، يا للعجب، لماذا لا يتراجع ابن آدم عن حلمه الهوائي وهو يرى كل هذا، أقرّ ويقرّ ألف مرة، بل مليون مرة باستحالة الصعود إلى القمة والوصول إلى الزنبقة من خلال مصير الآخرين؟! ولماذا يرمي نفسه إلى هذا الجحيم الذي لا يمكن الصعود إليه، وهو يرى ويعرف كل هذا؟ ويأمل أن يصل الزنبقة سليما؟.. وأقترب من المتسلقين الذين يصعدون إلى القمة ولا يتنازلون، لكي أسأل عن هذا. أمسكت أحدهم من كتفه وأدرت وجهه إليّ

وقد وضع قدمه على حجر ضخم، وأكثرت عليه الأسـئلة. ولم يقل شـيئا، بل ابتسم باستهزاء وأشار بأصبعه إلى الزنبقة! ثم تسـلق الحجر متحركا كالنملة وانخرط في الفوج الذي يتقدم إلى الأمام واختفى. أما أنا فلم أر شيئا إلا أناسا لا حصر لهم تحركاتهم غير منظمة. ثم ابتعدت قليلا عن الشـعفة ونظرت إليها من جديد:

الزنبقـة!.. تذكرت الكعبة - بـلا إرادة - وملايين الناس الذين يسـعون إليها مـن الأطراف الأربعـة... فالزنبقة مثل الشمس والآخرون مثل الكواكب - يدورون حولها.. وعدلت عن ملاحظاتـي قبل أن تأتي إلى نهايتها، لأن الزنبقة تدعوني... تدعوني أنا فقـط! وكأنها ترفض الآخرين، وتتنبه إليّ فقط، وتدعونـي أنا فقط إليها! آه، كم هي جذابة، وكم يفيض قلبي بالسـعادة!.. إنها اختارتني من بين هـؤلاء الناس، إذن، هي تعرف أنني أستطيع أن أصعد إليها بلا ضرر، وأنني أستطيع أن أنفذ هذه المهمة! إن هذه الفرصة ليسـت من نصيب أحد غيري، فعليّ أن أستفيد منها. ياه، كم أنا سعيد!.

أسـرعت ووضعت قدمي على ذلك الحجر الكبير، ومسكني أحدهم وأدارني إلى مواجهته، نظرت إليه ورأيته شابا، ويسألني تلك الأسئلة التي سألتها رجلا تقدم منذ زمن، ونظرت إلى الشاب فترة ما، ووجدته غريبا جدا أمامي - أمام إنسـان سعيد مدعو لحضرة الزنبقة، أشـفقت عليه لحظة، ولكنني لم أقـل شـيئا، ولا أعرف كيف ابتسمت له بمعنى ما، ثم أشرت إلى الأعلى، إلى الزنبقة! وواصلت طريقي.

كان الصعـــود صعبا. تارة تجد بعض الأحجـــار والحفر التي تضـــع عليها الأقدام، وتـــارة لا تجد لا حجـــارة ولا حفرة. حين أتمســـك بالأحجار المسطحة وأعبر مســـافة مهلكة ثم أنظر إلى الخلـــف أندهش. ولكن في قلبي ذكر الزنبقة، والتفاتها إليّ، إليّ أنا شـــخصيا... عندما أتخيل ذلك، أكون مســـتعدا لإلقاء نفسي في الجحيم. ذات لحظة وقع رجل، كان يصعد متسلقا في مسافة باعين أمامي، وقع إلى الأسفل، في قعر السحاب والضباب، وهو يصيح ويلوح برجليه ويديه مثلما تخفق الفراشـــة بجناحها. في داخلي تحرك شـــيء ما إلى الأســـفل - كأن صوت الموت لامس قلبي. «أليس في هذا درس لك، يا غبي؟ هل تظن أنك ســـتصل إليهـــا؟ أما المنزل فبعيد جدا... إنه بعيد جدا لن يصل إليه بصر عيوني؟..».

استفاد شخص من شـــرودي وتفكيري، فقد وضع رجله على كتفي ودفع نفسه مستندا إليّ، وثبت يده على حجارة في الأعلى، ونتيجة دفعه تحرك الحجر الذي كانت عليه رجلي وبدأت أهوي إلى الأســـفل متزلجا - وداعا! - وشعرت بطعم كلمة جاءت على بالي، وسمعت صوتها... لكن، الحمد لله، تعلقت يداي بحجر آخر في مكان ما وأنقذت من موت محقق. أما في الأســـفل فيختلط الحجر الذي ينـــزل من تحت رجلي بالأحجـــار والناس وتحدث فاجعة... أغلقت عينيّ. وشعرت بقلبي كم من الناس هلكوا، ماذا سيحدث الآن؟ وأين الاطمئنان الذي كان قبل قليل؟ وبأي ضمير سآتي إلى حضرة الزنبقة؟ وأخيرا، عندما أصل إليها تأكل ذكرى الناس الأبرياء طرف قلبي!

ولكنني لم أفعل ذلك عمدا، فإن ذلك الرجل هو الذي دفعني. فهو المذنب الحقيقي، ولست أنا! وأبحث عما يبرر عملي. ثم نظرت إليه، فإذا هو يتابعني ويبتسم. أستغفر الله! لم أعتد على أحد، ولم أظن شخصا يعاديني، وماذا يريد مني منافسي؟ وبدأ يرمي حجارة عليّ: يا إلهي، ما هذا؟ أفكر في ذلك، ووقعت الحجارة على وجهي، وتكاد تشعل النار في عيني، كان الألم شديدا إلى درجة كبيرة، وصحت من شدته: «يا الله، لن أرضى إن لم تعذب هذا الملعون!..» .

لماذا أضمرت سوء النية، وطلبت موت إنسان ما؟ لن أسامح نفسي. إن ذنوبي السابقة التي ارتكبتها قبل قليل لا تساوي شيئا أمام ذنبي هذا. لماذا حدث هذا؟ قبل قليل هلك مئات من الناس بسبب الحجارة التي خرجت من تحت رجلي، أما الآن فهذا الشخص مثل حيوان... ولا تسكن الملاحظات في قلبي، أحزن فقط، ولسبب ما أريد أن أغطس في ماء شلال، وأريد أن أسبح حتى أشبع. وفي هذه اللحظة سقط مراقبي إلى الأسفل وهو يمسك الحجر الذي تحرك من مكانه، وغرق في قعر الضباب في الأسفل.

أتجمدُ بلا حركة فترة طويلة. وأخيرا، يضحّي الوقت شغلي الشاغل. أتذكر الزنبقة من جديد، دعوتها لي ووعدها. يرتعش قلبي من جديد. وأفهم أن القدرة التي تسعى إلى الحياة والسرور تتملك جسمي ووجودي، وعليّ أن أطيعها وأتبعها مثل ما يتبع الكلب صاحبه. يترك شغلي وعذابه قلبي رويدا رويدا، ثم يعود فيزعج ذكره قلبي أحيانا.

الآن انحصـــر تفكيري فـــي الزنبقة، وأنا أســـعى إليها بألم مجهول مختلط بسرور. وماذا يمكن أن تتخيل عند قياس درجة الحس في باطني. ولكن لن أســـتطيع أن أقيس السرور عندما أصل إلى حلمي. أما ســـلكت الدرب لأجلها؟ أما عانيت العذاب لأجلهـــا؟ أما قدمـــت ضحايا من أجلهـــا؟ إذن، إلى الأمام وإلى الأمام من جديد!.

أخيرا، تلك القمة الرأســـية! ألتفت حولي: لم يبق من الذين كانـــوا يأتون كالنمل إلا قليل. «إنـــه مصيرهم!» فكرت في هذا بهدوء. وبعـــد قليل أترك أفكاري وأكرس نفســـي للوصول إلى القمـــة. حينها يقع القليلـــون الذين صمدوا مثـــل النجوم التي قطعت من الســـماء. وأتردد في نفســـي: هل يســـتطيع إنسان مـــا أن يتجاوز هذا الحاجـــز؟ ولكن، يا إلهـــي، إنني أقف أمام القمة وحـــدي. إذن وعد الزنبقة صحيح! تلهمني ذبذبات قلبي وتقوي يديّ ورجليّ. ويتسلق كل جسمي الصخر اللماع المسطح، وعلاوة على ذلك فإن رأســـي مثل الألف. لم أبذل نفســـي لأمر مثـــل هذا من قبل، كأنني أتحول إلى نملة. ويســـيل العرق مثل الماء. والخوف يتملك قلبي عندما تكون الوضعية صعبة، ولكنني أعـــرف أنني لن أتراجع عن طريقـــي وإن متّ، وأعرف أن ذكر الزنبقة لا يســـمح بذلك. وأزحف مثل العنكبوت. عليّ أن أعبر هذا المعبر فقط، وأجتاز المرحلة الأخيرة! وأصل إلى الســـعادة التي لم يحلم بها إنســـان! ويتوقف نفســـي فـــي حلقي وأختنق بالســـعادة... يا للعجب، لعل السعادة في الدنيا مثلها وهي من نصيبي!

إن الأفــكار اللذيذة جيدة، ولكنها بــدأت تعرقل وصولي إلى الهدف، وتزيد من مشــقتي. أجمع أفكاري وأوجه كل قوتي التي كنت أصرفها للتفكير في عبور المعبر. والآن يتوحد كل جسمي - عقلي وجسدي وروحي، وأتجاوز القمة الخطيرة وإن كانت هنالك صعوبــة! يا إلهي، لقد انتصرت! الحمد لله! ومن فرحتي أخذت أقفز من دون انقطاع على القمة التي وصلت إليها. وأخيرا، أنام فــي ذلك المكان من التعب وأنا أحضن الأحجار... وأحلم. ورأيت في حلمي هذا المعبر ومشــقاته. وصلته من جديد. ولكن عندما عبرت رأيت ما لم أتصور فهناك قمم رأسية متـتالية بلا عــدد لا يســتطيع إنســان أن يتصور بلوغها. وأستيقظ من حلمي وأنا أصيــح ولا أنظر إلــى الأعلى، لا يجرؤ قلبي. ولســبب ما أتابع السحب التي تسبح في الأسفل. وأشتاق إلى الأرض، ومشكلات الحيــاة والناس. أمــا الآن فأفهم جيــدا أن الطريق إلى الخلف مســدودة. ويعتصر الألم قلبي. أتلمس وأجس، ولا أســتطيع أن أنســى أنني محكوم بالنظر إلى الأعلى ومعرفة الحقيقة هناك. نعم، حان الوقت للاستناد إلى «عسى ولعل»: إما الحياة أو الموت! أخيرا، أجمع كل قدراتي وقوتي وأرفع رأسي إلى الأعلى وعيوني مغلقــة. يــا الله، يــا رزاق! وينبض قلبي، ويجــفّ حلقي، وأفتح عينيّ.



عبد الله قادري (Abdulla Qodiriy)
(١٨٩٤م – ١٩٣٨م)، وُلد في طشقند، وهو أحد الرواد البارزين في الأدب الأوزبكي. نشر روايته الأولى «الأيام الماضية» في ثلاثة مجلدات في عامي ١٩٢٥ – ١٩٢٦م. وروايته التاريخية الثانية بعنوان «العقرب من المحراب» عام ١٩٢٨م، له عدد من المقالات والقصائد والقصص القصيرة والطويلة منها «أحوالنا»، و«إلى شعبي»، و«حفلة العرس»، و«عابد الفأس»... ترجم قصة «الزواج» لغوغول، وقصة «بستان الكرز» لتشيخوف وقصصا أخرى للكتاب الغربيين إلى اللغة الأوزبكية، حكم عليه بالإعدام ونُفذ الحكم في عام ١٩٣٨م، وأثبتت براءته في عام ١٩٥٦م.

جولبان (عبدالحميد سليمان أوغلي
Chulpon (Abdul-Hamid Sulaymon o´gly)
(١٨٨٧ – ١٩٣٨م) – أحد الممثلين البارزين للأدب الأوزبكي، وُلد في أسرة مثقفة في أنديجان، وبدأ إبداعه في ١٩١٣ – ١٩١٤م، وساهم في تطوير الأدب الأوزبكي مساهمة كبيرة، ونُشرت مؤلفاته الأولى في جريدتي «صداي فرغانه» (صوت فرغانة)، و«صداي تركستان» المحليتين، وكذلك في مجلة «شورا» (السوفييت) في أورينبورغ في روسيا. وفي السنوات من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٦م نشر ثلاث مجموعات شعرية: «أسرار الصباح»، و«النهضة»، و«الينابيع»، وفي الثلاثينيات أعد جولبان مجوعتين شعريتين: إحداهما «ساز» (آلة موسيقية)، والثانية «جور» (المصاحبة)، نُشرت الأولى في وقتها، أما الثانية فلم تنشر بسبب وقوعها في فخّ سنوات القمع، ووقع جولبان ضحية لسياسة القمع مثل الأديبين الآخرين: فترت وعبدالله قادري، فقد اعتُقل في عام ١٩٣٧م، وحُكِم عليه بالإعدام، ونُفّذ الحكم في ١٩٣٨م، ثم أُثبتت براءته في عام ١٩٥٦م.
ترجم جولبان قصة «الأم» لغوركي، وقصتي «دوبروفسكي» و«باريس غادونوف» لبوشكين، ومسرحية «هاملت» لشكسبير إلى اللغة الأوزبكية.

غفور غلام (Ghafur Ghulom)
(١٩٠٣ – ١٩٦٨م)، ولد في طشقند، نشر له نحو عشرين مجموعة شعرية، منها «الأناشيد الحية»، و«كوكان»، و«أنت لست يتيما»، و«الاشتياق»، و«سيكون الاحتفال في شارعنا أيضا»؛ كان عضوا في أكاديمية العلوم في أوزبكستان، اشتغل في جرائد «كمبغل دهقان» (الفلاح الفقير)، و«قيزيل أوزبكستان» (أوزبكستان الحمراء)، و«شرق حقيقتي» (حقيقة الشرق).

عبدالله قهار (Abdulla Qahhor)
(١٩٠٧ – ١٩٦٨)، ولـد في مدينة خوقند في منطقة فرغانة، نُشـرت له رواية «مصابيح قوشجينار»، ومسـرحيات كوميدية عديدة، منها «الأسَنان المريضة»، و«صـوت من التابوت»، و«أمهاتي العزيزات»، ونُشِـرت له قصص طويلة أيضا: «الزمِّيـر»، و«الحب»، و«حكايات من الماضي»، وتَرجم رواية «جامعاتي» لغوركي، و«الخيـل ذو النـار» لغلادكـوف، و«الحرب والسـلام» لتولسـتوي إلـى اللغة الأوزبكية.

سيد أحمد حسن خوجاييف (Sayid Ahmad)
ولـد عام ١٩٢٠م في طشـقند، نشـرت له الروايـة الثلاثية «الأفـق»، وعدة مجموعات قصصية، منهـا «المحبة»، و«قصص فرغانة»، و«ذو القلب الرجالي» وغيرها، اشتهر ككاتب مسرحي، له مسرحيات عديدة، منها: «عصيان الكنائن» (كتبها على أسـاس هذه القصة)، و«العريـس» وغيرهما. ترجم بعض الأعمال الأدبيـة إلى الأوزبكية، وكذلك تُرجمت قصـص عديدة له إلى اللغات الأجنبية المختلفة.

ناصر فاضلوف (Nosir Fozilov)
وُلد عام ١٩٢٩م في منطقة تركسـتان بجمهورية كازاخسـتان، نشر أول قصة له عام ١٩٥٣م، ثم نشـر قصصا وكتبا كثيرة، منها «آق سـاي» (النهر الأبيض)، و«سرطان» ، و«قصص الربيع» وغيرها. ترجم قصصا من الأدب الكازاخي إلى اللغة الأوزبكية، يعمل حاليا في مجلة «شرق يولدوزي».

أولماس عمربيكوف (Ulmas Umarbekov)
(١٩٣٢ – ١٩٩٥)، ولـد في طشـقند، نشـرت له رواية «مـن الصعب أن يكون إنسانا»، ومسرحيات «أمانة القيامة»، و«لا تسرعي أيتها الشمس»، و«المحكمة»، و«اللجنـة»، و«اليوم الأول من الخريف» وغيرها. وكذلك نُشـر له كتاب «اللقاء عنـد الثلوج العالية» (في اللغة الروسـية)، وعدد كبيـر منَ القصص القصيرة والطويلة. وكان وزير الثقافة في أوزبكستان، ورئيس اللجنة في منظمة التضامن لدول آسيا وأفريقيا، وكان نائب رئيس مجلس الوزراء في أوزبكستان.

فرهاد موسى جانوف (Farhod Musajonov)
أديب وناثر وكاتب مسرحيات وسيناريوهات سينمائية، ولد في عام ١٩٣٢م في طشقند، نشر له نحو ثلاثين مجموعة قصصية، مثل «راكضا وراء الشمس»، و«شد حيلك يا علي قولوف»، و«قطرة ماء من الينبوع»، وله قصص طويلة منها «في يوم الإثنين بعد الفطور»، و«أشتاق إلى شارع حديقتي»، و«السيف والحسام»، وغيرها، ومسرحيات «الحمام الأبيض»، و«بحثا عن النجاة»، و«أنا تحت أمرك» وغيرها. ويعمل حاليا في مؤسسة «أوزبك – فيلم» السينمائية.

أوتكير هاشيموف (Otkir Hoshimov)
ولد عام ١٩٤١م في طشقند، نشرت له أول مجموعة مقالات عام ١٩٦٢م بعنوان «الفارس الفولاذي»، ثم نشرت له مجموعات قصصية كثيرة، منها «هواء الصحراء»، و«ماذا يقول الناس..؟»، و«وتهب الرياح»، و«الربيع لن يعود»، وغيرها، وروايات «إن كان ضوء فثمة ظل»، و«ما بين البابين»، و«العمر الذي مضى في الحلم»، ومسرحيات مثل «همّ شخص آخر»، و«عرس مبروك»، و«وفاء الإنسان» وغيرها. ترجم مؤلفات هيمينغوي، وسيمونوف، وكوبرين، وبرهولتس إلى اللغة الأوزبكية، وكذلك تُرجِمت مؤلفاته إلى مختلف اللغات الأجنبية. عمل رئيس هيئة التحرير في مجلة «شَرق يولدوزي» («نجمة الشرق»)، وفي الوقت الحاضر هو رئيس اللجنة في المجلس الأعلى – برلمان أوزبكستان.

أمان مختار (Omon Mukhtor)
شاعر وناثر وكاتب مسرحيات، ولد عام ١٩٤١م في بخارى، نشر أول مجموعة شعرية له عام ١٩٦٥م، ونشر بعد ذلك أكثر من عشرين كتابا، منها «الطيور والأحلام»، و«عروس من المدينة»، و«الوظيفة» وغيرها، ويعمل حاليا رئيس تحرير مجلة «شرق يولدوزي».

طاهر مليك (Tohir Malik)
(١٩٤٦) وُلد في طشقند لأسرة مثقفة، ودرس في كلية الصحافة بجامعة طشقند، عمل معلما في المدارس، واشتغل في دور النشر، ثم في الإذاعة والتلفزيون بالجمهورية، وكان رئيس تحرير مجلة «شرق يولدوزي» ثم مجلة «ياشليك»، وكان أمينا في اتحاد كتاب أوزبكستان. نُشرت أول قصة خيالية له عام ١٩٧١ بعنوان: «وفاة حكمت أفندي»، ثم نُشر له عدد من المجموعات القصصية والروايات: «الغبار السام» (١٩٧٨)، و«سفَراء طريق الحليب» (١٩٧٩)، و«ناس بقوا في التقاطع» (١٩٨٥)، و«عصفور أم سالم» (١٩٨٧)، و«شارع واحد وليلة واحدة» (١٩٨٨)، و«وداعا، يا طفولتي!» (١٩٨٩)، و«الطلقة الأخيرة» (١٩٩٠)، و«الشيطنة» (١٩٩٥) وغيرها. وتتميز مؤلفاته بأسلوبه الخاص. ويكتب مؤلفاته النثرية بأسلوب خيالي، أو الخيال العلمي، أو المغامرات. وترجم مؤلفات من الأدب العالمي ومنها من الأدب البلغاري.

طاغي مراد (Toghay Murod)
(١٩٤٨ - ٢٠٠٣) ولد في محافظة سرخان دريا، نُشر له عدد من القصص الطويلة، مثل «الناس في ضوء القمر»، و«أغنية الأرَض الأم» وغيرهما، ورواية «الحقول الموروثة عن أبي»، ترجم مسرحية «بنت الرجل الغني» لجيك لندن، وقصصا أخرى له، وكتاب «الحصان البري» لسيتون طومبسون. وعمل رئيس قسم في مجلة «فن وتورموش» («العلم والحياة»).

آيْدِنْ حاجييفا (Oydin Hojiyeva)
ولدت في بخارى، نُشر لها أكثر من عشرين مجموعة شعرية، منها «الأغاني التي أحبها»، و«ندى الصباح» (باللغة الروسية)، و«زهرة الحلم»، وكذلك لها كتاب مقالات بعنوان «أبحث عن الينابيع»، وقصص وقصائد للأطفال، تعمل رئيسة هيئة التحرير في مجلة «كولخان» («الشعلة») الخاصة للأطفال.

خورشيد دوست محمد (Khurshid Dost Muhammad)
وُلد عام ١٩٥١م في طشقند، نُشر له عدد من القصص القصيرة والطويلة، منها «النظرة»، و«المأوى»، و«الاستجَواب»، و«القتل الأوزبكي الصافي»... وكذلك نُشرت مجموعته القصصية «بيت في آخر الفناء». يعمل في الوقت الحاضر رئَيس هيئة التحرير في صحيفة «الحرية»، ورئيس اللجنة في المجلس الأعلى (البرلمان) بجمهورية أوزبكستان.

نارمراد نارقابلوف (Normurod Norqobulov)
وُلد عام ١٩٥٤م في محافظة يكّاباغ بمنطقة قاشقداريا، خدم في الجيش بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٣، وتخرج في كلية الصحافة عام ١٩٨٢م، ويعمل في إدارة البرامج الأدبية والدرامية في تلفزيون أوزبكستان.

خيرالدين سلطانوف (Khayruddin Sultonov)
وُلد عام ١٩٥٦م في طشقند، نُشرت له كتب «الشمس للجميع» (١٩٨٠)، و«حكاية المساء» (١٩٨٣م)، و«بلد أمي» (١٩٨٧م)، و«أما العمر فيمر» (١٩٨٨م)، و«أحلام بابُر» (١٩٩٢م)، وكذلك ترجم مؤلفات الكتاب الروس: ي. ناغيبين، وس. أليكسييف، وف. شوكشين إلى اللغة الأوزبكية.

نرجيزة غلاموفا (Nargiza Gulomova)
وُلدت في طشقند عام ١٩٦٥م، وتخرجت في كلية علوم الأحياء والأراضي بجامعة طشقند، نشرت لها قصص قصيرة في عدد من المجلات والجرائد الدولية، كما نشرت مجموعة قصصية لها بعنوان «اللقاء» عام ٢٠٠٨م في دار غفور غلام للنشر.

أولوغبيك حَمْدَمْ (Ulug´bek Hamdam)
وُلد عام ١٩٦٨م، درس في جامعة طشقند، حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٩٧م في الجامعة نفسها، نشرت له روايات ومجموعات قصصية، منها رواية «التوازن»، ورواية «الإنسان والإطاعة»، ومجموعة قصصية «الانفراد»، وكتاب المنظومات بعنوان «الوردة» وغيرها.

المترجم في سطور

د. مرتضى سيد عمروف

- وُلد في مدينة مرغيلان بجمهورية أوزبكستان عام ١٩٦٠م.
- درس في قسم اللغة العربية في كلية اللغات الشرقية بجامعة طشقند الحكومية، وفي قسم اللغة العربية بمعهد بلدان آسيا وأفريقيا بجامعة موسكو الحكومية باسم لومونوسوف.
- عمل مدرسا للغة العربية في كلية اللغات الشرقية بجامعة طشقند.
- يعمل أستاذا مشاركا في كلية اللغات والترجمة بجامعة الملك سعود منذ عام ١٩٩٧م حتى الآن.
- له عدد من البحوث في مجال الترجمة والأدب العربي نُشِرت في المجلات الجامعية والعلمية المختلفة.
- كذلك له عدد من الترجمات من الأدب الروسي والأوزبكي نشرت في مجلات «نوافذ» بجدة، و«الفيصل الثقافية»، و«الفيصل الأدبية».
- ترجم رواية «سقيفة الصفا» للكاتب السعودي حمزة محمد بوقري إلى الأوزبكية والروسية، نشرت في طشقند(٢٠٠٣) وموسكو(٢٠٠٤م).

المراجع في سطور

أ.د. نعمة الله إبراهيموف

- ولد عام ١٩٤٥م في مدينة مرغيلان في وادي فرغانة بأوزبكستان.
- تخرج في قسم اللغة العربية بكلية اللغات الشرقية بجامعة طشقند الحكومية عام ١٩٧٠م.
- عمل مدرسا عام ١٩٧٠م، وأستاذا مساعدا عام ١٩٧٥م، وأستاذا مشاركا عام ١٩٧٩م، وأستاذا عام ١٩٨٥م، ورئيس قسم اللغة العربية عام ١٩٨٠م، وعميد كلية الدراسات واللغات الشرقية بجامعة طشقند الحكومية عام ١٩٨٩م.
- مدير جامعة طشقند الحكومية للدراسات الشرقية من ١٩٩١م إلى ٢٠٠٥م.
- رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة طشقند الحكومية للدراسات الشرقية من ٢٠٠٥م وحتى الآن.
- عضو أكاديمية العلوم لجمهورية أوزبكستان (٢٠٠٠م)، فاز بجائزة الإمام البخاري العالمية (١٩٩٦م، و١٩٩٩م)، دكتور فخري بجامعة سين كيون كوان في سيئول (كوريا الجنوبية)، وعضو حقيقي للأكاديمية العالمية للعلوم والتعليم بولاية كاليفورنيا (الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٦م).
- انتُخب عام ١٩٩٧م رئيسا لجمعية الصداقة «أوزبكستان - مصر»، وفي عام ٢٠٠١م رئيسا لمجلس جمعيات الصداقة والعلاقات الثقافية والمعرفية لجمهورية أوزبكستان مع البلدان الأجنبية، ورئيس مجلس مديري جامعات جمهورية أوزبكستان. من عام ٢٠٠١م حتى عام ٢٠٠٥م.
- وفي عام ٢٠٠٣م انتُخب عضوا لمجمع اللغة العربية (مصر)، وقنصلا فخريا

لمنطقة فوكوسيما (يابان) بأوزبكستان (٢٠٠١م)، وعضوا للمجس الأعلى (برلمان جمهورية أوزبكستان).

● ترأس في برلمان أوزبكستان اللجنة الخاصة بإعادة وثائق الأرشيف الأوزبكية من الخارج.

● له عدة مؤلفات علمية، وهي:

١ - الفولكلور والتقاليد الأدبية في نشـأة السير الشعبية العربية. نظرية فنون آداب الشرق، موسكو، ١٩٨٢م.

٢ - سيرة علي الزئبق، ترجمة إلى الروسية، موسكو، ١٩٨٣م، ط ٢ - ١٩٨٤م.

٣ - السيرة الشعبية العربية، موسكو، ١٩٨٤م، ٢٥٧ صفحة.

٤ - ابن بطوطة ورحلته إلى آسيا الوسطى. موسكو ١٩٨٨م، ١٢٨ صفحة.

٥ - «أحاديث الإمام البخاري» (ترجمة إلى اللغة الأوزبكية تحت إشـراف نعمة الله إبراهيموف) في ٤ مجلدات، طشقند ١٩٩١ - ١٩٩٦م.

٦ - الأدب الشعبي العربي في العصور الوسطى، طشقند، ١٩٩٤م، ٢٤٣ صفحة (في اللغة الأوزبكية).

٧ - الأدب الملحمي الشـعبي العربي في العصور الوسـطى، طشقند، ١٩٩٤م، ٣٣١ ص (في اللغة الروسية).

٨ - قواعد اللغة العربية، الكتاب الأول، طشقند، ١٩٩٧م، ٤٥٣ صفحة، الكتاب الثاني طشقند، ٢٠٠٤م، ٦٣٥ صفحة (بالاشتراك، في اللغة الأوزبكية).

٩ - The Travels of Ibn Battuta to Central Asia. Ithaka Press، Darnel Publication limited، London، ١٩٩٩. P. ١٧٠.

١٠ - الآثار التاريخية الإسلامية في أوزبكستان، تأليف ورئاسة هيئة التحرير، طشقند، ٢٠٠٢م، ٢٦٣ صفحة (في اللغات الأوزبكية والإنجليزية والعربية).

العناوين الأصلية للقصص القصيرة ومصادرها

1) **Жинлар базми.** ***Абдулла Қодирий.*** Ўзбек ҳикоялари антологияси (танланган ҳикоялар тўплами). Тошкент, «Шарқ» нашриёти, 1997 й., 16-20-бетлар.

الزار، عبدالله قادري، مختارات من القصص الأوزبكية، دار «الشرق» للطباعة والنشر، طشقند، ١٩٩٧م. ص. ١٦-٢٠.

2) **Қор қўйнида лола.** ***Чўлпон*** **(**Абдулҳамид Сулаймон ўғли**).** Ўша манбаъ, 21-29-бетлар.

زنبقة في غضون الثلج، جولبان (عبد الحميد سليمان أوغلي). المرجع السابق. ص. ٢١-٢٩.

3) **Менинг ўғригина болам.** ***Ғафур Ғулом.*** Ўша манбаъ, 31-35-бетлар.

أيها الولد اللص، غفور غلام، المرجع السابق. ص. ٣١-٣٥.

4) **Адабиёт муаллими.** ***Абдулла Қаҳҳор.*** Ўша манбаъ, 37-40-бетлар.

معلم الآداب، عبد الله قهار، المرجع السابق. ص. ٣٧-٤٠.

5) **Каравот**. ***Абдулла Қаҳҳор.*** Асарлар. Беш жилдлик. Иккинчи жилд. Тошкент, Ғафур Ғулом номидаги Адабиёт ва санъат нашриёти. 1987 й., 299-303-бетлар.

المهد، عبد الله قهار، المؤلفات في خمسة مجلدات، المجلد الثاني، طشقند، دار غفور غلام للطباعة والنشر، طشقند، العام ١٩٨٧م، ص.٢٩٩-٣٠٣.

6) **Келинлар қўзғолони.** ***Саид Аҳмад.*** Ўзбек ҳикоялари антологияси (танланган ҳикоялар тўплами). Тошкент, «Шарқ» нашриёти, 42-50-бетлар.

عصيان الكنائن، سيد أحمد، مختارات من القصص الأوزبكية، دار «الشرق» للطباعة والنشر، طشقند، ١٩٩٧م. ص. ٤٢-٥٠

7) **Кўкёл.** ***Носир Фозилов.*** Ўша манбаъ, 95-100-бетлар.

ذو الشعر الأزرق، ناصر فاضلوف، المرجع السابق. ص. ٩٥-١٠٠.

8) **Нозик масала.** ***Фарҳод Мусажонов.*** Ўша манбаъ, 102-105-бетлар.

المسألة الحساسة، فرهاد موسى جانوف، المرجع السابق. ص.١٠٢-١٠٥.

9) **Қиёмат қарз.** ***Ўлмас Умарбеков.*** Ўша манбаъ, 107-114-бетлар.

أمانة القيامة، أولماس عمربيكوف، المرجع السابق. ص.١٠٧-١١٤.

10) **Оппоқ қор.** ***Омон Мухтор.*** Ўша манбаъ, 157-160-бетлар.

الثلج الأبيض، آمان مختار، المرجع السابق. ص.١٥٧-١٦٠.

11) **Ажиб дунё.** ***Тоҳир Малик.*** Ўша манбаъ, 189-207-бетлар.

الدنيا العجيبة، طاهر مليك ، المرجع السابق. ص.١٨٩-٢٠٧

12) **Ош.** ***Ўткир Ҳошимов.*** Сайланма. Тошкент, «Шарқ» нашриёти, 1998 й., 620-630- бетлар.

الوليمة، أوتكير هاشيموف، من كتاب «المختارات»، دار «الشرق» للطباعة والنشر، طشقند، ١٩٩٨م. ص. ٦٢٦-٦٣٠.

13) **Бобоси ва невараси.** ***Тоғай Мурод.*** Ўзбек ҳикоялари антологияси (танланган ҳикоялар тўплами). Тошкент, «Шарқ» нашриёти, 1997 й., 216-219-бетлар.

الجد والحفيد، طاغي مراد، مختارات من القصص الأوزبكية، دار «الشرق» للطباعة والنشر، طشقند، ١٩٩٧م. ص. ٢١٦-٢١٩.

14) **Саф.** ***Хуршид Дўст Муҳаммад.*** Ўша манбаъ, 243-246-бетлар.

الصف، خورشيد دوست محمد، المرجع السابق. ص. ٢٤٣-٢٤٦.

13) **Энг юксак чўққи.** ***Хуршид Дўстмуҳаммад.*** Озод изтироб қувончлари китобидан. Тошкент, «Маънавият» нашриёти, 2000 йил, 49-51-бетлар.

أعلى قمة، خورشيد دوست محمد ، قصة من كتاب «سرور الاضطرابات الحرة»، طشقند، دار «المعنويات» للطباعة والنشر»، عام ٢٠٠٠م، ص.٤٩-٥١.

14) **Рамазон.** ***Ойдин Ҳожиева.*** «Паноҳим». Шеърлар ва ҳикоялар китобидан. Тошкент, «Шарқ» нашриёти, 1998 й., 226-228-бетлар.

رمضان، آيدن حاجييفا، من كتاب مجموعة شعرية وقصصية، دار «الشرق»
للطباعة والنشر، طشقند، ١٩٩٨م. ص. ٢٢٦-٢٢٨.

17) **Камалак**. ***Нормурод Норқобулов***. Ўзбек ҳикоялари антологияси (танланган ҳикоялар тўплами). Тошкент, «Шарқ» нашриёти, 1997 й., 262-268-бетлар.

قوس المطر، نارمراد نارقابلوف، مختارات من القصص الأوزبكية، دار
«الشرق» للطباعة والنشر، طشقند، ١٩٩٧م. ص.٢٦٢-٢٦٨.

18) **Нуқта.** ***Хайриддин Султонов.*** Ўзбек ҳикоялари антологияси (танланган ҳикоялар тўплами). Тошкент, «Шарқ» нашриёти, 1997 й., ٢٦٩-٢٨٣-бетлар.

النقطة، خير الدين سلطانوف، مختارات من القصص الأوزبكية، دار
«الشرق» للطباعة والنشر، طشقند، ١٩٩٧م. ص. ٢٦٩-٢٨٣.

Shaharlik kelinchak. ***Nargiza G'ulomova***. "Yosh yuraklar yolqini» kitobidan. G'afur G'ulom nomidagi nashriyot-matba'a ijodiy uyi. Toshkent. 2003 yil.73-79 -betlar.

عروس من المدينة، نرجيزة غلاموفا، من كتاب «شعلة القلوب الشابة»، دار
غفور غلام للطباعة والنشر، طشقند، العام ٢٠٠٣م، ص. ٧٣-٧٩.

Lola. ***Ulug'bek Hamdam***. "Yosh yuraklar yolqini» kitobidan. G'afur G'ulom nomidagi nashriyot-matba'a ijodiy uyi. Toshkent. 2003 yil.6-9 -betlar.

الزنبقة، أولوغ بيك حَمْدَم، من كتاب «شعلة القلوب الشابة»، دار غفور غلام
للطباعة والنشر، طشقند، العام ٢٠٠٣م، ص. ٦-٩.

إصدارات قادمة

عشيق الصين الشمالية

(روايـة)

تأليف: مارغريت دوراس

ترجمة وتقـــيم: محمـــ عزيز الحصيني

مراجعة: د. ليلى عثمان فـ ـك

(ترجمت عن الفرنسية)

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
لمؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
ؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
لأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

جاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:

العنوان:

اسم المطبوعة: مدة الاشتراك:

المبلغ المرسل: نقداً/ شيك رقم:

التوقيع: التاريخ: / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد ولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

الكويت:
شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع
شويخ - المنطقة التجارية الحرة - شارع الموقنبيك -
مبنى رقم D14 الدور الأول
ص.ب ٢٩١٢٦ - الرمز البريدي ١٣١٥٠
ت ٠٠٩٦٥٢٤٦١٣٥٣٥ فاكس ٠٠٩٦٥٢٤٦١٣٥٣٦

الإمارات:
شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
دبي، ت: ٩٧١٤٢٦٦٦١١٥ - فاكس: ٢٦٦٦١٢٦
ص.ب ٦٠٤٩٩ دبي

السعودية:
الشركة السعودية للتوزيع
العامة - شارع الملك فهد (الستين سابقا) - ص.ب ١٣١٩٥
جدة ٢١٤٩٣ ت ٦٥٣٠٩٠٩ - فاكس ٦٥٣٣١٩١

سورية:
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
سوريا - دمشق ص.ب (٩٦٣١)١٢٠٣٥
ت - ٢١٢٧٧٩٧ فاكس ٢١٢٢٥٣٢

مصر:
دار الأخبار للتوزيع
شارع الجلاء رقم ٦ - القاهرة
ت - ٥٨٠٦٤٠٠ فاكس ٥٧٨٢٦٣٢

المغرب:
كة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر والصحافة (سبريس)
زنقة سجلماسة الدار البيضاء ٧٠
ت ٢٢٢٤٩٢٠٠ فاكس (٢١٢) ٢٢٢٤٩٢١٤

تونس:
الشركة التونسية للصحافة
تونس - ص.ب ٤٤٢٢
ت - ٣٢٢٤٩٩ فاكس - ٣٢٣٠٠٤ (٢١٦٧١)

لبنان:
شركة الشرق الأوسط للتوزيع
ص.ب ١١/٦٤٠٠ بيروت ١١٠٠١/٢٢٢٠
ت - ٤٨٧٩٩٩ فاكس - (٩٦١١) ٤٨٨٨٨٢

اليمن:
القائد للتوزيع والنشر - ص.ب ٣٠٨٤
ت - ٣/٢/٣٢٠١٩٠١ فاكس (٩٦٧) ٧/٣٢٠١٩٠٩

الأردن:
وكالة التوزيع الأردنية
عمان ص.ب ٣٧٥ عمان - ١١١١٨
ت - ٥٣٥٨٨٥٥ فاكس (٩٦٢٦) ٥٣٣٧٧٣٣

البحرين:
مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
ص.ب ٢٢٤/ المنامة - البحرين
ت ٢٩٤٠٠٠ - فاكس (٩٧٣) ٢٩٠٥٨٠

عمان:
المتحدة لخدمة وسائل الإعلام
مسقط ص.ب ٣٣٠٥ - روي الرمز البريدي ١١٢
ت ٧٠٠٨٩٦ - ٧٨٨٣٤٤ فاكس ٧٠٦٥١٢

قطر:
دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ص.ب ٣٤٨٨ - قطر
ت ٤٦٦١٦٩٥ فاكس (٩٧٤) ٤٦٦١٨٦٥

فلسطين:
وكالة الشرق الأوسط للتوزيع
القدس/ شارع صلاح الدين ١٩
ص.ب ١٩٠٩٨ ت ٢٣٤٣٩٥٤ فاكس ٢٣٤٣٩٥٥

السودان:
مركز الدراسات السودانية
الخرطوم ص.ب ١٤٤١ ت ٤٨٨٦٣١ (٢٤٩١١)
فاكس ٣٦٢١٥٩ (٢٤٩١٣)

نيويورك:
MEDIA MARKETING RESEARCHING
2551 SI AVENUE LONG ISLAND CITY
NY - 11101 TEL - 4725488
FAX 1718 - 4725493

لندن:
VERSAL PRESS MARKETING LIMITED
POWER ROAD. LONDON W 4SPY
TEL 020 8742 3344
FAX: 2081421280

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني عام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة إبداعات عالمية عام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتنطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١- أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢- يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣- يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعاً على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤- السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥- المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.

الفهرس


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية

فن القصة في الأدب الأوزبكي له تقاليد عريقة وغنية. وللأدب الأوزبكي جذور تاريخية مستمدة من الأدبين اليوناني والتركي. كما تعتبر قصص «قصي ربغوزي» لناصر الدين برهان الدين ربغوزي (في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) ذات أثر كبير في تطور الأدب الأوزبكي. وقد أسست مجموعة «أدباء التجديد» في بداية القرن العشرين الميلادي بوصفها بداية لنهضة الأدب الأوزبكي؛ حيث نشر عبدالله قادري - مؤسس النثر الأوزبكي الحديث - قصتي «الزار» و«سباق الخيل». ونشر محمود خواجه بهبودي قصة «من قتل أباه». ونشر جولبان قصة بعنوان «الطبيب محمد ديار».

كان الاتجاه السائد في الأدب الأوزبكي يميل إلى وصف القضايا الحيوية المهمة بقصص واقعية في العشرينيات من القرن الماضي. كما في قصة «الفلاح تورغون» للكاتب الروائي إيلبيك. وتندرج في الاتجاه نفسه السائد آنذاك قصص الكاتب جولبان وهي «الفتاة الخبازة»، «في الليالي المنيرة»، «زنبقة في غضون الثلج»، «القيامة». وفي قصة جولبان «بين الخرابات» نشاهد وصفا واقعيا لحياة الشعب الأوزبكي بما فيها من مشاهد مرعبة لقمع الجيش الأحمر للشعب الأوزبكي بعد أحداث قوقان. وقد كشفت وجها حقيقيا لنظام البلاشفة (النظام الشيوعي).

وكذلك فقد أضاف إبداع الأديب القاص محمود سوباي كنزا حقيقيا إلى الأدب الأوزبكي من خلال قصته «تورسونباي» التي تكشف وجه الخدامين للإمبراطورية الحمراء.

أما في سنوات الثلاثينيات فساهم الأدباء الأوزبك أمثال: عبدالله قهار، وغفور غلام، وآيدين، وشاكر سليمان بإبداعاتهم في تطور الفن القصصي الأوزبكي. واشتهر عبدالله قهار بقصته «إنسان بلا رأس». بالإضافة إلى قصص أخرى كـ «مستان»، «فتح عين الأعمى»، «المرأة التي لم تأكل زبيبا»، «المتنزه»، «ميرزا»، «الرمان»، «اللص»، «الفنان»، «معلم الآداب»؛ حيث استقى خبرته الروائية من أدباء عالميين بارزين ومن الأدب الروسي بصفة خاصة. أما قصص غفور غلام فنجد فيها خصائص وتقاليد الفولكلور والأدب الأوزبكي الكلاسيكي، كما في قصصه «الشاب»، «صيد في ألاتيه»، «جورا بوزه»، «الحيلة الشرعية»، «أيها الولد اللص».

بدأت مرحلة التحديث في فن القصة الأوزبكية في الستينيات من حيث تحول نهجها وأسلوبها إلى اللغة العاطفية والعلاقات الإنسانية، على يد الكاتب الأديب سيد أحمد؛ إذ كتب قصص «مصابيح الإقبال»، «دوتار»، «الأمواج»، «مياه الربيع» وأخيرا «عصيان الكنائن». بالإضافة إلى أدباء آخرين برزوا بعد ذلك.

أما في السبعينيات فقد نشر عدد من الكتّاب مجموعاتهم القصصية الاجتماعية أمثال حميد غلام «نجوم الأرض»، وأوكتام عثمانوف «الليلة غير الهادئة»، وشكور خالمرزاييف «عندما ينتقل الحجر الثقيل» وزاهد أعلم «العيون الصغيرة». ففي هذه الفترة وصفوا تناقضات الحياة المتنوعة ووجهات النظر المختلفة.

كما يتميز الأدب الأوزبكي بالقصص التاريخية، فيمكن القول إن الكاتب مير كريم عاصم هو واضع حجر الأساس في «فن القصة التاريخية»، فقد كتب قصصا قصيرة وطويلة في التاريخ مثل «شيراق» و«تيمورمليك».

وأخيرا فقد تطرق فن القصة الأوزبكية القصيرة إلى وصف حياة شعوب البلدان الخارجية في العالم، فتعد مجموعة «قصص عربية» لمير محسن خطوة ناجحة في هذا المجال.

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٣٨

ردمك: ٤-٢٩٤-٠-٩٩٩٠٦